



دكتور السيد صلاح الدبيكى

الخرافة والشعوذة فى المجتمع المصرى

عصر سلاطين المماليك

الخرافة والشعوذة فى المجتمع المصرى

عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

دكتور السيد صلاح الدبيكى

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

c
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام :

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

شريف قاسم

مدير الإنتاج :

جمال عابد

تصميم الغلاف : القسم الفنى

بطاقة الفهرسة

الدبيكى ، السيد صلاح

الخرافة والشعوذة فى المجتمع المصرى : عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٨٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) / السيد صلاح الدبيكى : ط١ - الجيزة : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠١٨م.

٢٤٠صفحة ، ١٧*٢٤سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٣٢٢٤٠٥٩

١- الخرافات

٢- مصر - تاريخ عصر المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م)

أ- العنوان

٣٩٨,٤

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع المريوطية - الهرم- ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٣٨٧١٦٩٣

Publisher : EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5 , Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 33871693

website:WWW.Dar-Ein.com/Email:darein2016@gmail.com

إهــداء

إلى التى ملكت شغاف قلبى ، حبيبة القلب ، ورفـيقة الدرب، وتوأم الروح ...

زوجتى الحبيبة

المحتـويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يضم هذا الكتاب بين صفحاته موضوعًا مهمًا من الموضوعات التاريخية فى مجال التاريخ الاجتماعى فى مصر- عصر سلاطين المماليك- وفى ذلك العصر الذى يمتد فى رحاب الزمان قرابة ثلاثة قرون تشكلت الملامح الأساسية فى المجتمع المصرى من حيث ثقافته ، ومن حيث علاقته بالآخرين ؛ ومن حيث نظرته لنفسه؛ فضلا عن علاقات القوى الاجتماعية الفاعلة فيه من ناحية، وعلاقته بالسلطة ورموزها السياسية والدينية من ناحية أخرى. ومن هنا تأتى أهمية موضوع الكتاب «الخرافة والشعوذة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك» ؛ فهو بحث عميق فى التاريخ الاجتماعى وتجلياته الثقافية فى مجال المعتقدات الشعبية والعادات والتقاليد التى حكمت سلوك الناس وتصرفاتهم فى ذلك العصر.

وفى هذا البحث الفريد فى بابه أجاد الدكتور السيد الدبيكى فى الإمساك بجوانب موضوعه من كافة النواحى فقد تحدث عن تجليات الخرافة والشعوذة فى الحياة اليومية للناس فى ذلك الزمان ؛ وتكلم عن علاقات المصريين بجيرانهم وأقاربهم وأصدقائهم ، فضلاً عن نظرتهم إلى الغرباء . وفى خلال ذلك كله حدثنا عن الممارسات التى قام بها المصريون والتى حكمت الخرافة الشعوذة بعضها ، وبيَّن كيف أن الناس كانوا يخلطون بين مفاهيمهم الدينية الشعبية من ناحية، وبين الخرافة والشعوذة من ناحية أخرى. ولم يترك الدكتور السيد الدبيكى أى تفاصيل تتعلق بموضوعه فى هذه الناحية. ثم بحث مظاهر الشعوذة والخرافة فى كل الجوانب التى شهدها المجتمع المصرى عصر سلاطين المماليك، وكيف تأثر السلاطين والأمراء ببعض النواحى التى كانت الخرافة والشعوذة تترك بصماتها عليها؛ مثل استطلاع المستقبل والتنبؤ بالغيب مبينًا كيف أن فريقًا من الناس احترفوا الدجل والشعوذة بضاعتهم التى يروجونها عند الطبقة الحاكمة ومن يلوذ بها، وكيف أن كثيرا من أفراد الطبقة الحاكمة آمنوا بهذه الخرافات والخزعبلات ، بل وتصرفوا على أساسها فى أحيان كثيرة.

وقد تسربت كثير من ممارسات الخرافة والشعوذة إلى رحاب التصوف ، حتى إن مؤرخًا كبيرا مثل تقى الدين أحمد بن على المقريزى لم يتردد فى إدانة الصوفية وممارستهم بأقسى العبارات . فإذا أضفنا إلى هذا ما كانت الاحتفالات الدينية تتسم به من غلبة الخرافات والخزعبلات عليها، أدركنا أن هذا العصر كان واقعا تحت وطأة الخرافة والشعوذة إلى حد كبير. وعلى الرغم من أن ذلك العصر أنتج كما هائلا من التراث الثقافى والعلمى بحيث يعد البعض العصر الأخير فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية لاسيما فى المجال الثقافى ، فإن ذلك النتاج العلمى الباهر لعصر سلاطين المماليك لم يمنع من ازدهار الخرافة والشعوذة بالشكل الذى زاد مع مرور الزمن فى ذلك العصر، وقد زاد انتشار الخرافة والشعوذة كلما اقترب ذلك العصر من نهايته .

وقد عالج الكتاب كل هذه الجوانب بشكل منهجى وصفى وتحليلى أجاد فيه المؤلف إجادة تجلت فى صفحات الكتاب. ولست أقصد فى هذا التقديم أن أعيد نشر فهرست البحث، وإنما الهدف من هذا التقديم لكتاب «الخرافة والشعوذة فى عصر سلاطين المماليك» أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أن الكتاب سابق وغير مسبوق فى موضوعه من ناحية، وأن مؤلفه الدكتور السيد الدبيكى قد فتح بابا جديدا فى دراسات التاريخ الاجتماعى من ناحية ثانية، وأن المجال مفتوح على اتساعه لمزيد من الأبحاث والدراسات من ناحية ثالثة.

نفخر نحن «دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية» بأن نضم هذا الكتاب الفذ إلى قائمة إصداراتنا التى نعتز بها كثيرا ، والتى لقيت قبولا حسنًا من القارئ الكريم.

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

المقدمة

لا يستطيع الباحث أن يُنكر أن المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك امتلأ بكثير من الخرافة والشعوذة والتى انتشرت بين جميع الطبقات حكاماً ومحكومين، من أهل الدنيا والدين، والحقيقة أن ذلك العصر يمتاز بمسحة براقة من الصلاح والتقوى والحرص على إقامة المنشآت الدينية الفخمة والرغبة فى المبالغة فى إحياء شعائر الدين، لكن هذه المسحة الخارجية لا تلبث أن تتضح حقيقتها لمن يتعمق فى البحث، فتبدو طلاء خادعاً يُخفى وراءه انحلالا خلقياً بعيد الغور وأمراضاً متوطنة خبيثة تُثير الاشمئزاز والنفور، ولا يمكن أن يكتمل تصوير المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك بغير الإشارة إلى هذه الخرافات والخزعبلات [1] ومدى انتشارها وخطورة أثرها، وهو ما سنراه في هذه الدراسة التى نحن بصددها.

وقد أخترنا موضوع الخرافة والشعوذة فى المجتمع المصرى عصر سلاطين المماليك، لكى نتعرف على الخرافات الموجودة فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر والذى اتسم بمسحة دينية براقة؛لذا تحتم علينا أن نوضح الوجه الآخر لذلك العصر، وكذلك لمعرفة سريان تلك الخرافات التي لها أثر إلي الآن في حياتنا اليومية، ولم نقصد من دراستنا فى هذا الموضوع أن نذكر أن المجتمع المماليكى كان الغالب عليه الخرافات والشعوذة وأنه مجتمع سوداوى، بل أردنا توضيح الوجه الآخر لهذا العصر. أضف إلى ذلك خلو مكتبة تاريخ العصور الوسطى من عمل علمى متخصص فى هذا الموضوع، اللهم إلا بعض الدراسات غير المستفيضة.

ولقد اتخذت الدراسة من "مصر" محوراً بوصفها أنموذجاً طيباً يمثل العنصر الثابت-نسبياً- فى أركان العملية التاريخية "المكان" فضلاً عن أنها اكتسبت فى كتابات المؤرخين والكتاب أبعاداً ودلالات شتى، كما وضعت فى إطار زمنى محدد ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م.

---

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٢م، ص ٢٤٧.

ونحن اتخذنا من سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م منطلقاً لدراستنا؛ نظراً لأنه بداية عصر سلاطين المماليك الذى نعمت فيه البلاد بالاستقرار والاستقلال ما يقارب ثلاثة قرون من الزمان، حيث أصبحت قلب امبراطورية مترامية الأطراف ومركزاً للخلافة السنية، وقلعة حماية لكل مسلمى العالم بما فيهم مسلمو الاندلس.

وعن الدراسات السابقة نجد أن أستاذنا الدكتور سعيد عاشور قد أشار فى كتابه "المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك" ، إلى ذكر بعض الخرافات مثل: التشاؤم والتطير والحسد وأيام السعد والنحس والاعتقاد فى الجن والسحر والتنجيم والاعتقاد فى الأولياء، وقد أفدت إفادة عظيمة من هذا الكتاب القيم.

وهناك رسالة ماجستير بعنوان :"الأمراض الاجتماعية بالطبقة الأرستقراطية المملوكية فى مصر زمن المماليك البحرية" بآداب عين شمس وهى للباحث إسماعيل عبد المنعم محمد قاسم، التي تحدث فيها عن الأمراض الاجتماعية من زنا وشذوذ جنسى وشرب الخمر والمخدرات وأيضاً الرشوة، والرسالة فى معظمها تعد تكراراً لما كتبه الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فى كتابة سالف الذكر، كما تطرق إلى بعض الخرافات التى اعتقدها الناس فى هذا العصر مثل: الاعتقاد فى الأولياء، والسحر والتنجيم والدجل، والتطير والتشاؤم وتحدث عنها بشكل مبسط ولم يتطرق إلى أثر الخرافة والشعوذة على المجتمع المماليكى، كما أن دراسته كانت قيد الفترة الأولى من الدولة المملوكية وهى زمن المماليك البحرية، ولم تذكر دراسته من قريب أو بعيد الحديث عن الخرافات الخاصة بالحياة اليومية أو معتقدات غير المسلمين، أو حتى بذكر العلاقة بين الصوفية والخرافة، وعلي الرغم من ذلك فإن الدراسة بها معلومات كثيرة عن تاريخ مصر الاجتماعى حينئذ.

* * *

وقد وضعت هذه الدراسة، فى خمسة فصول، فضلاً عن المقدمة – التمهيد- والملاحق والخاتمة، وكل فصل يشتمل على العديد من النقاط التى توضح وتفسر جانباً من جوانب البحث المتعددة.

ففى الفصل الأول، تناولت "الخرافة والشعوذة فى الحياة اليومية" من حيث الزواج والميلاد والختان والوفاة باعتبارها دورة حياة، ثم تطرقت إلي الخرافة والشعوذة وتأثيرها على العلاقة مع الجيران، ثم انتقلت للحديث عن الخرافات المرتبطة بنهر النيل، إلى جانب الحديث عن من ادعي النبوءة والصعود للسماء.

أما الفصل الثانى، فقد خصصته للحديث عن "طبقة المماليك وعلاقتهم بالخرافة والشعوذة" ، وتحدثت عن دور الرؤى والأحلام فى حياة المماليك، وكذلك تطرقت إلى أثر التنجيم على المماليك واختتمت الفصل بالحديث عن السحر وأثره على طبقة المماليك.

والفصل الثالث فقد تناول "التصوف وعلاقته بالخرافة والشعوذة" حيث تعرضنا فيه لاعتقاد الناس فى الأولياء المجاذيب، وانتقلنا للحديث عن زيارة الأضرحة، ثم تطرقنا للحديث عن مزاعم الكرامات، ثم اتجهنا للحديث عن الموالد وأثرها، واختتمت الفصل بالحديث عن تأثيرات الصوفية على ذهنيات المجتمع.

وقد خصصتُ الفصل الرابع للحديث عن "الخرافة والشعوذة فى معتقدات غير المسلمين" عرضنا من خلاله الخرافات المرتبطة بحياتهم الخاصة، ثم انتقلنا للحديث الخرافات المرتبطة بأعيادهم، ثم اتجهنا للحديث عن مقدسات أهل الذمة ومدى ارتباطها بالخرافة والشعوذة، فضلاً عن موالد أهل الذمة، وأخيراً ذكرنا تأثير أهل الذمة على عادات وتقاليد المجتمع المصرى.

أما الفصل الخامس "الخرافة فى كتابات عصر المماليك" فقد خصصته لإبراز الأدب الشعبى فى ذلك العصر، وتناولت نبوءات تولى قطز لسدة العرش تحت عنوان، قطز من المملوك إلى السلطان الخرافة المرتبطة بذلك، ثم انتقلت للحديث عن سيرة الظاهر بيبرس بين التاريخ والسيرة، ثم دلفتُ للحديث عن ألف ليلة وليلة وما بها من خرافات.

وأخيراً لخصت فى خاتمة البحث النتائج التى توصلتُ إليها، ولا يخفى أن هذا النوع من الدراسة يتطلب مادة غزيرة حيث إن مقوماته موزعة بين مختلف المصادر، وربما كانت من ثنايا السطور للكتاب المعاصرين، إلا أن المصادر التاريخية المتعددة التى تناولت الفترة التى نحن بصدد دراستها، كانت أكبر حافز على اختيار هذا الموضوع والكتابة فيه، حيث يوجد بها شذرات متفرقة هنا وهناك، وتارة صريحة وتارة ضمناً، فكانت هذه المادة التاريخية التى ساعدت الباحث على نسج موضوع هذا البحث.

وعلى المستوى المنهجى فقد حرصتُ كل الحرص على متابعة المادة الإخبارية بالاستقراء والتحليل والمقارنة، ولم أعتمد إلا على الشهادات المصدرية فى تأكيد أى خبر كان، فضلا عن الاجتهاد فى توثيق الخبر المصدرى ، حيث تم الاستشهاد بنص تاريخى فى قضية مهمة، بغية أن نستأثر

الدلالة اللغوية والشحنة التاريخية للمصطلحات الأساسية الواردة فى النص باهتمام بالغ، كما أن السياق التاريخى للشهادة المصدرية وظرفية إنتاجها يحظيان بعناية فائقة، كلما كان لذلك داع لفهم القضية التى ندرسها.

والمتأمل فى هذه الدراسة سوف يلمس خيطا يربط فصولها، بمعنى أن كل فصل حلقة تُكمل ما قبلها وتمهد لما بعدها بحيث يأتى البحث سلسلة متصلة متواصلة.

ولعل البعض يلحظ أن فى الفصل الخامس تكراراً لتناول بعض الأفكار الواردة فى الفصل الثانى أو زيادة فى الايضاح أو تناولاً للموضوع الواردة فى الفصل الثانى أو تناولاً للموضوع مع زاوية أخرى، مع الأخذ فى الاعتبار أن كل نقطة فى البحث تهدف لتوضيح ظلال اجتماعية معينة وبيان أثارها وتأثيراتها فى مواضع متباينة داخل الإطار العام للدراسة.

وأخيراً، إذا كنت قد وفقت فى معالجة هذا البحث فإنما يرجع الفضل فى ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، ثم أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم، على ما أولانى إياه من عطف وشرفت بإشرافه على هذه الرسالة، وما تفضل به من عون وتوجيهات سديدة أنارت لى الطريق ونأت بى عن ظلمة الجهل والتيه والضيق، فله منى دعاء إلى الله أن يجعل علمه فى ميزان حسناته، وأن يجزيه عنى وعن طلبة العلم خير الجزاء وأوفاه وأعلاه.

تمهيد

يخطىء الكثيرون من الباحثين فى التفريق بين مصطلح الخرافة والشعوذة من ناحية والأسطورة من ناحية أخرى ؛ مدعين أنهما يحملان نفس المعنى، لكننا نجد أن هناك اختلافاً كبيراً بينهما، وهو ما أكده دارسو الفولكلور والمتخصصون فى الثقافة الشعبية وهذا الاختلاف يجب توضيحه والإشارة إليه[1].

ولو نظرنا إلى تعريف الخرافة لغة، لوجدنا أنها الحديث المُستملحْ من الكذب، وقالوا: حديث خرافة، وذكر ابن الكلبى فى قولهم حديث خرافة، نسبة إلى رجل من بنى عذرة "يدعى خرافة" وقد استهوته الجن، فكان يحدث بما رأى فكذبوه وقالوا: حديث خرافة ، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خرافة حق" والراء فيها مخففة ولا تدخل الألف واللام ؛ لأنه أريد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل[2].

أما اصطلاحاً، فهى مجمل الأفكار والممارسات والعادات غير المستندة إلى التبرير العقلى والتى لا ترتكز إلى مفهوم علمى، كما أنها لا تتفق مع الواقع الموضوعى، بل تتعارض معه، لكن ليس كل اعتقاد أو فكرة تتعارض مع الواقع تعد من الناحية العلمية خرافة[3].

بينما الشعوذة فى اللغة : هى خفة اليد وأخذ كالسحر، حيث يُرى الشىء بغير ما عليه أصله فى رأى العين، ورجل مشعوذ، ومشعوذ ليس من كلام البادية، والشعوذة: السرعة، وقيل: هى

(١) وهو ما أكده الدكتور أحمد كمال زكى بقوله :"كثير من الدارسين، يجعلون الحكاية الخرافية لونا من ألوان الاساطير، وبخاصة إذا اعتبرت عملية إخراج موضوعى لنزعات خارقة، وهناك آخرون يردونها إلى الطوطمية أو الروحانية أو السحر أو النبوءة التى اشتهرت بها الشعوب فى مراحلها الأولى، ومع ذلك ينبغى أن نلاحظ أن الخرافة تختص بحدث يومى من أحداث الحياة، فى حين تختص الأسطورة فى مجموعها بالظواهر الكونية وما وراءها، أحمد كمال زكى، الأساطير دراسة حضارية مقارنة، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة الطبعة الثانية ٢٠٠٠ ص ٥٥.

(٢)الرازى، مختار الصحاح، اعتنى بترتيبه السيد محمود خاطر، الهيئة العامة للشئون والمطابع الأميرية القاهرة ١٩٦٢م ص ١٧٣؛ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ٢٠٠٨م جـ٥ ، ص٥١.

(٣)سناء محمد سليمان، الخرافات والسحر والشعوذة بين السعادة والوفاق واليأس والشقاق، عالم الكتب القاهرة الطبعة الأولى ٢٠١١م، ص ٢٧.

الخفة فى كل أمر، والشعوذى يقصد به رسول الأمراء فى مهماتهم على البريد، وهو مشتق منه لسرعته، وقال الليث : الشعوذة والشعوذى مستعمل وليس من كلام أهل البادية[١].

واصطلاحاً: هى تلك الأفعال المبنية على خفة اليد وسرعة الحركة مستعملاً قوة الإيهام والخداع[٢].

ويُشير الدكتور أحمد كمال ذكى إلي أن الحكايات الخرافية - بصفة خاصة" تتفق فى كونها بقايا معتقدات تضرب فى أعماق العصور، وقد فُقد المغزى فى هذه الحكايات ومع ذلك لا نفتأ نحس دائماً أثرها، ولربما وجب علي بعضنا أن يتبين فيها بعض تصورات طوطمية أو حيوانية، بل أكثر من ذلك ربما لفتنا إلي ما فيها من خزعبلات ومنها: التطير أو ربط رؤيا النائم بما رآه لعله يقع له وشيكاً أو بعد حين، ووضع رسم للكف على باب البيت[٣].

وإذا انتقلنا إلى "الأسطورة" [٤]، فهى قصة مخترعة يكون اختراعها وتأليفها بغرض تفسير بعض الظواهر والأحداث الطبيعية غير العادية كالزلازل والبراكين وكذلك البدايات الأولى للكون وغيرها[٥]، كما أن الأسطورة تتسم بمجهولية المؤلف وغموض الأصل بل وأحياناً بغموض المعنى[٦].

(١)ابن منظور ، لسان العرب، جـ ٨ ، ص ٨٨

(٢)محمد الجوهرى ، المعتقدات، والمعارف الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١١م، المجلد الخامس، ص ٣١٩.

(٣)أحمد كمال ذكى، الأساطير، ص ٥٨

(٤)لغة من "سطر" الفصل الثلاثى، وسطر "يسطر" إذا كتب وهى بمعنى تقسيم وتصفيف الأشياء، فالأسطورة تعنى الكلام المسطور المصفوف، ولا يشترط فيها أن تكون مدونة أو مكتوبة، ولكن بالضرورة هى الكلام المنظوم سطراً وراء سطر، ولا يقال عن المسطور أنه "أسطورة" إلا باعتبارات معينة أهمها مادتها العلمية ذات الطابع المقدس، وصياغتها فى هيئة رمزية تضفى عليها طابعاً سحرياً قادراً على تحفيز وقيادة المشاعر والاتجاهات، والأساطير جمع أسطورة ، للفراهيدى، الخليل بن أحمد ق ١٧٥هـ، العين، تحقيق مهدى المخذومى، إبراهيم السامرائى، دار الحرية بغداد ١٩٨٤م ، ص ٢١٠ ؛ عمرو منير، الأساطير المتعلقة بمصر فى كتابات المؤرخين المسلمين ، عين للدراسات الإنسانية و الاجتماعية القاهرة ٢٠٠٨م ، ص ٣١.

(٥)فاروق أحمد مصطفى، الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٢٧.

(٦)كارم عزيز، الأسطورة والحكاية الشعبية فى العهد القديم، دار عين للدراسات الإنسانية القاهرة ٢٠٠١م، ص١٠٠.

وعلى أية حال، فقد نشأت الأسطورة نتيجة دوافع نفسية وظروف حضارية محدودة، ويمكننا أن نقول بإيجاز إن الأسطورة نشأت نتيجة إلحاح الإنسان القديم على فهم الكون بظواهره المتعددة وربط هذه الظواهر فى بناء متماسك متكامل، ومن الطبيعى أن الإنسان القديم عندما حاول أن يحكى قصة الظواهر الكونية، كان الخيال وسيلته الأولى فى تشخيص هذه الظواهر، وبذلك أصبحت الأسطورة تتألف من صور خيالية محضة، ولا يعنى هذا أن الخيال الأسطورى لا صلة له بالواقع، بل إنه شديد الصلة بواقع الإنسان النفسى والاجتماعى من ناحية، وبالبناء القديم للكون من ناحية أخرى، ولا عجب بعد ذلك أن أصبحت الأسطورة أقدم شكل فنى تولى وضع الأساس الأول لمنطق الكون والحياة[١]، ولذلك كان من الضرورى أن يلجأ الإنسان إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده فى الكون، هذه الرغبة فى معرفة الماضى والاهتمام به عكست القلق الوجودى الذى تملك الإنسان وجعله يتوق إلى معرفة أصول الوجود والأشياء[٢].

خلاصة القول، أن الخرافة والشعوذة هى الأفكار التى تحرك الناس يومياً وتختص بحدث يومى من أحداث الحياة، فى حين تختص الأسطورة فى مجموعها - بالظواهر الكونية وما وراءها ، وقد أردت بذلك أن أنزع اللبس الذى يقع فيه العديد من الباحثين الذين يعتقدون أن الخرافة والشعوذة والأسطورة مصطلحات مترادفة لمعنى واحد.

---

(١) نبيلة إبراهيم سالم، البطولة فى القصص الشعبى، دار المعارف القاهرة د.ت ، ص ٩.

(٢) قاسم عبده قاسم، فى تطور الفكر التاريخى، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٤م ، ص٦٥.

الفصل الأول

الخرافة و الشعوذة في الحياة اليومية

الزواج والإنجاب- الميلاد- المآتم و الأحزان- الأعياد- في حالة السفر- في حالة السرقات - العلاقة مع الجيران- التشاؤم و التطير- الإعتقاد بوجود الجن- طاسة الخضة- الإعتقاد في العين والحسد- الظواهر الطبيعية- العمران- نهر النيل- إدعاء النبوة- خرافات أخرى

تعكس العادات والتقاليد جوهر التكوين الاجتماعى والاقتصادى للمجتمعات البشرية، فمن خلال رصد التصرفات اليومية للأفراد والوقوف على الطقوس الخاصة بذلك المجتمع يمكننا أن نرسم صورة عامة عن هذا المجتمع، وسنحاول إلقاء أضواء كاشفة عن أحوال الناس فى المجتمع المصرى عصر سلاطين المماليك، والذى نالت منه الخرافة والشعوذة حيزاً كبيراً، حتى غدت بمثابة السنن الثابتة، وارتبطت الخرافة والشعوذة بالافكار التى تحكم الناس، وأصبحت واقعاً ملموساً، وأثرت فى طبائع الناس وطرائق تفكيرهم وسلوكهم وعاداتهم ومعتقداتهم، وما كانوا يحبون وما كانوا يكرهون، بل سيطرت على بيوتهم وأسواقهم وحرفهم وفى أفراحهم واتراحهم، ولا يغيب عن أذهننا أن هذه الخرافات والخزعبلات لم تكن وليدة العصر المملوكى بل كانت وليدة عصور سحيقة، وفى الصفحات التالية سنحاول أن نتعرف على الخرافات فى الحياة اليومية من زواج - وميلاد - ومأتم وأحزان، وعلاقة مع الجيران- وفى حالة الاعياد وفى السرقات... وغيرها.

الزواج والإنجـاب :

عرف المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك مجموعة من العادات والتقاليد المرتبطة بالزواج والإنجاب، وكانت هذه العادات مشوبة بالعديد من الخرافات، ولا تهمنا التفاصيل الخاصة بمراحل الزواج واحتفالاته[1]، بقدر حاجتنا إلى التعرف علي كيفية وجود قدر كبير من الخرافات

---

(١) لمعرفة المزيد عن مراحل الزواج والاحتفالات الخاصة به، انظر ، سعيد عاشور المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٢م ، ص ١٢٤ وما بعدها؛ أحمد عبد الرازق، المرأة فى مصر المملوكية، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩م؛ سحر السيد إبراهيم، تربية الأطفال فى عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة الطبعة الأولى ٢٠١٤م ، ص٤٧ وما بعدها جدير بالذكر ذكر بعض الرحالة الأوروبيين بعض عادات المصريين المرتبطة بالزواج للمزيد أنظر

Frescobaldi ,Gucci ,Sigoli ,Avisit to the holy places ,ed theophlus Jerusalem .1948 P..159.

المرتبطة بالزواج بشتى مراحله، إذ يقول الفقيه المغربي ابن الحاج: "أما النكاح فلا تسأل عما أحدثوه فيه... وهو كثير متعدد قل أن ينحصر أو يرجع إلى قانون معلوم لاختلافه بالنسبة إلى الأقاليم والبلاد والعوائد"[١].

ومن الخرافات التي كانت شائعة في المجتمع، أنهم كانوا لا يفضلون الزواج في شهر "بابه" اعتقاداً منهم أنه يذم فيه كل شيء يراد ثباته[٢]، كما جرت العادة أن يقدم العريس لعروسه عروسة من الحلوى تضعها في المنزل اعتقاداً بأن هذا العمل يمنع الحسد، فكل الأنظار ستتجه إلى عروسة الحلوى وروعة زينتها بدلاً من العروس الحقيقية التي يتم زفافها[٣]، كذلك كانت تقوم بعض النساء بتعليق شيء من سمك الرعاد على صدورهن اعتقاداً منهن بأن ذلك يحول دون فراق أزواجهن[٤]، وأيضاً كانت العروس وسائر النساء يخضبن أيديهن وأرجلهن بالحناء من أجل إبعاد الأعين الشريرة الحسودة [٥].

وعلاوة على ما تقدم، إذا لم تجد المرأة زوجاً لها، فإنها تتجه إلى أعمال خرافية حتى تأتي لها بمن يتزوجها، وقد كانت هناك شجرة تعرف "بالإهليجة" في جامع محمود بسفح جبل المقطم، تقبل النذر، ومن النساء من يأخذن منها سبع ورقات وينذرن لها، ويفعل ذلك من النساء من تريد الزواج[٦].

واعتاد الفلاحون أن يطوفوا بالعريس في أنحاء القرية وسط ضرب الطبول ومدح المنشدين وحوله الجدعان تخبط بالنبابيت والنساء يزغردن وينثرن الملح على العروس خوفاً عليها من الحسد[٧].

(١) ابن الحاج، المدخل، تحقيق أحمد فريد المزيدي، المكتبة التوفيقية القاهرة، جـ٢، ص ٢٤٨.
(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٣٨
(٣)ابن يحيي أحمد بن يحيي ت٣٦٠هـ،كتاب تدبير الحبالي والاطفال والصبيان، بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٣٤طب ورقة ١٠٩ ؛ جيهان المأمون، من سيرة المماليك، دار نهضة مصر القاهرة الطبعة الثانية ٢٠١٥م، ص ١٥٥.
(٤) السيوطي، كوكب الروضة، ص ٧.
(٥) محاسن الوقاد، اليهود في مصر المملوكية في ضوء وثائق الجنيزة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩م، ص ٣١٣.
(٦) التلمساني، سكردان السلطان، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الأولى٢٠٠١م، ص ١٩٤
(٧) الشربيني، هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف، بولاق ١٨٩٠م، ص ٩-١٠؛ ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق إبراهيم حمادة، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ١٥٨، سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٣٦؛ أحمد عبد الرازق، المرأة في مصر المملوكية، ص ٨٧.

الميــلاد

وإذا ما انتقلنا إلى مرحلة ما بعد الزواج، وهى مرحلة الحمل نجد أنها قد سيطرت عدة خرافات على أفكار الناس فى المجتمع المصرى، فإذا أصيبت المرأة بالعقم وعدم الانجاب، فإنها تتجه إلى وصفات غريبة ،منها "إذا شربت المرأة نشارة العاج ثلاثة أيام حملت إذا كانت عاقراً"(١)، كما ساد فى المعتقد الشعبى أن الزوجة التى تأخرت فى الإنجاب تشفى من العقم إذا زارت المقابر ساعة صلاة الجمعة وخطت فوق سبعة قبور(٢)، كذلك ما أشار إليه المقريزى من أن هناك كنيسة فى بعض قرى مصر الفيوم فيها سرداب ينزل إليه... وفيها سرير تحته رجل وصبى مشدودين ... وذكر عن أهل القرية أن المرأة المتوهمة فى نفسها حملاً تحمل ذلك الصبى وتضعه فى حجرها فيتحرك ولدها فى البطن...." (٣).

ومن جهة ثانية، قد تلجأ بعض النسوة إلى أساليب خرافية لتحديد النسل، إذ تعتقد المرأة أن عدم الإنجاب قد يحدث نتيجة كبسة تحدث للمرأة فى حالات معينة، مثل أن يدخل عليها شخص آت من جنازة؛ لهذا فالمرأة الراغبة فى عدم الإنجاب توصى أحد أقاربها أو معارفها بأن يأتى بأى شخص لديه قريب متوف ويدخل عليها وهى فى حالة نفاس فتحدث الكبسة وبالتالى عدم الانجاب(٤)، كما يشير المقريزى إلي وجود حجر فى الفيوم إذا امسكه الانسان بكلتا يديه تقيأ كل شىء فى بطنه وبها خرزة تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل.(٥)

كما اتجهت بعض النسوة إلى أكل ذبل الفيل حتى لا تحبل(٦). ومما هو جدير بالذكر أن النسوة الحوامل يسعين إلى تحاشى المناظر القبيحة أو غير السارة، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى تأثر أطفالهن الذين لم يولدوا بتلك المناظر، وإذا تصادف أن رأت امرأة حامل ميتاً، سواء كان رجلاً أو امرأة ، دون أن تأخذ الاحتياطات ، فهناك اعتقاد شائع بأن الطفل سيموت بمجرد ولادته ؛لذلك

---

(١) محمد بن منلكى، أنس الملا بوحش الفلا، تحقيق محمد عيسى صالحية، دار البشير للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٣م، ص ١١٢.

(٢) محمد الجوهرى، المعتقدات والمعارف الشعبية، مجلد الخامس، ص ١٨٩

(٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، الطبعة الثانية ٢٠١٣م ، المجلد الأول، ص ٩٩.

(٤) محمد الجوهرى، المعتقدات والمعارف الشعبية، المجلد الخامس ، ص ٥٩.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ٨٤

(٦) محمد بن منكلى، أنس الملا بوحش الفلا ، ص ١١٢

فإن المرأة الحامل عندما ترى ميتاً تقوم على الفور بقطع عقدها لكى تقوم حياته فى حجرها، ثم ترش الماء على وجهها، ويعتقد أن هذا ضمان لأن يعيش الطفل بعد ولادته[١].

على أية حال، إذا تعسرت الولادة على المرأة أخذت لباب الخبز ،حيث يجعلن فى قلبه ذبل الفأرة ويطعمنها ذلك حيث لا تشعر، ويعللن ذلك بزعمهن أنه يهون عليها الولادة[٢]، وفى بعض الأحيان كن يجعلن تحتها بعضاً من ريش النسر إذا توافر لهن ذلك[٣] كذلك إذا وضعت يد الضبع تحت قدمى امرأة سهل عليها ولادتها بعد تعسرها[٤]، وأثناء عملية الولادة يتوسلون بأسماء الأنبياء والأولياء لتسهيل عملية الوضع، والاسم الذى تحدث بعد التوسل بصاحبه الولادة، يطلقنه على المولود، وهن بذلك يربطن بين ما يعتقدن من بركة الإسم وأثره الذى تحققن من إجابته، وبين المولود ويكون الاسم بذلك "مبروك محبوب"[٥].

وكانت استشارة المنجمين قبل تسمية الطفل، عادة شائعة ، حيث يعرضون على من "يحسب النجم" عدة أسماء، فيقوم المنجم بحساب نجم كل اسم، ويعين لهم الاسم الأنسب، ويعكس هذا الاعتقاد الشعبى تأثير الطوالع والأبراج فى مصائر الناس، وفى خطورة الاسم وارتباطه العضوى بحامله، وأن للحروف والأعداد أسراراً وآثاراً يقول البونى: "واعلم أن للأعداد أسراراً كما أن للحروف آثاراً"[٦].

ومن العادات أيضاً التى كان يحرص عليها الناس استقبال المولود فى خرقة أحد الصالحين من أهل العلم والدين، اعتقاداً أن ذلك سوف يكون مصدر بركة وسعادة للمولود، كما تقوم القابلة أو

(١) وينفريد بلاكمان، الناس فى صعيد مصر، ترجمة أحمد محمود، دار عين للدراسات الإنسانية الاجتماعية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص ٤٢.

(٢) ابن الحاج، المدخل، جـ٣ ، ص٢٧٥؛ أحمد عبد الرازق، المرأة فى مصر المملوكية، ص١٢٦؛ محمد حسن محمد حسن، الأسرة المصرية فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير الزقازيق ١٩٨٩م ، ص ١٠٧.

(٣) الابشيهى ، المستطرف، جـ٢، ص ١١٧

(٤) محمد بن منكلى، أنس الملا بوحش الغلا، ص ١١٧

(٥) وقد يسمون المولود باسم قبيح، إذ كان إخوته الذين سبقوه قد ماتوا، ويعد هذا حيلة لمواجهة ما قد تعرض له من الموت مثل أخوته ويعكس هذا الاعتقاد فى الارتباط بين الاسم وصاحبه، وأنهم حين يقبحون الاسم فإنهم يقبحون حامله وبذا يصرفون عنه خطر الحسد أو أذى الأرواح الشريرة، محمد عبد السلام إبراهيم، الإنجاب والمأثورات الشعبية، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص ٦١، ٦٢.

(٦) البونى، شمس المعارف ولطائف العوارف، مطبعة المعارف العلمية القاهرة د.ت، جـ١، ص٥؛ وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٥م جـ١، ص٧١.

الأب بالآذان فى أذن المولود اليمنى والإقامة فى اليسرى وتحنيكه بتمرة مضاف إليها ماء، ويكون ذلك دفعاً للشيطان وما يقع فيه الأطفال من أفعال قبيحة(١)، وعند قطعة سرة المولود يجتمع حوله حشد كبير من صغار الأطفال زعماً أن من لا يحضر من الصغار عند قطعها ودخل بعد ذلك عليه، تحول عيناه أو يبكى كثيراً فى طفولته، أما السكين التى تقطع بها سرة المولود فتبقى عند رأسه ما دامت أمه جالسة عنده، فإذا قامت حملتها معها، وتظل تفعل ذلك أربعين يوماً حتى لا يصيبها شىء من الجان(٢) وقد سادت خرافة إلقاء خلاص المولود الجديد ساعة خروج المصلين من صلاة الجمعة(٣)، واعتادت الأم إذا غابت عن مولودها لحاجة تقضيها فى البيت، ولم يكن عندها من يجلس عند المولود أن تجعل عنده كوزا مملوءاً ماء وشيئاً من الحديد؛ وذلك لإعتقادها انه وقاية له من الجن(٤).

وعندما تحل الليلة السابعة وهى ـ ليلة السبوع ـ يضعون عند رأس المولود الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة من السكر، فإذا كان أهل المولود من ذوى السعة عملوا رغيفاً كبيراً، وأبلوجة من السكر ووضعوها مع طبق من الفاكهة وقفه من النقل حلوى وبلح سودانى... الخ وفى صبيحة السبوع يتم تفريق كل ذلك ،إذ يزعمون أنه بركة لمن أخذه وأنه ينفعه من الصداع، كما يزعمون أن الملائكة تكتب بالدواة والقلم ما يجرى على المولود فى عمره إلى حين موته(٥).

وكان من المعتاد فى ذلك اليوم أن ترتدى الأم ثياباً جديدة وتطوف فى أرجاء البيت تحيط بها الشموع، ومن أمامها القابلة تحمل المولود وأمام القابلة امرأة أخرى معها طبق فيه الملح المخلوط بالكمون والزعفران، حيث تنثره فى أرجاء البيت يميناً ويساراً، وفى نفس الوقت يتم حرق البخور

---

(١) ابن الحاج، المدخل، جـ٣، ص ٧٦، وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر، الهيئة العام لقصور الثقافة القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٥م ص٧١؛ سحر السيد إبراهيم، تربية الأطفال فى عصور سلاطين المماليك، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١٤م، ص ٥٩-٦٠.

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٨٠ ؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٣٧؛ أحمد عبد الرازق، المرأة فى مصر المملوكية، ص ١٢٦.

(٣) محمد الجوهرى، المعتقدات والمعارف، المجلد الخامس، ص ١٨٩

(٤) ابن الحاج، المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٨١؛ محمد حسن محمد حسن ، الأسرة المصرية ص١٠٨

(٥) ابن الحاج، المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٨١؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص١٣٧؛ سحر السيد إبراهيم، تربية الأطفال، ص ٦٠؛ محمد حسن محمد حسن، الأسرة المصرية ، ص ١٠٨.

المخصوص للولادة، بحجة أنه يقى من الأمراض والكسل والعين والجان[١]، كذلك اعتادت بعض النساء أن يقمن بتعليق عين الذئب اليمنى فى رقبة الطفل، اعتقاداً منهن أن ذلك يحميه من الفزع[٢].

أضف إلى ذلك ، أنه يسرى اعتقاد بين الناس أنه عندما يولد طفل يقال إن نجماً جديداً يظهر فى السماء، وعندما يموت الطفل سواء فى طفولته المبكرة أو فى أية فترة لاحقة، يسقط نجمه، مبررين ذلك بأن هناك نجوماً تسقط من السماء[٣]، (كذلك إذا فقدت المرأة عدة أطفال بصورة متتالية عند ولادتهم، فإنها تعتقد أنها أثارت غضب أختها أو قرينتها[٤] أو كلتاهما، وأنهما يأخذان الأطفال منها؛ لذلك فإنها كانت تستشير إحدى الساحرات اللاتى على اتصال بهذه الكائنات التى تعيش تحت الأرض، ولابد من أن تحضر خبزاً من دقيق القمح تقتسمه هى والساحرة وأنها عندما تأكل الساحرة الخبز فكأن الأخت أو القرينة تأكله، فهما تأكلانه من خلالها، وبعد تناول الخبز بهذه الطريقة يكون السلام قد حل بينهما وبين الأم، وتقولان لها إنه فى المرة التالية التى تلد فيها بعد ذلك لابد أن تفعل ما يلى: لابد أن تدفن المشيمة مع رغيف خبز ورطل ملح فى سلطانية تغطيها بسلطانية أخرى لها، نفس الشكل تحت أرضية بيتها، وبهذه الوسيلة ترضى الأخت والقرينة ولا تأخذان الأطفال منها[٥]) وانتشرت عادة ثقب أذن المولود ووضع حلقة فضه فيها خوفاً عليه من الموت، وخاصة إذا كان يموت من يولد قبله، وربما تكون وسيلة لإخفاء جنسه الحقيقى[٦].

---

(١) ابن الحاج، المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٨٢؛ وليم لين ، المصريون المحدثون جـ٢، ص ١٧٨؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٣٧؛ محمد عبد السلام إبراهيم ، الإنجاب والمأثورات الشعبية، ص ٦٤.

(٢) محمد بن منكلي، أنس الملا بوحش الفلا، ص ١١٩.

(٣) وينفريد بلاكمان ، الناس فى صعيد مصر ، العادات والتقاليد، ترجمة أحمد محمود ، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص ٤٧.

(٤) يعتقد عوام الناس أن كل إنسان يولد له قرين إما ذكر أو أنثى، ولذلك يقولون لمن يتزحلق على الأرض "اسم الله عليك وعلى أختك". أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، شركة نوابغ الفكر القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٨م، ص ٣١٥- ٣١٦.

(٥) وينفريد بلاكمان ، الناس فى صعيد مصر، ص ٤٢

(٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص ٧١٨؛ محمد حسن محمد حسن، الاسرة المصرية، ص١٠٩؛ وينفريد بلاكمان، الناس فى صعيد مصر، ص٣١.

وبالنسبة للخرافة الخاصة بالإنجاب، فنرى تراثنا الشعبى بما يتضمنه من أمثال عامية محفوظة ومحفورة فى الوجدان الشعبى تعطى مثالاً صادقاً ورؤية تملأ الفراغ التاريخى إذ نراها تنطق بقولها "ما تقولوش لأبوه إيده فى إيد أخوه"[١].

المآتم والأحزان:

وكما كثرت أنواع اللهو فى مصر المماليكية تفنن الناس كذلك فى كيفية إظهار الحزن على الأموات وما تبعه من خرافات سيطرت على الحياة، فإذا مات أحد الأفراد، تجمع الأقارب والجيران على صوت الصياح والعويل والبكاء لأهل الميت، وكلما جاء جمع من المعزيات يبدأ هذا الجمع فى الصياح والصراخ ولطم الخدود وشق الجيوب قبل دخول بيت الميت ويستمر حتى يدخلن فتسارع النساء المجتمعات فى بيت الميت إلى لقائهن بنفس ما يفعلن[٢] وعند حضور الغاسل الذى يقوم بتغسيل الميت يطلق الحاضرون صيحة عظيمة، وتقوم بعض النساء إلى الغاسل أو المغسلة إذا كان الميت امرأة بالشتم والضرب ، ويقلن: يا وجه الشؤم، فتقول هى لهن: إنما رأيت الشؤم عندكن[٣]، ويتضح أن أهم ما يحتاجه الغاسل هو القطن والسدور والكافور إلى جانب الكفن وحرص أفراد كل عائلة أن يكون من أفضل الأنواع لشيوع خرافة سائدة بين الناس وهى أن الموتى يتفاخرون فى قبورهم بالأكفان[٤].

وفى الجنازات يكثرون البكاء على الميت وتعول النساء فى الطرقات بالليل وينعون الفقير على أبواب المساجد وفوق المآذن وعند سير الجنازة يبرز شخص يسمى المدير، فيثنى على الميت ويذكر محاسنه ويقول: السعيد أو الشهيد أو القاضى أو الصالح العابد والخاشع الورع، كهف الفقراء والمساكين، وللمرأة السعيدة الشهيدة إلى غير ذلك من ألفاظه المعهودة عنده[٥].

---

(١) ويقصد بذلك لا تخبروا والده به فإن يده في يد أخيه، أي ستحمل أمه سريعاً وذلك لانهم يزعمون أن من تسقط سريعة الحمل بعد إسقاطها، وقد ولد لهم هذا المثل اعتقاداً فزعموا أن عدم إخبار الأب بالإسقاط يسبب سرعة الحمل، ويروى بعضهم فيه ما تدروش أبوه والمضى واحد، يضرب لإذهاب الكدر عند حصول ذلك أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الرابعة ١٩٨٦م ،ص ٤٣٥.

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ، ص٢٣٠؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٢١؛ محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩م ص ٢٤٥؛ عبد الحليم حنفى، المراثى الشعبية الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢م، ص ٤٩

(٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ، ص٢٤٥

(٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٦٩ ، محمد حسن، الأسرة المصرية، ص ١٠٢

(٥) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٢٣

ومن بين الخرافات التى كانوا يقومون بها أنهم يفرشون تحت الميت طراحة أو قطيفه أو غيرها، ويضعون تحت رأسه وسادة ويغطونه حتى يبدو وكأنه مضطجع فى بيته، ويضعون عنده الياسمين والريحان وغيرهما، وليس هذا فحسب بل يقوم بعضهم بإضاءة الشمع حيث يضعه معه فى القبر حتى لا يبقى فى الظلام[١]، وبعد الانتهاء من دفن الميت، يذبح القادرون منهم الخراف ويفرقون الخبز على الفقراء وكانوا يسمون ذلك بعشاء القبر، واعتاد أهل الميت أن يعدوا الطعام ثلاث ليال ويجمعون الناس عليه[٢]، ففى سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م، لما توفى المقام الناصرى محمد ولد السلطان الظاهر برقوق عمل له كفارة عظيمة وقرأ عند قبره القراء سبعة أيام وعُملت عنده المآتم وذبحت الذبائح وفرقت على الصوفية[٣].

علاوة على ذلك يقوم أهل الميت بإيقاد السراج أو القنديل فى الموضع الذى مات فيه ثلاث ليال من غروب الشمس إلى طلوعها، وعند بعضهم سبع ليال، وبعضهم يزيد على ذلك، وأيضاً يضعون حجراً فى الموضع الذى مات فيه ويجعلون عليه سراجاً يوقد إلى الصبح، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إن ثياب الميت لا يغسل إلا فى اليوم الثالث ويقولون: إن ذلك يرد عنه عذاب القبر، وكذلك قيام بعضهم بوضع رغيف وكوز ماء ثلاث ليال بعد موته فى الموضع الذى غسل فيه الميت[٤]، ومن بين الخرافات التى كانت ذائعة الشيوع فى المجتمع: أن أهل الميت لا يأكلون إلا بعد دفن الميت، وإذا رجعوا إلى البيت من الدفن لا يدخلون البيت حتى يغسلوا أطرافهم من أثر الميت، كما يلتزمون البكاء بكرة وعشية حين الغداة والعشاء، وأن من حضر الميت عند خروج روحه لا يعمل شغلاً حتى تمضى عليه سبعة أيام، وأيضاً يتخلصون من أى ماء موجود فى البيت سواء ما كان فى الزير أو غيره بحجة أنه نجس؛ لأن روح الميت إذا طلعت غطست فيه[٥].

وفى الصدد نفسه، تستمر الأحزان على الميت سنة كاملة لا تختضب فيها النساء بالحناء، ولا يلبسن الثياب الحسان ولا يتحلين ولا يدخلن الحمام، فإذا انقضت السنة عملن ما يعهد منهن من أفعالهن السابقة، ويسمون ذلك بفك الحزن، ويقع لهن اجتماع كأنه فرح متجدد[٦]، أضف إلى

---

(١) ابن الحاج ،نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٦٠.

(٢) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٥٩، ٢٦٨ ؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان فى مصر عصر سلاطين المماليك، ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٣م، ص ١٥٩.

(٣) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ١، ص ٤١٨

(٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٦٨

(٥) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٦٩

(٦) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٦٩؛ السيد الدبيكى، أولاد الناس فى عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١٦م ، ص ١٧٦

ذلك أنهم كانوا يحرمون على أنفسهن أكل الملوخية ما داموا فى الحزن على ميتهم ويعللون ذلك بأنهم مجمعة الأحباب، فإذا أكلوها تذكروا بها ميتهم ويتجدد عليهم الحزن، كذلك فقد حرموا السمك طوال فترة حدادهم[١] ، كما اعتادت الناس أنه إذا عطس أحدهم على الطعام يقولون له كلم فلانا أو فلانة ممن تحب من الاحياء باسمه ويعللون ذلك لئلا يلحق بالميت[٢].

وفى نفس السياق، اعتاد الناس الخروج إلى قبر ميتهم حيث يسكنون فى دار إلى جانبه وقد يقيمون عند القبر الشهر أو الشهرين والثلاثة[٣] ، وحرصوا أيضاً على زيارة المقابر والقرافات[٤]، ففى سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م نزل السلطان قانصوه الغورى إلى نحو تربة الأشرف قايتباى فنزل عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ فى قبره وقرأ له الفاتحة[٥]، وفى الليالى المقمرة وليالى المواسم والأعياد وليالى الجمع من كل أسبوع ومعهم الريحان والزهور كالياسمين وغيره ويعللون ذلك بأنهم إذا لم يخرجوا إلى زيارته بقى خاطر ميتهم مكسوراً بين الموتى، كما يزعمون بأنه يراهم إذا خرجوا من سور البلد[٦] ، وهناك يدعون الأهل والأصدقاء ويقمن الولائم ومعهن أولادهن وأزواجهن ويكثر الغناء والرقص ويطلق علي هذا الطلعة.[٧] .

أضف إلى تلك الممارسات والعادات الخرافية،فقد اشتهرت عند المصريين عدة قبور علي أنها تقوم بقضاء الحاجة وأن الدعاء عندها مستجاب؛ وذلك أن من زارها يوم السبت وسأل الله تعالى

---

(١) ابن الحاج ، نفسه، جـ٣ ، ص ٢٧٢
(٢) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٦٩
(٣) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٣ ، ص ٢٤٦
(٤) عرفت قرافتان لأهل مصر والقاهرة، يدفنون فيها موتاهم الأولى فى سفح المقطم ويقال لها : القرافة الكبرى والثانية فى مصر، ويقال لها القرافة الكبرى ، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٢٣- ١٢٤.
(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص ٦٩.
(٦) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٣ ، ص ٢٦٩؛ على السيد على، بحوث فى التاريخ الاجتماعى من العصر المملوكى، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠١٤م ص ١٢٤.
(٧) استغرب الكثير من الرحالة ما شاهدوه من حياة الناس فى القرافة وما بها من متناقضات ترجع أساساً للموروث الثقافى والاجتماعى للمصريين وأفكار الخلود التى تولدت منذ فجر الضمير المصرى، فلم يدرك هؤلاء الحجاج والرحالة ثنائية الحزن والمرح فى الشخصية المصرية والتى تجلت خصائصها فى مجتمع القرافة والتى وضعها الرحالة أبى سعيد بقوله:
إن القرافة قد حوت ضدين من دنيا دنيا وأخرى فهى نعم النزل
ابن الحاج، المدخل، جـ٣، ص ٢٧٠؛ أبى سعيد الأندلسى، المغرب فى حلى المغرب، ص١٠، عمرو منير، مصر والعمران بين كتابات الرحالة والموروث الشعبى، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٩م، ص ٢٥٦.

حاجة قضيت وهى قبر ذى النون المصرى، وقبر أبى الخير الأقطع وقبر أبى الربيع، وقبر القاضى بكار ، وقبر القاضى كنانة، وقبر أبى بكر المزنى ،وقبر أبى حسن الدينورى[١].

وأحياناً كان يشاع فكرة بعث الموتى من القبور،حيث يقول البقاعى فى سنة ٨٦٤هـ ١٤٥٩م: شاع أن الموتى فى هذا العام يقومون فى يوم الأربعاء سابع عشريه فصدق كل ضعيف العقل، جاهل بالدين، فطلعوا الجبانات بالثياب المبخرة والمياه وحفروا قبور أمواتهم ، ثم رجعوا بخفى حنين[٢].

وقد أوضح فقهاء العصر تحريم النياحة ولطم الخدود ، فقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال" لعن الله النائحة والمستمعة" وقال النبى صلى الله عليه وسلم { ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب}[٣].

الأعياد :

الواقع أن مصر فى ذلك الزمان قد عرفت عدداً كبيراً من الأعياد والاحتفالات التى أهتم الناس بإحيائها ، وسنتطرق هنا إلى ذكر بعض الخرافات التى اتصلت بهذه الأعياد[٤]، ومنها يوم عاشوراء، وهو اليوم العاشر من المحرم الذي يحتفل به المسلمون، وقد تمسك الناس فى عصر المماليك بعادات خرافية مازال بعضها باقياً حتى اليوم مثل طبخهم الحبوب وزيارة القبور وإن يتبخروا بالبخور الذى يخزنونه طوال السنة لهذه المناسبة إذ كانوا يعتقدون أن السجين إذا بخر بهذا البخور خرج من سجنه وأن هذا البخور يبرىء من العين والحسد[٥]، كما اعتادت النساء فى

---

(١) يعتقد العوام أن أرواح الموتى تعود إلى قبورها فى يوم الطلعة حيث تنتظر رؤية ذويها وأقاربها هناك، فهذا الاعتقاد أصله أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن روح الميت تأتى على شكل طائر يسمى بالمصرية القديمة "با" وينزل إلى غرفة دفن الميت بالمقبرة ليتحد مع الجسم الراقد هناك ، محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة ، ص ٣٩.

(٢) البقاعى ، إظهار العصر لأسرار أهل العصر، جـ٣ ، ص ١٣٧

(٣) حديث شريف، صحيح البخارى، جـ٢ ، ص ١٠٣، ١٠٤ ، أبو بكر الطرطوشى، الحوادث والبدع ، تحقيق عبد المجيد تركى، دار الغرب الاسلامى بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، ص ٣٢٨- ٣٢٩.

(٤) لا يتسع المجال هنا لذكر كل الأعياد ، فهناك عدة دراسات ذكرت تلك الأعياد بشكل موسع ، للمزيد انظر، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٩٥وما بعده؛ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٢٨٩ وما بعدها.

(٥) ابن الحاج، المدخل، جـ١ ، ص ٢٨١؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص ١٩٦ ؛ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٢٩٣.

عصر المماليك زيارة الجامع العتيق بمصر الفسطاط ومشهد زين العابدين، وتخصص مسجد عمرو بن العاص للنساء اللاتى يمكثن به طوال اليوم ويتمسحن بالمصاحف والمنبر والجدران وتحت اللوح الأخضر، وكذلك استعمال الحناء ومن لم تفعل منهن ذلك فكأنها ما قامات بحق عاشوراء، كما سرى اعتقاد بين الناس أن من قام بغزل الكتان واستعماله فى الكفن فى ذلك اليوم فإنه لن يأتيه منكر ونكير بسبب ذلك الغزل[1].

كما سرت بعض الخرافات فى ليلة النصف من شعبان، حيث تخرج النساء إلى القبور، ومع بعضهن الدف يضربن به ويغنين بحضرة الرجال ويزعمن أنهن خرجن للعبادة وهى زيارة قبور الأولياء والعلماء والصلحاء، ثم أن بعضهم يُقمن خشبة عند رأس الميت ويكسون ذلك العمود من الثياب ما يليق به عندهم ، فإن كان الميت من العلماء أو الصالحين كانوا يشكون ما نزل بهم ويطلبون منه ما يُؤملُون فى أنفسهم ، وإن كان غير ذلك من الأهل والأقارب والمعارف فعلوا مثل ذلك وجلسوا يتحدثون معه ويذكرون له ما حدث لهم بعده فإن كان الميت عروساً أو عريساً كسوا كل واحد منهم ما كان يلبسه فى حال فرحه فيكسون المرأة ثياب الحرير ويحلونها بالذهب ويجلسون يبكون ويتباكون ويتأسفون[2].

أما الخرافات التى امتزجت بالمولد النبوى الشريف، فقد كان الناس يحتفلون بالمولد النبوى على طريقتهم، حيث يبدأ الاحتفال بالقرآن الكريم، ثم يعقب ذلك المنشدون الذين تصاحبهم الآلات الموسيقية ويمدحون بالقصائد والأغانى فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا ما أنتهى المنشدون أقيمت حلقات للذكر "فيقوم الواحد منهم ويعيط وينادى ويبكى ويتباكى ويتخشع ويدخل ويخرج ويبسط يديه ويدفع رأسه نحو السماء كأنما جاءه المدد ويخرج الرغوة أى الزبد من فيه وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته[3].

فى حالة السفر :

واعتاد الناس فى المجتمع المصرى أنه إذا سافر أحد أفراد الأسرة فإنهم يؤذنون مرتين أو ثلاث حين خروجه، اعتقاداً منهم أنهم إن فعلوا ذلك فسوف يعود المسافر، كما اعتادوا عدم تنظيف

---

(١) ابن الحاج، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٨٢ ؛ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٩٣
Breyden Bach ,op.cit ,p..47.

(٢) ابن الحاج، نفسه، جـ ١ ، ص ٢٩٩ – ٣٠٠

(٣) ابن الحاج، نفسه، جـ٢ ، ص ٦ ؛ قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك، ص ٢٩٥.

المنزل وكنسه عقب خروج المسافر لنفس السبب[١] كذلك كان يقوم بعض المسافرين بدخول منازلهم والتحدث إلى الأرواح ، حيث يطلبون منهم أن يحفظوا أولادهم ومنازلهم، والبعض الآخر كان يحمل عند خروجه للسفر بعض الحصى أو حفنة من تراب قبور بعض الأولياء أو بعض الخواتيم وخاصة العقيق لتحميهم من الأخطار فى السفر[٢].

والجدير بالذكر، أن البعض كان يفُضل السفر فى أيام معينة كالسبت والثلاثاء والخميس، حيث يتشاءمون من السفر يومى الاثنين والأربعاء وخاصة آخر أربعاء من كل شهر[٣]، وكرهوا السفر يوم الجمعة قبل الظهر، وهناك من فضل السفر يومى الاثنين والخميس[٤]، اعتقادا بأن الأيام المكروهة فى الشهر للسفر اليوم الثالث والرابع والخامس، والثالث عشر، والسادس عشر، والعشرون والحادى والعشرون، والرابع والعشرون والخامس والعشرون والسادس والعشرون[٥]، وبعضهم من كره السفر فى شهر طوبة حيث يرونه غير محمود وأن الأرواح فيه يبس[٦]، ويفضل السفر فى شهر مسرى[٧].

أضف إلى ذلك ، كانوا يزعمون أن من خرج فى سفره والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له[٨]، ومن عوائدهم أيضاً أنه إذا ضل رجل منهم فى الخلاء ، أناخ ناقته، وقلب ثيابه وصفق بيديه كأنه يومئ إلى إنسان وصاح فى أذن الناقة، الوحى الوحى، النجا النجا، العجل العجل، الساعة الساعة، ثم يركب الناقة فيهتدى[٩] ومن المعتقدات الشعبية التى كانت شائعة كذلك أن من لطخ بدنه بشحم الأسد أثناء سفره هربت منه السباع ولم ينله مكروه[١٠].

---

(١) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٢ ، ص ٦٤.

(٢) ابن طاووس، الأمان من أخطار الأسفار والأزمات ، تحقيق مؤسسة آل البيت الطبعة الأولى، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث إيران ١٩٨٩م ، ص ٤٦، ٥٢ .

(٣) ابن طاووس، الأمان من أخطار الأسفار، ص٣٠

(٤) نعوم شقير، تاريخ سيناء، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٧م ، ص ٣٩٦ .

(٥) ابن طاووس، الأمان من أخطار الأسفار ص ٣٢، ٣٣

(٦) يبس كناية عن الضيق والانقباض، ابن ظهيرة الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٤م ص ١٣٨

(٧) ابن زولاق، فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق على محمد عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٧م ص ١٠٥، ١٠٧.

(٨) الابشيهى، المستطرف فى كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبى، دار المعرفة بيروت الطبعة الخامسة ٢٠٠٨م، جـ٢ ، ص ٤٤٦.

(٩) سعد الخادم، الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة د.ت ، ص ٢٠.

(١٠) سعد الخادم ، المرجع السابق، ص ٢٠ .

وإذا ما أراد الإنسان أن يحمل أمتعته أثناء سفره وكانت ثقيلة فعليه أن يستخدم طلاسم وتعاويذ لتعينه على الأحمال الشاقة[١] ولم يكتف الإنسان المسافر بذلك بل كان يقوم بتعليق الأجراس الهرمية أو المخروطية أو المثلثة الشكل فى لجام وتسرج الجمال وهى وفقاً لاعتقادهم أنها بمثابة غطاء واق من الأرواح والشياطين التى تؤثر عليها وتجعلها تتعثر فى سيرها[٢].

ونتيجة لخوف الناس أثناء سفرهم من اللصوص لجأوا لبعض الطلاسم والأسماء ليكتبوها فى رقاع ويضعوها فى ركابهم لتكتب لهم السلامة فى الطريق[٣] ومن جانب آخر كان أفراد القافلة يقومون بتبخير مكان وقوف ومبيت القافلة ببعض أنواع البخور، وكانوا يبخروه بقرون الإبل أو أظلاف الماعز أو بورق الشونيز أو الجندبا أو بالاس والكمون، أو ربما لجأوا إلى تبخيره عن طريق حرق ريش بعض الطيور كالهدهد أو الرخمة وهو طائر يشبه النسر أو برش المكان بماء مطبوخ فيه بابونيج وحنظل أو ثوم أو ترمس أو زرنيخ مسحوق، كل ذلك كان له دوره فى إبعاد الهوام والحشرات، واعتقدوا بأن بعضاً من ذلك سببه الجن والأرواح التى تسكن الصحراء ولهذا لجاءوا إلى بعض الوصفات الغريبة التى ذكرناها، كما لجأوا إلى بعض التمائم والطلاسم والتعاويذ لتحميهم من لدغات العقارب والحيات[٤]. كما قاموا بعمل مندل سحرى من ماء الصنوبر ليأمنهم من الحشرات والهوام[٥].

فى حالة السرقات:-

وإذا ما انتقلنا للخرافة فى حالة السرقات، فقد اعتنى المصريون اعتناءً زائداً بكتابة الحفائظ فى أوقات معينة مثل: آخر جمعة، ويقولون: إن تلك الحفائظ إذا وضعت فى بيت منعت عنه السرقة[٦]، واشتهر عن بعض الأمراء المماليك استخدام الجان لإظهار السرقات، فيشير ابن إياس فى بدائعة على قدرة الأتابكى قرقماس على استخدام الجان لإظهار السرقات قائلاً: "وفى سنة

---

(١) البونى، شمس المعارف، جـ٢ ، ص ٢١، ٢٢ .

(٢) وربما كان استخدامهم لها وسيلة للعثور على الجمال إذا ما ضلت الطريق ليلاً عن طريق الصوت الذى تحدثه تلك الأجراس عند حركتها ، ابن الحاج ، المدخل، جـ٤ ، ص ٤٨؛ سعد الخادم ، الفن الشعبي، ص ٨٠.

(٣) البونى، شمس المعارف ، جـ٢ ، ص٧٠.

(٤) القزوينى، مفيد العلوم ومبيد الهموم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميةبيروت الطبعة الأولى ١٩٨٥م ، ص ٤٢٦؛ ابن الوردى، جريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق أنور محمد زناتى، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٣٦٣ .

(٥) العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار فى الحيوان والنبات والمعادن تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي القاهرة الطبعة الثانية ١٩٩٦م ، جـ٢٠ ، ص ٣٦٩.

(٦) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٧ .

٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م نزل الاتابكى قرقماس من القلعة وهو مقيد بالحديد ، حيث توجهوا به إلى شاطىء النيل، وكان غير محبب للناس.. ويحكى عنه أشياء خزعبلات، حتى كان يظن أن الجن يخدمونه فى إظهار السرقات وغير ذلك"[١].

العلاقة مع الجيران:

ولقد شاعت فى المجتمع مجموعة من العادات الخرافية فى علاقة الناس مع جيرانهم، منها أنهم كانوا يمنعون خروج النار أو شىء من ماعون البيت عشية كل يوم ويبالغون فى منع ذلك حتى من كان يتعشى فى ضوء السراج، ثم جاء جار يريد أن يسرج منه فإما أن يرفض أو يأذن له بشرط أن يسرجه ثم يطفئه ويفعل ذلك ثلاث مرات، ثم يوقده فى المرة الرابعة وحينذاك يذهب به[٢]، واعتاد بعضهم وضع حجر أو قليل من الملح فى الغربال عند إعارته إلى الآخرين؛ وذلك من باب درء الشر[٣] ومن بين العادات السارية بين الجيران فيما بينهم أنهم لا يفضلون زيارة المريض يوم السبت؛ وذلك من باب التشاؤم على المريض[٤].

التشاؤم والتطير:

التشاؤم: لغة تفاعل من الشؤم وهو خلاف التيمن، وأصل هذه الكلمة يدل على الجانب اليسار؛ ولذا سميت أرض الشام شاماً لأنها علي يسار الكعبة[٥].

والتطير: الطيرة لغة فعله بالكسر ففتحتين وقد تسكن العين من التطير، أصل الكلمة واحد يدل على فقه الشيء فى الهواء[٦].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ، ص٢٠٣ .

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١، ص ٢٧٩؛ محمد حسن ، الأسرة المصرية، ص ٦٩.

(٣) ابن الحاج، نفسه ، جـ١، ص ٢٨٧؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٢٦٠.

(٤) ابن الحاج ، نفسه ، جـ٨ ، ص٦ .

(٥) ابن منظور، لسان العرب، المجلد ٨، صـ٦ .

(٦) الطيرة والزجر وهما فى معنى واحد، وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير، فإن طار يميناً كان له حكم وإن طار شمالاً كان له حكم، ومن ثم سميت الطيرة أخذاً من اسم الطير وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب، القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م ، جـ١ ، ص ٣٩٩؛ سعد الخادم ، الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ص١٤٠.

وقد حرم الإسلام التشاؤم ونهى عنه، وحبذ التفاؤل وحث عليه، فقد أخبر الله تعالى عن المشركين أنهم كانوا يتطيرون بالمؤمنين ومن ذلك قوله :" فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وأن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون[١] ، وقوله: (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) [٢].

أما السنة النبوية فقد ورد فيها النهى عن الطيرة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم} وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال[ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن له}[٣].

وكذلك أورد ابن تيمية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: أنه إذا رأى الإنسان شيئاً يكرهه يقول: "اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يذهب السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٤].

وعلى أية حال، كثر التشاؤم والتطير فى المجتمع ، وغدت أمور حياتهم مدعاة للتفاؤل والتشاؤم فى السكنات والحركات، فإذا سافر أحد أفراد الأسرة تجنبوا تنظيف المنزل وكنسه عقب سفره ويتشاءمون بعدم عودته إذا هم فعلوا ذلك، وإذا دخل ميت من أحد أبواب القاهرة تشاءم الناس وتوجسوا سوء للبلاد[٥] وقد اعتاد كثير من الناس قبل الإقدام على عمل من الأعمال أن يفتحوا المصحف وينظروا فى أول سطر يخرج لهم، فإذا صادفوا أية تنطوى على العذاب والوعيد تخوفوا وتشاءموا[٦] فيروى لنا السخاوى أن الفقية إبراهيم بن موسى الابناسى عُين فى قضاء الديار المصرية، فلما فتح المصحف خرجت له الآية الكريمة: { قال رب السجن أحب إلى مما تدعوننى إليه} فخاف الفقيه واختفى أياما حتى عين غيره فى ذلك المنصب وعندئذ ظهر للعيان[٧] بالإضافة إلى ذلك ارتبطت الحمامات ببعض المعتقدات الشعبية التى شاعت بين المصريين فى

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الأعراف آية ١٣١

(٢) سورة النمل ،آية ٤٧.

(٣) الابشيهى، المستطرف فى كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمه الحلبى، دار المعرفة بيروت الطبعة الخامسة ٢٠٠٨م ، جـ٢ ، ص ٤٧٠.

(٤) ابن تيمية، الكلم الطيب، ص ٧٦- ٧٧ .

(٥) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٤.

(٦) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٧٠.

(٧) السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، جـ١ ، ص ١٧٢.

ذلك الزمان، إذا كان الناس مثلاً يعتقدون أن من دخل الحمام أربعين يوماً متتالية يفتح الله عليه في الدنيا[١].

وإذا تطرقنا إلى الألقاب والكنى، نجد أن المماليك عمدوا إلى الفرار من التطير بالتماس التفاؤل في الألقاب والكنى، واختاروا الألفاظ التى قصدوها فى معانى الخير والاستبشار باعتبارها إلهاماً من الله نظير سرها فى صاحبها وتيمنا بها، وذكرت قبل أسمائهم وعرفوا بها دون الأسماء، على سبيل المثال :المعز، المنصور، المظفر، الظاهر، السعيد، الأشرف، الناصر، والصالح والكامل ، أما الكنية فهى كأبى الفتح وأبى المحاسن وغيرها[٢].

وأحياناً نجد بعض السلاطين يُلقب بلقب ما ، ثم سرعان ما يعدل عن هذا اللقب لأنه لم يكن له فأل خير على سابقيه، فقد عدل الظاهر بيبرس لقبه من "القاهر" إلى "الظاهر" بناء على نصيحة وزيره زين الدين يعقوب بن الزبير الذى داخله التشاؤم من هذا اللقب، وأوضح له أنه ما تلقب به أحد وأفلح، مشيراً إلى القاهر بن المعتضد الذى لم تطل أيامه وخلع من الخلافة، وسملت عينيه، فكان هذا اللقب نحساً عليه، كذلك كان الملك القاهر بن صاحب الموصل الذى سم ولم تطل أيامه،؛لذلك تشاءم بيبرس من هذا اللقب وعدله إلى الظاهر[٣].

وقد انفرد ابن تغرى بردى دون غيره من المؤرخين برواية ملخصها: أن العامة تشاءمت من حكم يلباى وتمربغا [٤] لكونهما منعا من أسمائهم اسم نبى أو صحابى

---

(١) قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك، ص ٣٢٨.

(٢) العينى، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٥٩، ٦٣، ٦٤ ، ٧٢؛ إسماعيل عبد المنعم محمد قاسم، الأمراض الاجتماعية بالطبقة الارستقراطية المملوكية فى مصر زمن المماليك البحرية، رسالة ماجستير، عين شمس١٩٨٨م ، ص٢٨٨.

(٣) أبى الفدا، المختصر فى أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم عزب، دار المعارف القاهرة جـ٣، ص ٢٤٨؛ النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق نجيب مصطفى فواز، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، جـ ٣، ص٤ ؛ ابن كثير البداية والنهاية، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركى، دار هجرة السعودية الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، جـ١٧ ، ص٤٠٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص١٠٣؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، دار النهضة العربية القاهرة الطبعة الثانية١٩٧٦م ، ص ٤٠؛ محمد عبد القادر موافى، المنشآت المعمارية المملوكية فى شرق الدلتا، رسالة ماجستير ، جامعة الزقازيق، ١٩٨٥م ، ص ١١.

(٤) تولى يلباى الحكم يوم السبت ١٠ ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ وخلع يوم الاثنين ٧ جمادى الأول من نفس السنة، ثم تولى الظاهر تمربغا الحكم ولم يدم حكمه أكثر من شهرين من نفس السنة أيضاً ٨٧٢هـ، عبد الباسط بن خليل، نزهة الأساطين ، ص ١٤٢؛ السير وليم موير، دولة المماليك الأولى فى مصر، مكتبة مدبولى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص ١٧٠.

وأنهما كانا يبغضان من يسمى بأسماء الأنبياء والصحابة، فيقول ابن تغرى بردى: " فى سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م لهجت العامة بزوال ملكه تمربغا كما زال ملك الذى قبله لكونهما منعا من اسمه اسم نبى أو صحابى وأعطيا من إسمه اسم المماليك وأنهما يبغضان من يسمى بأسماء الأنبياء والصحابة، وشاع ذلك فى الناس ونفرت القلوب بسبب ذلك عن الظاهر تمربغا..." [١].

ومن ثم فقد بات واضحاً تمرس نفوس المجتمع المصرى على التشاؤم حيث كان إذا ضربت عمله جديدة وجعل اسم السلطان عليها فى دائرة، تطير الناس بذلك وقالوا: هذا يؤذن بأن السلطان تدور عليه الدوائر، فتسرع الدولة إلى إبطال هذه العملة[٢] ، ففى سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م ضربت الدراهم الظاهرية وجعل اسم السلطان فى دائرة فتفاءلوا له من ذلك بالحبس فوقع عن قريب ووقع نظيره لولده الناصر فرج فى الدنانير الناصرية"[٣].

ومن ناحية أخرى، ساد شعور التشاؤم والتطير على مراسم تنصيب السلاطين على عرش البلاد ، فقد كانوا يرون أن السلطان الجديد إذا أسرع فى مشيه وهو فى طريقه لتنصيبه سلطاناً دل ذلك على سرعة أيامه وقصر مدته، أو إذا تولى آخر اليوم وقت غروب الشمس فيتشاءمون لذلك، لأنه يدل على أفول نجمه، وغيرها من الطقوس.

وفى سنة ٧٤٦هـ، ١٣٤٥م ولى السلطنة الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون، فاتفق أنه لما ركب بشعار الملك والامراء وغيرهم مشاة فى ركابه على العادة جفل فرسه من صياح الجاويشية ونحوهم قبل الوصول إلى الإيوان فنزل عنه ومشى سريعاً حتى طلع الإيوان، فتفاءل الناس بقصر مدته[٤].

فكان كذلك، وقال ابن نباته:

جبين سلطاننا المرجى	مبارك الطالع البديع
يا بهجة الدهر إذا تبدى	هلال شعبان فى ربيع[٥]

(١) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور، تحقيق وليم بير، ١٩٣٢ الفصل الثالث، ص ٦٧٦.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٣ ، ص٤٧٦ ؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٦٥

(٣) ابن عماد الحنبلى ، شذرات الذهب، المجلد الثامن ، ص ٤٢٦

(٤) عبد الباسط بن خليل ، نيل الأمل فى ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٢م جـ١ ق١ ، ص ١١١؛ ابن عماد الحنبلى ، شذرات الذهب، المجلد ٨ ، ص ٢٦٠.

(٥) السخاوى، وجيز الكلام فى الذيل على دول الإسلام ، تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، جـ١ ، ص ١٥.

كذلك فى سنة ٨٧٢هـ، ١٤٦٧م، بعد موت السلطان خشقدم أراد الأمراء تولية يلباى أمر السلطنة... ولهج الكثير من الناس بالتفاؤل بزواله سريعاً لكونه ولى فى هذا الوقت الضيق والنهار إلى فراغ[١].

وأيضاً فى سنة ٨٠١/ ١٣٩٨م كان من جملة اعتناء الخليفة بالسلطان فرج بن برقوق أن رسم أن يحضروا النمجات[٢] التى باسم السلاطين المتقدمين حتى يخرجوا منها واحدة لأجل ولد السلطان الملك الظاهر برقوق، فخرجت نمجة السلطان الملك الصالح فلم يرض بذلك الخليفة ولم يتفاءل بها لقصور أيام الصالح، فأخذوا غيرها ، فخرجت نمجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فتفاءل بها على طول أيامه ولقبه بالملك الناصر، كما كان لقب محمد من قلاوون الصالحى الذى حكم ثلاث وأربعين سنة[٣].

وثمة أمر آخر مهم، وهو أن نفوس الناس كانت تصاب بالتشاؤم إذا صادف يوم عيد الأضحى أو عيد الفطر، أو صلاة الاستسقاء أو كسوف الشمس يوم الجمعة ؛ لأن إلقاء خطبتين فى يوم واحد فى المساجد يؤذن بزوال الملك[٤]، ففى سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م كان عيد النحر بالجمعة وأخذ

---

(١) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم، جـ٣ ، ص ١٧٦.

(٢) وهى اسم لنوع من السيوف والبندقية قصيرة، أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، دار المعارف القاهرة ص١٩٢ ، محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى، دار الفكر المعاصر بيروت، ص ١٩٢ ؛ السيد الدبيكى، أولاد الناس فى عصر سلاطين المماليك، ص ٩٤.

(٣) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ٢ ، ص ٦.

(٤) قدم عدد من المؤرخين تفنيداً لهذا التشاؤم بقولهم: "بقى الخليفة الناصر لدين الله فى الخلافة نحو الخمسين سنة، وكذا المستنصر الفاطمى بقى فى الخلافة بمصر فوق الستين سنة، وكم من خطبتين خطبتا فى زمنهما فى يوم واحد، ومن السلاطين محمد بن قلاوون بقى فوق الأربعين سنة وما جرى عليه شيئاً مما يقال ولا ما يتطير به، وأغرب من ذلك كله، ما بلغنى أنه خطب فى يوم واحد زمن معاوية أربع خطب خطبة لعيد الفطر وأخرى للاستسقاء فيه، وأخرى للجمعة وأخرى لكسوف الشمس وهذا أبلغ، ولم يقع له إلا السلامة والخير، وكذلك فى أيام الأشرف قايتباى خمسة أعياد جاءت يوم الجمعة سنة ٨٧٨هـ وعيد فطر ٨٨٦هـ وعيد أضحى سنة ٨٨٨هـ، وعيد أضحى ثان سنة ٨٩٦هـ، وعيد فطر ثان ٨٨٩هـ ، فهذه خمسة أعياد، وقد مرت عليه وهى يوم الجمعة وهو ثابت فى مملكته لم يتزحزح منذ ثلاثين سنة فكان كى يقال فى المعنى

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله ... فالله يفعل لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر ... فلا يضرك مريخ ولا زحل

للمزيد انظر، عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم، جـ٣، ص ٧٩، ٨٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٠٣؛ جواهر السلوك فى أمر الخلفاء والملوك، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ، ص ٣٧٥.

الناس يلهجون بزوال السلطان على عاداتهم فى مثل ذلك ، لاسيما العوام و الجهلة، ولم يكن شيئاً مما لهجوا به[١]، حتى بلغ الأمر فى بعض الأحيان أن يرى الناس هلال رمضان فينكرونه حتى لا يستهل شوال يوم جمعة، فتقع الكارثة، أو يتم تقديم أيام ذو الحجة يوماً حتى لا يقع عيد الأضحى يوم الجمعة، ويشير ابن تغرى بردى أنه فى سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م "ففى ذو الحجة أوله كان بالحجاز وغيره من الأقطار، ويوم الأربعاء ووقفوا بعرفة يوم الخميس، ولم يثبت أوله يوم الثلاثاء إلا بمصر وما ذاك إلا من حكامها مراعاة لخاطر السلطان الأشرف قايتباى لئلا تتكرر فى يوم واحد خطبتان لتشاؤم الناس بذلك على الملك"[٢].

وفى الصدد نفسه كان يتم التشاؤم على السلطان بزوال حكمه، إذا انهارت وسقطت أحد الأبنية ، إذ كانوا يتشاءمون بذلك خاصة إذا أسفرت عن وقوع قتلى، ففى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م سقطت إحدى منارات مدرسة السلطان حسن وهى المنارة الثالثة والتى كانت على الباب الذى فوق سوق القبو، فهلك تحتها نحو ثلثماية إنسان من الأطفال الأيتام الذين كانوا بمكتب السبيل وكذلك جماعة كثيرة من الناس، فتشاءم الناس بذلك، وتطيروا به لزوال السلطان عن قريب، فكان الأمر كذلك، ولم يقم للسلطان بعد ذلك سوى ثلاثة وثلاثين يوماً[٣].

وأيضاً فى سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م ، شرع السلطان الأشرف شعبان فى عمارة مدرسته وقرر فى مشيختها عند سفره الضياء القرمى ... فسقطت نار بها واحترق بها حاصل المدرسة وتلفت آلات

---

(١) كذلك فى سنة ٨٦٢هـ استهل شوال بأوله الجمعة ، فوقع فيه خطبتان وتشاءم الناس بذلك على السلطان، وكذلك فى سنة ٨٩٩هـ كان عيد الفطر بالجمعة، ولهج غالب الناس بزوال السلطان عن قريب، عبد الباسط بن خليل ، نيل الأمل، جـ٢ ق٧ ، ص ٣٦٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦ ، ص ١٢٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص ٣٠٣.

(٢) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، جـ٣ ، ص ٦٤٣؛ عبد الباسط بن خليل، نزهة السلاطين فيمن ولى مصر من السلاطين مكتبة الثقافة الدينية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص ١٤٣

(٣) ولما سقطت المنارة أخذ الشيخ بهاء الدين السبكى يعتذر عن ذلك بقوله:-

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى ... بشيره بمقال صار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة ... لكن بسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت ... فالوجد فى الحال أداها إلى الميل

السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢ ، ص٢٦٩؛ السخاوى، وجيز الكلام فى الذيل على دول الاسلام، جـ١، ص ١١٣؛ ابن إياس ، بدائع الزهور جـ١ ق١، ص٥٧٥.

العمارة، فتشاءم بهذا على السلطان[١]، وكذلك فى سنة ٨٧٢هـ ١٤٦٧م فبعد موت السلطان خشقدم أراد الأمراء تولية يلباى أمر السلطنة، وهو يمتنع... فأجلسوه وما التفتوا إلى ما أظهره من الامتناع، ثم بعثوا على الأمراء ليحضروا إلى القصر من الخارج، فلما جاءوا إلى باب القصر وجدوه قد سقط ولم يجدوا مخلصاً للدخول إليه، لكونه ارتدم بما سقط من الحجارة والأتربة، بحيث غلق، بل سد أصلاً، ولا يمكن الدخول إليه منه، ولهج الكثير من الناس ممن بلغهم ذلك بزوال يلباى، وتفاءلوا بأنه لا يطول أمره فى السلطنة وأن مدته قصيرة[٢].

وعلاوة على ذلك، كان الناس يتشاءمون من الموت قبل الإقدام على عمل وهم يرون الموت دليل على عدم تحقيق مرادهم، حتى وإن كان موت الحيوانات ففى سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م وفيه أكمل السلطان الأشرف قايتباى، تفرقة النفقة على العسكر المعين إلى تجريده سوار، ثم ابتدأ بتفرقة الجمال، ثم عجل لهم جامكية أربعة أشهر... ووقع يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة، وهو أن الهجانة لما أحضروا الجمال وساقوها إلى الميدان تزاحمت عند باب الميدان وقت دخولها فمات منها فى ساعة واحدة نحو من ثلثماية بعير، فتشاءم الناس لذلك وصرحوا بعدم نصرة العسكر[٣].

وأياً كان الأمر، فقد اكتنف المجتمع التطير والتشاؤم، حتى اعتقدوا أن هناك ساعات من النهار وأياماً بل وشهوراً لا يحسن بالمرء أن يأتى بها عملاً لأنها منحوسة[٤]، فهم يرون فى أيام السبت أنه مكراً خديعة، والأحد غرس وعمارة والاثنين يوم سفر وتجارة والثلاثاء يوم إراقة الدماء والأربعاء أخذ وعطاء ويقال: نحس مستمر والخميس دخول على الأمراء وطلب حاجات والجمعة يوم خلوة ونكاح[٥].

---

(١) السخاوى، الذيل التام على دول الإسلام ، تحقيق حسن إسماعيل مروة، مكتبة دار العروبة الكويت الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، جـ١، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم، جـ٣، ص ١٧٦.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص ٢٨

(٤) هذا الاعتقاد فى الأيام سعدها ونحسها قديم أيضاً إذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقاً لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة فى أساطيرهم الدينية للمزيد انظر، محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا اليومية ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ، ص ٢٥؛ وليم نظير العادات المصرية بين الأمس واليوم، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، د.ت ، ص ٢٢؛ محمد الجوهرى، المعتقدات والمعارف الشعبية، المجلد الخامس ، ص ١٦٤.

(٥) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢ ، ص ٣٥٦-٣٥٧.

ويقدم العينى رواية مهمة ليدلل على نحس يوم الأربعاء، حيث يقول "فى سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م فى واقعة غازان مع العسكر المصرى كان من جملة من أسره من حمص برهان الدين المنجم، فلما أحضروه بين يدى قازان عرفه ففجق وبكتمر وقالا: لغازان هذا منجم عارف.... فلما رآه غازان سأله: كيف حكمت على صاحب مصر وعسكره أن يلاقى عدوه فى مثل يوم الأربعاء وهو آخر الأربعاوات فى السنة ويوم نحس مستمر، فقال له ، قد عرفته ذلك وعرفت أكابر عسكره ولم يسمعوا منى ونهرونى ولم يلتفتو إلى كلامى، وكان قد وقع ذلك، فإن السلطان عند نزوله حمص طلب الأمير سيف الدين سلار ومعه عدد من الامراء... ثم شرع سلار يسأل الفارقانى عن أحوالهم وكيف يكون أمرهم عند الملاقاة وأى الأيام يصلح، وكان الفارقانى له اليد فى أحكام الفلك أكثر من برهان الدين المذكور، فقال له الفارقانى :يا خوند إن قدرت أن تؤخر لملاقاته العدو مستهل الشهر تكون النصرة إن شاء الله لكم، وما عندى فى هذا اليوم طائل، وكان يوم الأحد، قال ولا يوم الاثنين ولا يوم الثلاثاء وخصوصاً أن يكون يوم الأربعاء فإنه لا يحمد فيه لقاء العدو، فقال له سلار، إذا وافانا عدو نقول له اصبروا حتى نبصر يوماً جيداً نلقاكم فيه ما هذا الفشار، ونهضوا من عنده مثل المطرودين...." [١].

ويتضح من هذه الرواية عدم إيمان كل الأمراء المماليك بكلام المنجمين وإن كان ذلك سمة العصر.

هذا ولم يقتصر تطيرهم من أيام بعينها بل إلى شهور معينة، وهذا ما أشار إليه ابن الحاج بقوله: "ومن العوائد الرديئة شراؤهن اللبن فى أول ليلة من شهر المحرم وهى أول ليلية من السنة ويزعمن أن ذلك تفاؤلا بأن تكون سنتهم كلها عليهم بيضاء..." [٢].

كذلك تشاءمت نفوس الناس من سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م حيث تحدث أرباب التقويم بأنه سيقع فى هذه السنة ما لا يحمد عقباه ، وستكون سنة شؤم، يقول ابن إياس: "وفى سنة ٧٧٧ه/ ١٣٧٥م، وقد اجتمع فيها ثلاث سباع وهى سبع وسبعين وسبعمائة ، وكانت الفلكية وأرباب التقويم، تكلموا فى أمر هذه السنة بأن سيقع فيها حوادث عظيمة وأمور شنيعة، فأكذبهم الله تعالى ولم يقع فيها إلا كل خير، وكانت سنة مباركة على الناس قاطبة ووقع فيها الرخاء والأمن" [٣].

---

(١) العينى ، عقد الجمان، جـ٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩

(٢) ابن الحاج، المدخل، جـ١ ، ص ٢٧٠

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ١٥٢.

وأحياناً تتشاءم نفوس الناس من اللونين الأبيض[١] والأزرق دون سائر الألوان، فعندما ذهب السلطان طومان باى ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م على مأدبة الإفطار فى شهر رمضان امتطى صهوة فرسه الأبيض يغطيه سرج أبيض فضى، بينما ارتدى ملابس من الحرير الأبيض وحذاء أبيض وغطاء رأس من الصوف الأبيض، فكان ذلك فى الواقع زياً غريباً، وتشاءم الناس من ملابسه البيضاء ثم حدث فعلاً أن عزل بعد ذلك بقليل ولم يدم حكمه أكثر من مائة يوم[٢].

أما اللون الأزرق فقد تشاءم منه المماليك، فيصف النويرى، بطرس لوزنيان صاحب قبرص قائلاً: "أنه طويل القامة أزرق العينين، حشره الله فى القيامة أزرق"[٣].

ويتضح من سياق الكلام أن اللون الأزرق كان من الألوان المشئومة وربما هذا يفسر إلزام المسيحيين من سكان الدولة الإسلامية لبس العمائم الزرق للرجال وكذلك لبس الإزار الأزرق عند النساء [٤].

كما تشاءم الناس من بعض الطيور خاصة – الغراب- وهو طائر تشاءمت منه العرب كلها، بل إن كثيراً من الشعوب منذ العصور القديمة كانت تحس إزاء هذا الطائر إحساساً يشوبه التقديس أو الأسطورة[٥].

---

(١) ربما يرجع ذلك لكون اللون الأبيض شعار دولة الفاطميين الشيعة، ومع ذلك لجأ المماليك إلى لونين اللون الأسود الذى هو شعار السنة وسيطر على الزى منذ الأيوبيين الذين قضوا على الفاطميين وبقى فى عهد المماليك حماة الخلافة العباسية التى انتقلت من العراق إلى مصر، كما تميز اللون الأصفر الذى أصبح لونا مميزاً لسلطان المماليك ورسومهم فى مصر، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٢م، جـ٢ ، ص٦٩ ، إبراهيم ماضى، زى أمراء المماليك فى مصر والشام، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ص ١٢٢.

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص٤٧٥- ٤٧٧؛ زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى أخرجه ، زكى حسن بك، حسن أحمد محمود، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠٠٨م ، جـ١ ، ص١٦٤؛ جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، عين للدراسات الاجتماعية القاهرة ٢٠٠٨م، ص ٨٨.

(٣) النويرى الاسكندرانى، الإلمام أو مرآة العجائب ، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ١٩٩٥م ، جـ١ ، ص٧، جـ٤ ، ص ١١٢

(٤) النويرى الاسكندرانى، جـ١ ، ص٩٥ ، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك والتاريخ السياسى والاجتماعى، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١٢م ص ٢٧٦

Casola ,pilgrimage to Jerusalem ed Margaret Manchester ,1907 P ;257.Thenoud ,J .Le vo - age de outré mer de jeun thenoud ,Paris .1888 ,P ,56-57 .Suriano.op.cit .P.193.

(٥) وكان يطلق عليه حاتماً لأنه يحتم عندهم بالفراق ويسمونه الأعور على جهة التطير؛ الابشيهى، =

وها نحن نراه فى قصة مقتل الملك المنصور لاجين ٦٩٦-٦٩٨هـ[1] يقول ابن تغرى بردى: " كان الملك المنصور متزوجاً ببنت الملك الظاهر بيبرس، وكانت دينة عفيفة، فحكت أنها رأت فى المنام ليلة الخميس قبل قتل السلطان بليلة واحدة، كأن السلطان جالس فى المكان الذى قُتل فيه، وكأن عدة غربان سود[2] على أعلى المكان، وقد نزل منهم غراب، فضرب عمامة السلطان فرماها على رأسه وهو يقول كرج كرج..." [3].

ونرى تراثنا الشعبى بما يتضمنه من أمثال عامية محفوظة ومحفورة فى الوجدان الشعبى تُعطى مثالاً صادقاً ورؤية تملأ الفراغ التاريخى، فنراها تنطق بأن :"فرحة ما تمت خدها الغراب وطار" و"ياما جاب الغراب لامه"[4].

كذلك تشاءمت نفوس المماليك من رؤية الجراد باعتباره نذير شؤم ويوحى بالخراب ، إذ كان له دور محورى فى التأثير السلبى على معنويات الجند، ففى سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م، عندما اتجه العسكر السلطانى لقتال قوات غازات، حتى نزلوا بعسقلان وساروا منها إلى دمشق... وظهر أثر التطير المثبط للعزيمة بين جنود الناصر محمد، فقد تشاءم الجند من رؤية الجراد الذى تصادف بالجو ووقع فى قلوبهم، واعتبروه نذيراً بالهزيمة، لاسيما وقد علموا كثرة تعداد العدو، فدارت عليهم الدائرة وجعل الناصر محمد يتعوذ بالله من الشؤم قائلاً: يارب لا تجعلنى كعب نحس على المسلمين[5].

= المستطرف فى كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبى، دار المعرفة بيروت الطبعة الخامسة ٢٠٠٨م، جـ٢ ، ص ٤٧١، جيمس فريزر، الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار المعارف القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٢م ، جـ٢، ص ١٣٣ ، عمرو منير مصر والعمران بين كتابات الرحالة والموروث الشعبى ، ص ٤١١.

(١) زامباور ، معجم الأنساب، جـ١ ، ص ١٦٢

(٢) يذكر ابن سيرين من رأى غراباً على باب الملك، فإنه يجنى جناية يندم عليها ورؤية الغراب فى مكان غير محمود... ابن سيرين، تفسير أحلام التشاؤم، جمع وإعداد عبد الحفيظ بيضون، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، ص١٧١

(٣) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين ، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة الطبعة الثانية ٢٠١١م، جـ٩ ، ص ١٧٣.

(٤) أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية، ص ٣٥٤، ٥١٤.

(٥) ربما ربط الجنود بين كثرة الجراد وبين كثرة جند غازات فهزموا معنوياً قبل أن يهزموا عسكرياً، المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣ ، ص ٨٨٧- ٨٨٨ .

كما اعتاد المجتمع المصرى التشاؤم إذا شاهد سمكة تسمى عندهم "شيخ البحر" فى النيل، فيدل ذلك عندهم على حدوث القحط والموت والفتن(١).

وكيفما كان الأمر، كان يربط الناس بين زيادة النيل ونقصانه وبين حكم السلاطين، فإذا ما انخفضت مياه النيل ربطوا ذلك بطالع السلطان وأن حكمه شؤم، وإذا ما فاض النيل استبشروا خيراً ففى سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م ، تشاءم الناس من حكم كتبغا لأنه جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار..." (٢) وأيضاً فى سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، توقف النيل واستسقى الناس فلم يسقوا وانتهت زيادته فى سابع عشرى توت إلى خمسة عشر ذراعاً وسبعة عشر أصبعاً ثم زاد وأوفى ستة عشر ذراعاً فى تاسع عشر بابه، وتشاءم الناس بسلطنة بيبرس الجاشنكير، وغنت العامة فى ذلك.

- سلطاننا ركين، ونائبنا دقين، يجئنا الماء من أين
- يجيبوا لنا الأعرج ، يجىء الماء ويدحرج(٣)

وأرجعت الناس أن قلة مياه النيل وذلك لغياب الملك الناصر محمد بن قلاوون عن الحكم "فاتفق تناقص النيل كما أتفق فى أيام كتبغا فاجتمعت الخواطر على أن ذلك لغيبة الملك الناصر، وقالوا: كان خروجه الأول سبباً للفناء والغلاء والثانى موجباً للمحل والبلاء"(٤).

كذلك فى سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م نودى على النيل بزيادة أصبع، وبقى على الوفاء أربعة ثم نقص ثلاثة أصابع ، فأخذ الناس القلق واشتد اضطرابهم وارتفع السعر عما كان وكثر البكاء والنحيب وارتفعت الأصوات وتشاءمت الناس من حكم الظاهر جقمق ولهجوا بزوال ملكه(٥).

ومن ناحية أخرى، إذا ما فاض النيل استبشروا خيراً بالسلطان وأن طالعه خير، فلما ولى حسام الدين لاجين السلطنة ٦٩٦- ٦٩٨هـ، تفاءل الناس به واستبشروا بالخير وجاء فى تلك

---

(١) ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٢ ، ص ٢٢٠

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٨١٠؛ عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر فى عصرى المماليك والعثمانين، مكتبة نهضة الشرق القاهرة ١٩٩٦م ص٨٧ .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٣٠٠.

(٤) بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، ص ١٩٢.

(٥) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل جـ٢ ق٥ ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .

السنة غيث عظيم بعدما كان تأخر، فقال فى ذلك الشيخ علاء الدين:

يا أيها العالم بشراكمُ بدولة المنصور رب الفخار
فالله قد بارك فيها لكم فأمطر الليل وأضحى النهار[١]

كذلك سبح السلطان المؤيد شيخ ٨١٥-٨٢٤هـ فى النيل فنودى فى الغد بزيادة ثلاثين إصبعا فاستبشر الناس بذلك وقالوا :إن ذلك ببركة السلطان[٢].

وتفاءل الناس بولاية علم الدين صالح البلقينى للقضاء، ففى سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م رسم السلطان الظاهر خشقدم ٨٦٥- ٨٧٢هـ لصالح البلقينى بالتوجه للمقياس والدعاء عنده بزيادة النيل... فزاد النيل أصبعين فسر الناس بذلك غاية السرور، وكانوا يتبركون به ويتشاءمون من ولاية شرف الدين المناوى..." [٣].

وثمة أمر آخر مهم، فقد شاع فى المجتمع المصرى أفكار تدور حول نهاية العالم يوم القيامة وأن زمن الهلاك بات وشيكاً، فيقول:المقريزي " في سنة ٨٣٣ه/١٤٢٩م،إن الناس قد لهجوا أنه في هذه السنة سيقع فناء عظيم حتي إن الصغار من الاطفال في المكاتيب يتكلمون بذلك ويودعون بعضهم بعضا،وقد سمعت الأطفال تتحدث بهذا في الطرقات"[٤] كما يشير ابن تغرى بردى والذى كان شاهد عيان على حادثة تدلل علي شيوع تلك الخرافة "ففى سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م فى يوم الجمعة تاسع شوال وقعت حادثة غريبة، وهو أن العامة لهجت بأن الناس يموتون يوم الجمعة بأجمعهم قاطبة وتقوم القيامة فتخوف غالب العامة من ذلك ، فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة المذكور حضر الناس إلى الصلاة وركبت أنا أيضاً إلى الجامع وجلست به، واذن المؤذنون ثم خرج الخطيب على العادة ورقا المنبر وخطب وأسمع الناس إلى أن فرغ من الخطبة الأولى وجلس للاستراحة بين الخطبتين فطال جلوسه ساعة كبيرة فتقلق الناس إلى أن قام وبدأ فى الخطبة الثانية، وقبل أن يتم كلامه قعد ثانياً واستند إلى جانب المنبر ساعة طويلة كالمغشى عليه، فاضطرب الناس، لما سبق من إشاعة أن الناس تموت يوم الجمعة بأجمعهم، وظنوا صدق المقالة، وأن الموت أول ما بدا بالخطيب، وبينما الناس فى ذلك قال رجل :الخطيب مات، فارتج الجامع وضج الناس

---

(١) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٩ ، ص ١٧٠؛ عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر فى عصرى المماليك، ص ٩٠.

(٢) عبدالباسط بن خليل ،نيل الأمل ،ج١ق٤،ص٦٤:ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٢ ، ص ٣٩

(٣) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، جـ٣ ، ص ٤٢٩.

(٤) المقريزي، السلوك جـ ٤، ق٢، صـ٨٢٢.؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٣؛ صـ١٨٣.

وتباكوا وقاموا إلى المنبر وكثر الزحام على الخطيب، حتى أفاق وقام على قدميه ونزل عن المنبر ودخل إلى المحراب وصلى من غير أن يجهر بالقراءة وأوجز فى صلاته حتى أتم الركعتين وقدمت عدة جنائز فصلى عليها الناس، وأمهم بعضهم، وبينما الناس فى الصلاة على الموتى إذ الغوغاء صاحت بأن الجمعة ما صحت والخطيب صلي، بعد أن انتفض وضوؤه لما غشى عليه... وطلع رجل إلى المنبر وخطب خطبتين على العادة ونزل ليصلى فمنعوه من التقدم إلى المحراب وأتوا بإمام الخمس فقدموه حتى صلى بهمْ جمعة ثانية... وإذا بالناس تطير على السلطان بزواله من أجل إقامة خطبتين فى موضع واحد فى يوم واحد [1].

ويتضح من الرواية السالفة الذكر تهيؤ نفوس الناس للموت وتصديقهم لهذه الرواية ، خاصة أنهم عاشوا فى عصر سادت فيه الخرافة والشعوذة.

الاعتقاد بوجود الجن:

وعلى أية حال، شاع بين الناس الاعتقاد بوجود الجن والعفاريت[2] وآمنوا بأن هناك جن مؤمن وآخر كافر[3] ، ويُكن الناس للجن المؤمن احتراماً عظيماً، وقد جرت العادة عندما يصب أحدهم

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٥، ص ٩٨-٩٩

(٢) يعتقد المسلمون عامة بوجود ثلاثة أنواع من المخلوقات، الملائكة وقد خلقوا من نور، والجن وقد خلقوا من نار وبنى الإنسان وقد خلقوا من طين، كما أن الجن يتخذون أشكالاً مختلفة كالثعابين أو العقارب أو السود أو الذئاب أو غير ذلك وينقسم الجن إلى أربعين فرقة ,وتتألف كل فرقة من ستمائة ألف وينقسم الجن إلى ثلاثة أنواع، نوع له جناحان يمكنانه من الطيران ونوع ثانى يتخذ شكل الثعابين والكلاب ونوع ثالث ينتقل من مكان إلى آخر لبنى الإنسان ، ولما كانت الجن مخلوقه من النار كان من الطبيعى أن تفضل النار كأماكن لتواجدها إلا أن المقر الرئيسى لتواجد الجن فى رأى المعتقد الشعبى المصرى، ليس هو النار، وإنما الأرض، فالجن يعيشون عادة تحت الأرض، ولما كانت الجان تعيش تحت الأرض أساساً أصبح من المعقول أن تعتبر الناس الآبار والكهوف والأماكن الخربة من الأماكن التى يكثر تواجد الجن فيها، إذ تعتبر إلى حد ما منافذ إلى العالم السفلى، كما أنهم يقطنون البلاد البعيدة وفيها عادة تكون ممالكهم، وتظهر الجن فى جميع الأماكن المهجورة أو غير المطروقة فى الصحراء والبيوت الخربة والأنهار والحمامات كذلك توجد كثيراً فى الأماكن النجسة كالحمامات والحوش والمذابل، للمزيد انظر، القزوينى، عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٦م ، ص ٣١٤؛ وليم لين، المجتمع العربى فى العصور الوسطى، ترجمة على حسن الخربوطلى ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة د.ت. ص ٢٩؛ محمد الجوهرى موسوعة التراث الشعبى العربى، المعتقدات والمعارف الشعبية، المجلد الخامس، ص ١٠٠.

(٣) العينى، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٣م ، ص ١٣.

ماء أو غيره أن يصيح ويدمدم "دستور" مستأذناً مستغفراً الجنى الذى قد يوجد هناك، ويظن أن الجن ينتشرون فى طبقة الأرض الصلبة، مثلما ينتشرون فى السماء، ويعتقد الناس أيضاً أن الجن يسكنون الخرائب والآبار والحمامات والمراحيض؛ ولذلك عندما يدخل أحد مرحاضاً أو يُدلي دلواً فى بئر أو يوقد ناراً يقول: "دستور" أو "دستور يا مباركين"[1].

والجدير بالذكر أنه شاع بين الناس الاعتقاد بظهور الجن وسماع كلامهم وكثرة شرهم واختطافهم لمن انفرد من الناس فيقول المقريزى: "إن هناك بلدة صغيرة يطلق عليها سنتريه ، وأن الجن تعبث بأهلها كثيراً وتختطف من انفرد منهم، وتسمع الناس بها عزيف الجن[2]"، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل اعتقدوا أن الجن يدخل فى قتال مع الإنس، ففى حوادث سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م ذكر أحد المماليك الدلالين بسوق الخيل، ويدعى "يعقوب الدلال" أنه رأى الجن عياناً راكبين الخيل كالجراد المنتشر شاهرين رماحهم، وأنه دارت بينه وبين أحادهم معركة، تبادل معهم فيها المطاردة والطعن فى أزقة الصالحية، وصار يحلف على صدق مقولته تلك ،ومن ثم كان طبيعياً أن يتناقلها الناس ما بين مصدق ومكذب، والجدير أنه لما مات ذلك الدلال نقل عنه من غسله، وجود أثر الطعنات فى بدنه[3]، كما أشار السخاوى :أن أحد معاصريه وهو إبراهيم بن الاتكاوى "تعقبته تابعة من الجان عجز الأكابر عن خلاصه منها ، فاستعان عليها بأحد ذوى الكرامات"[4].

وفى نفس السياق يروى لنا الشعرانى قائلاً: "كان فى بيتى أمرأة من الجان فكانت إذا قربت منى قامت كل شعرة فى جسدى، فكنت أذكر الله فتبتعد من وقتها ، ثم كانت تقف فى طريقى إلى المسجد فى الظلام فما فزعت منها قط، بل كنت أمر عليها فى المجاز المظلم فأقول لها: السلام عليكم، وما نفر خاطرى منها قط ، مع أن طباع الإنس تنفر من الجن، وسكن عندى مرة أخرى جماعة من الجن أيام الغلاء فكنت أقول لهم: كلوا من الخبز والطعام بالمعروف، ولا تضروا

---

(١) وليم لين ، المصريون المحدثون ، جـ١ ، ص ٢٥١

(٢) وسنتريه بلد صغير، يسكنه نحو ست مائة، رجل من البربر يعرفون بسيوة ولغتهم تعرف بالسيوية، تقرب من لغة زناتة، المقريزى ،المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ٦٣٨.

(٣) روى ذلك الشهاب بن حجى عن يعقوب الدلال، ابن حجر، إنباء الغمر بانباء العمر، تحقيق حسن حبشى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ٢٠٠٩م ، جـ١، ص ٧؛ إسماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية، ص ٣١٧.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، جـ١ ، ص ٩٣؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٨.

بإخوانكم المسلمين، فأسمعهم يقولون سمعاً وطاعة، وسكن جنى فى بيتى مرة أخرى فكان يأتى كل ليلة فى صورة جدي كبير فيطفىء السراج أولاً ثم يصير يجرى فى البيت فكان العيال يحصل لهم فزع فكمنت له تحت رف وقبضت عليه....." [١].

وكيفما كان الأمر، فقد اعتقد الناس أن بمقدرتهم أن يحصلوا على بعض خدمات الجن[٢]، لكى يقوموا باستخراج ما فى باطن الأرض من كنوز[٣]، وهو ما يعرف فى لغتهم "بالمطلب" ومن أمثالهم: "كلب أجرب وانفتح له مطلب"[٤]، ويشير المقريزى إلى قيام بعض أمراء الملك الناصر محمد محمد بن قلاوون فى سنة إحدى عشر وسبع مائة بالحفر تحت صنم أبى الهول حتى بلغ الحفر إلى الماء ظناً أنه كنز فلم يجد شيئاً..." [٥].

وعلى أية حال، فقد سيطرت أخبار الجن والعفاريت على عقول الناس، وهناك حكاية ذكرها عدد من المؤرخين تؤكد ذلك ففى حوادث سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م ومنها شاع بين الناس أن شخصاً يتكلم من وراء حائط فافتتن الناس واعتقدوا أن المتكلم من الجن، وتفصيل تلك الرواية "أنه وقعت حادثة مستغربة، وهى أن بعض الشهود وكان يقال له أحمد بن الفيشى، وكان يجلس فى دكان عند رحبة العيد،فاتفق له أن خاصم زوجته يوماً، ثم دخل منزله فسمع صوتاً من خلف جدار بيته يقول له: " أتق الله، وعاشر زوجتك بالمعروف" فظن أن هذا من الجان، وهو لم ير شيئاً، وحدث

---

(١) زكى مبارك، التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٦م ، جـ١ ، ص ٢٤٦؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٨.

(٢) يذكر النويرى والقزوينى أن بعض الجن موكل بإخراج الكنوز من تحت الأرض، النويرى، الإلمام، أو مرآة العجائب، المجلد الثانى، جـ٣ ، ص ٣٠٨ ؛ القزوينى، عجائب المخلوقات، ص ٣١٥؛ وليم لين، المجتمع العربى، ص ٤٢.

(٣) ولهذه الخرافة أصل، فقد كان القدماء يدفنون أموالهم فى الأرض خوفاً من اللصوص، وكان بين حين وآخر يعثر بعض الأهالى على دفائن نفيسة من وقت لآخر، وغاب عنهم السبب الأصيل فظنوها من ذخائر الجن، زكى مبارك ، التصوف الإسلامى، جـ١، ص ٣٥.

(٤) أما القصص والحكايات التى دارت فى المجتمع المصرى عن كنوز قدماء المصريين التى كانت مخبأة فى مقابرهم ومعابدهم... والتى ما تزال تكشف كل حين على الآن فقد كان بعضها حقيقياً ، على حين حمل البعض رائحة المبالغة وقد أوردها المقريزى تحت عنوان ذكر الدفائن و الكنوز التى تسميها أهل مصر المطالب "وهى تسمية تكشف أن هذا الموضوع كان يشغل الناس فترة طويلة من الزمان قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، ص ٦٨.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الثالث ، ص ٥٦٧

أصحابه بذلك، فصاروا معه إلى بيته فسمعوا الكلام من الجدار، فصار كل من يأتى ليسأل عن شيء يرد عليه الجواب ويكلمه بكلام فصيح، فغلب على ظنهم أن هذا من الجان، وأشاعوه فى الناس فارتجت القاهرة ومصر وأقبل الناس من كل جهة على بيت ابن الفيشى وتركوا معايشهم وازدحموا على دار المذكور لسماع كلام الحائط ، وصاروا يحادثون الحائط بزعمهم ويحادثهم فكثر بين الناس قولهم "يا سلام سلم الحائط بيتكلم" وكاد الناس أن يفتتنوا بهذا وجلبوا إلى ذلك الجدار من الطين شيئاً كثيراً، وحضرت العذراء من خدرها إليه، وركب محتسب القاهرة ليختبر ما يقال، ووكل بابن الفيشى أحد أعوانه ، فإذا بالبيت مرتفع وتحته اصطبل فيه بعض الأجناد فوكل به ايضاً، وطلع إلى عند الحائط وحدثه فحادثه فأمر بهدم الحائط فقال له: "إخرب فإنه ما ينزل على شيء ولا أبالى" فلما هدم الحائط لم ير شيئاً ، فعاد على بيته وقد كثر تعجبه وازدادت فتنة الناس بالحائط وأخذ المحتسب مع أصحابه فى ذكر ذلك فبعث من يكشف له الخبر، هل انقطع الكلام بعد تخريب الحائط أم لا؟ ؛ فوجده قاصده يتكلم كما كان قبل خرابه فتحير من ذلك، فلما عاد قاصده إليه واخبره بأن الكلام مستمر، قام من فوره ومعه عدة من أصحابه، حتى جلسوا عند الجوار، وأخذوا فى قراءة شيء من القرآن ثم طلب صاحب البيت وقال له: "قل لهذا المتكلم، القاضى جمال الدين يسلم عليك" فقال الجدار وعليه السلام ورحمة الله وبركاته فقال المحتسب: "قل له على متى هذا الفساد" فأجابه إلى أن يريد الله تعالى فقال لصاحب البيت : "قل له هذا الذى تفعله فتنة للناس وما هذا جيد" فأجابه ما بقى بعد هذا كلام وسكت "وهم يقولون [له] يا سيدى الشيخ "فلم يكلمهم بعدها، وكان فى صوته غلظ يوهم أنه ليس بكلام إنس، فلما إيس من مكالمته قام عنده وقد اشتدت فتنة الناس بالحائط، حتى كادوا يتخذوه معبوداً لهم، وغلو فيه كعادتهم ، وزعموا له ما شاءوا من ترهاتهم، ثم بعد ذلك عاد إلى الحديث مع الناس فنزل إليه عدة من الأمراء والأعيان وحملوا إليه المآكل وغيرها والمحتسب يدبر فى كشف الحيلة، ودس إلى الفيشى من استدرجه حتى اعترف بأنها حيلة فركب المحتسب ومعه جماعة التى بيت الفيشى وقبض عليه وعلى امرأته وعلى فقير عندهم للناس فيه اعتقاد يعرف بالركن عمر، وعاد بهم على داره ، وما زال والمرأة إلى أعلمته أنها هى التى كانت تتكلم وسبب ذلك أن ابن الفيشى زوجها كان يسيىء عشرتها فاحتالت عليه بهذه الحيلة، وتوهمه بأن الجان يوصيه بها، فتمت حيلتها عليه وانفعل لها، فأعلمته بما كان منها، فرأى أن تستمر على ذلك لينالا به جاها ومالاً فوافقته على ذلك، حتى كان ما كان فعوقبوا جميعاً فضرب الرجلين بالمقارع وضربت المرأة بالعصى نحوا

من ستمائة ضربة، وأمر بهم فسمروا ثلاثتهم على جمال وشهروا بالقاهرة ومصر[١]، ثم أفرج عنهم بعد أن حبسوا مرة، وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن العطار:

يا ناطقاً من جدار وهو ليس يرى اظهر وإلا فهـذا الفعـل فتان

فما سمعنا وللحيطان ألسنة وإنما قيل للحيطان أذان[٢]

وقال غيره:

قد حار فى منزل الفيشى الورى عجباً يناطـق من جـدار ظـل مبريـهُ

وكلهـم فى حديد بارد ضربـوا وصاحب البيت أورى بالذى فيه[٣]

ونرى فى تراثنا الشعبى بما يتضمنه من أمثال عامية محفوظة ومحفورة فى الوجدان الشعبى تعطى مثالا صادقاً فنراها تنطق بأن: "الحيطة لها ودان"[٤].

طاسة الخضة :

وهى عبارة عن آنية صغيرة من النحاس تتصل بها سلسلة قطع صغيرة من الحديد تعرف باسم المفاتيح وكانت تملأ بالماء أو الزيت أو اللبن وتترك مكشوفة فى الهواء الطلق ليلة بأكملها وفى الصباح يشرب المصاب ما فيها ويكرر هذا العمل عدة أيام حتى يزول المرض أو الألم[٥].

---

(١) المقريزى، السلوك ، جـ٣ ، ص ٣٦١- ٣٦٢ ؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١ ، ص ١٩٨ – ١٩٩؛ السخاوى، الذيل التام على دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، مكتبة دار العروبة الكويت الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، جـ١ ، ص ٣٠٩-٣١٠ ؛ وجيز الكلام، جـ١ ، ص ٢٤٣؛ ابن إياس ، بدائع الزهور جـ١ ق٢ ص ٢٤٧-٢٤٨ ؛ نظير حسان سعداوى ، صور ومظالم من عصر المماليك ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٤٠- ٤٢.

(٢) ابن دقماق، الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور، جامعة أم القرى ١٩٨٢م، ص٤٤٨؛ ابن حجر إنباء الغمر بانباء العمر، جـ١، ص١٩٨؛ السخاوى، الذيل التام ، جـ١، ص٣١٠.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١ ، ص ١٧٣

(٤) أحمد تيمور، الأمثال العامية، ص ١٩٠

(٥) محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى، المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٣٥؛ منى كامل العيسوى، من التراث الشعبى المشغولات المعدنية ،دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠٠٨م ، ص ٦٧ ؛ محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا، ص ٢٦؛ محمد الجوهرى، المعتقدات والمعارف، المجلد الخامس، ص ٣٣٩.

ويعتقد الناس بأن طاسة الخضة تزيل كل الأمراض سواء كانت أمراضاً عجيبة أو أمراضاً جلدية، أو لوجع القلب أو لرمد العين أو لرمى الدم[١]، ويشير ابن تغرى بردى أن الأمير "دولات باى" مات سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣سم متأثراً من الطربة، فيقول "وقد قال لى بعض الحذاق إن سبب موته، إنما كانت طربة يوم أمسك، ودامت الطربة إلى أن قتله ، وأنا لا استبعد هذا ، لما كان عنده من الجبن والحذر"[٢].

الاعتقاد فى العين والحسد

كذلك اعتقد المصريون اعتقاداً راسخاً فى العين، واتقوا شر ذلك باستعمال البخور [٣] " ويتكلم من يرقي البخور بكلام لا يعرف"[٤]، وأطلق الناس على المرأة الحسود أن كعبها مدور[٥]، ولذا كانت المرأة تخاف على وليدها من الحسد وتحجبه عن أعين الناس لأنها تؤمن جيداً أن أكثر أهل القبور من العين، وشاعت الرقية والبخور للعلاج من الحسد[٦].

---

(١) حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٠م، جـ٢ ، ص٥٥١؛ محمد الجوهرى، المعتقدات والمعارف، المجلد الخامس، ص ٣٣٩.

(٢) "دولات باى" أعتقه المؤيد شيخ المحمودى وجعله خاصكيا ثم صار خازنداراً ثم ساقياً واستمر على ذلك إلى أن عزل عن السقاية فى دولة الملك الصالح محمد بن الملك الظاهر ططر.. وقبض عليه فى سلطنة الملك المنصور عثمان وحمل إلى الاسكندرية فحبس بها شهراً، ثم أطلقه الملك الأشرف إينال، وأحضره إلى القاهرة ثم أنعم عليه باقطاع الأمير أرنبغا اليونسى فلم تطل أيامه إلانحو شهر ومرض ومات للمزيد انظر ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠٠٨م، جـ٥ ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

(٣) البخور، وهو تحول النبات الجاف إلى بخار له رائحة، وذلك بعد حرقه على الفحم، وقد عرف القدماء المصريون البخور، كما أن للبخور أبعاداً اعتقادية لطرد الجان والشياطين حيث تقوم العديد من الأسر المصرية بتبخير بيوتها يوم الجمعة ما بين الأذان والإقامة لحماية بيتها من نفثات الشياطين؛ محمد الجوهرى، مؤسسة التراث الشعبى، المعتقدات والمعارف، المجلد الخامس، ص ١٣٢؛ أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٩١ ، ٩٢.

(٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص ٥٥ ، ٥٦؛ سعيد عاشور، المجتمع ، ص ٢٦٧.

(٥) الوهرانى، منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله، تحقيق ابراهيم شعلان، محمد نفش، دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨م، ص ٩٦.

(٦) الوهرانى، منامات، ص ١٠٠ ؛ ابن الزيات، فى القرافتين الكبرى والصغرى ،المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٠٧م، ص ٢٥٢ .

وفى كل الحالات تكتب التعاويذ والأحجبة [١] وفى بعضها آيات من كتاب الله عز وجل تقى المريض من شرور العالم السفلى وتمنع الحسد[٢]، ومن المعتاد أيضاً حماية المنزل من العين الشريرة، وهناك نقوش كثيرة تستخدم لهذا الغرض، وأحياناً يلصق صحن فى جدار أعلى المدخل الرئيسى[٣] أو قرون الأغنام أو عروسة القمح على الأبواب[٤] أو تعليق أحذية على أبواب المنازل، أو وضع أحجار وطوب معلقة على المنازل.

ولتأكيد ما ذهبنا إليه، يشير ابن إياس فى بدائعه قائلاً: " ومن النوادر أن الملك الظاهر برقوق لما أنشأ مدرسته التى بين القصرين سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م... وبينما هو جالس بها إذ دخل عليه شخص من الفقراء المجاذيب فدفع إليه طوبة وقال له: "ضع هذه الطوبة فى مدرستك فما دامت بها فهى عامرة" فوضعها الملك الظاهر فى قنديل وعلقه فى المحراب، فهى باقية فى القنديل إلى الآن، ولقد فحُصت عن أمر هذه الطوبة فوجدت القول فى ذلك حقاً وهى باقية إلى الآن فى القنديل"[٥].

ويتضح من هذه الرواية أن السلطان برقوق كان مثل أقرانه من السلاطين والأمراء يصدق ويؤمن بما يقوله المشعوذون من خرافات والتى سادت فى ذلك العصر، وهذا ما سنشير إليه فى الفصل الثانى من الدراسة.

ومن بين مرايا العصر المملوكى نشير إلى مرآة بمتحف الفن الإسلامى وهى من البرونز وعلى

---

(١) الأحجبة، جمع حجاب، وهى من الأشياء المهمة التى كانت المرأة المصرية تحرص على اقتنائها وتغطيتها بقطعة من قماش مشمع لحمايتها من الماء أو التلف وعادة ما يعلق على الجانب الأيمن من الحزام، ويمر الشريط أو السلسلة على الكتف الأيسر، وكانت هذه الأغلفة تحمل كلمات عربية مثل ما شاء الله أو "يا قاضى الحاجات" كما أعتادت المرأة لبس المصاحف لدرء الحسد والعين وجلب الحظ والسعادة، أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد ، ص ٣٣؛ محمد الجوهرى ، المرجع السابق، جـ٥ ، ص ٣٤؛ وليم لين ، المصريون المحدثون، جـ١، ص ٢٨٣ .

(٢) وينفريد بلاكمان، الناس فى صعيد مصر، ص ١٧٩.

(٣) وهذه الخرافة ورثناها أيضاً عن مصر القديمة، فقد وجد فى مكتبة معبد الإله حورس فى إدفو كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرد العين الشريرة كما أن هناك أنشودة معروفة للإله تحوت يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة وقدور فيها ما يأتى "أيها الإله تحوت إذا كنت تحمينى لم تبق فى حاجة إلى الخوف من العين" محرم كمال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٤) أحمد ممدوح ، معدات التجميل فى متحف الفن الإسلامى ،القاهرة ١٩٥٩م ، ص ٧٠.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق ٢، ص ٢٧٣.

ظهرها زخارف نباتية وعلى وجهها المصقول كتابات قرآنية وأخرى سحرية، الأمر الذى يدل على أنها كانت تستعمل أيضاً كتميمة تقى صاحبتها من الحسد[١].

ومن بين هذه الأحجبة حجاب الحب والكره، والحفظ والوقاية حيث نرى العديد من التمائم التى تعلق فى رقاب الأطفال حتى تطول أعمارهم كما استخدمت أيضاً فى حالة اصابة الطفل الرضيع بالبكاء الدائم ، فإنها تعتقد أن العين الشريرة قد أصابته، ولكى يتم إبعاد الشر الذى لحق به، فإن جدة الطفل لأمه أو أبيه تحمله بحيث لا يكون ملاصقاً لجسمها ، وتلف به حول زير الماء سبع مرات، وبينما هى تفعل ذلك تقول "يا ملاك الماء خذ العين الشريرة من هذا الطفل"[٢].

وكثيراً ما عنوا بكتابة الحفائظ فى أوقات معينة مثل آخر جمعة من رمضان وهى ما تعرف بـ "حفيظة رمضان" والإمام يخطب لصلاة الجمعة، ويعتقدون أن وضعها فى المنزل يقي من حدوث الحريق، وإذا وضعت فى مركب منعت عنه الغرق وغير ذلك[٣].

هذا وقد حرم الشارع الحنيف، لبس الحلقة والتميمة وتعليق الأحراز والقلائل ، والرقى بهدف رفع البلاء ودفعه أو باعتقاد نفعها إلى غير ذلك مما أتخذه المماليك، وشاع بينهم، فهى من قبيل الشرك ولا تزيد صاحبها إلا وهناً [٤].

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من تعلق بتميمة فقد أشرك، وعن ابن مسعود قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أن الرقى والتمائم شرك[٥].

الظواهر الطبيعية:

وقد لعبت بعض الظواهر الطبيعية دوراً بارزاً فى ذيوع الخرافات والخزعبلات فى المجتمع المصرى، فإذا ما ظهر كوكب فى السماء خرجت التأويلات بأن ظهور هذا الكوكب يدل على سقوط الدول وقتل السلطان أو تفشى الأمراض أو حدوث الزلازل والحرائق، بينما إذا كسفت الشمس أو

(١) أحمد ممدوح ، معدات التجميل فى متحف الفن الإسلامى ،القاهرة ١٩٥٩م ، ص٧٠.

(٢) ربما يعود ذلك لقيمة الماء، ويعتقد أن كل إناء يحتوى على ملاك حارس للماء، وهم يعتقدون أن هذا الملاك سوف يزيل آثار العين الشريرة من الطفل، وينفريد بلاكمان، الناس فى صعيد مصر، ص ١٧٤؛ محرم كمال، آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية، ص ٢١.

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٧؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٢٦١.

(٤) الشوكانى، الدر النضيد ، ص ١١٤.

(٥) حديث شريف.

خسف القمر أو حدث إحمرار فى السماء دل ذلك على نهاية الكون يوم القيامة ، بل ذهبت مخيلة الكثيرين من الناس بأن هبوب الرياح دليل على قيام الفتن والقلاقل.

ومما يسترعى الانتباه أن الناس عندما يرون كوكباً له ذؤابة تبدأ التأويلات الخرافية الخاصة بهذا الكوكب ، ومن بين هذه التأويلات، ما ذكره المؤرخون بشأن التأويل بسلطنة المؤيد شيخ ، ففى سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م[1] ، ظهر كوكب قدر الثريا ، له ذؤابة ظاهرة النور جداً ، وكان يرى بالنهار مع ضوء الشمس، واستمر يطلع فى كل ليلة بعد المغرب، ويقيم إلى ثلث الليل، فأقام على ذلك إلى آخر شعبان مدة ثم اختفى، فأوله بعضهم بظهور ملك الشيخ المحمودى[2].

---

(١) ذكر هذا الكوكب عدد من المؤرخين وانقسموا ما بين مادحين وذامين لهذا الكوكب وذلك وفقاً لتفسيرات وهوى المنجمين، فيقول ابن إيبك، "حدثنى الشيخ شرف الدين السنجارى التاجر السفار وذلك سنة ٦٨٤هـ وفى ليلة النصف من شهر المحرم، وقد ظهر كوكب عظيم الشعاع له ثلاث ذوايب طوال إلى جهة الغرب والناس قيام ينظرون إليه، وكان فى الجملة عماد الدين بن الدهان ريس المنجمين يومئذ ، فسألوه كبار الناس وأنا أسمع : "ماذا يدل على طلوع هذا الكوكب" فقال " يا قوم، أحدثكم بعجيب هذا الكوكب ظهر فى سنة ٤٢٠هـ وله ذؤابتان فى طول هؤلاء الذين ترونهم الثلث فكان فى الثالثة قصر كثير. فولد فى ذلك التاريخ المستنصر خليفة مصر فعاش سبع وستين سنة، وخطب له بمصر والشام والعراق، ثم إن هذا الكوكب ظهر فى سنة ٤٩٠هـ فكان ذلك مولد عبد المؤمن صاحب الغرب فعاش سبعين سنة وملك خمسين سنة، وكان هذا الكوكب لما ظهر له ذؤابتان طوال كما ترونهما فى هذا الوقت والثالثة أطول من ثالثة المستنصر، ثم غاب فلم يظهر الا فى سنة ثلاث وخمسين وخمس مائة، فكان ذلك مولد الامام الناصر لدين الله خليفة بغداد، فعاش تسع وستين سنة، وأقام خليفة سبع وأربعين سنة وكانت الحظية له فى سائر ممالك الاسلام بالدنيا، وهذا الكوكب فقط ظهر فى هذا الوقت وله ثلاث ذوايب كاملة يدل على أن يولد فى هذه الليلة مولود سعيد بملك مصر بالشام والعراق ويعيش من العمر ثلاثة ثلثين ثلثين ، فإن قد جربنا كل ذؤابة من ذوايب هذا الكوكب بمدة ثلثين سنة حياة فإن نقص منهن شيأ نقص من إحدى الثلثين، وهؤلاء فنراهن كاملات لا نقص منهن فاعتبروا برحمكم الله من يولد فى هذه الليلة، قال الشيخ السنجارى فاعتبرنا ذلك، فلم نجد غير مولد الملك الناصر صاحب مصر والذي ولد فى تلك الليلة المباركة... ، ابن إيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٨ ، ص ٢٧١- ٢٧٣.

وعلى الجانب الآخر، فقد ذم عدد من المؤرخين وجوده بقولهم: " إن هذا الكوكب طلع فى وقت قتل هابيل، وفى وقت الطوفان وفى وقت نار إبراهيم الخليل، وعند هلاك قوم عاد وثمود وقوم صالح، وعند ظهور موسى وهلاك فرعون، وعند قتل عثمان بن عفان وكذلك قتل على رضى الله عنهما، وظهور هذا الكوكب يدل على قتل ملك من الملوك أو ظهور الطاعون، وأدنى الأحداث عند ظهور هذا الكوكب الزلازل والأهوال، إبن إيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٨ ، ص ٨٦؛ السيوطى ، حسن المحاضرة، جـ٢ ، ص ٣٢٣؛ إبن إياس ، بدائع الزهور جـ١ ق٢ ، ص٢٩٢.

(٢) السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢ ، ص٣٠٨ ، ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢ ، ص ٢٠٦؛ عبد الباسط بن خليل ، نيل الأمل، جـ١ ق٣ ، ص ٧٤؛ إبن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ، ص ٦٤٧.

وقدمت لنا كتب التراث، صورة عما كان شائعاً بين الناس، وهو ربط ظهور هذا الكوكب وأثره على مصائر السلاطين والملوك ، فنرى التأويلات الخاصة بهذا الكوكب باعثة على الخير أو العكس،فقد ظهر هذا الكوكب فى سنة ٧٥٥هـ بعد العشاء الآخرة من قبل جبل أبى قبيس فى قدر الهلال وأكثر نوراً منه، ومر على الكعبة ثم اختفى بعد ثلاث درج، فسمع من فقير يمنى وهو يقول: لا إله إلا الله القادر على كل شيء، هذا يدل على رجل يكون فى شدة ويفرج الله عنه، ورجل يكون فى فرج فيصير إلى شدة، والله يدبر الأمر بقدرته، فقدم الخبر فى أخريات شوال بخلع الصالح وإعادة السلطان حسن"[١].

ولم يكن عجيباً أن تتردد أخبار الخرافات والشعوذة فى كتابات المؤرخين، ولكن أقرب الأشياء إلى العجب هو إيمان الكثيرين من المؤرخين بحقيقة هذه الخرافات، فقد أرجع ابن إياس علامة سقوط دولة بن قلاوون إلى ظهور هذا الكوكب قائلاً: " وكان ظهوره فى هذه السنة يدل على انقراض دولة بنى قلاوون من القاهرة واستيلاء دولة الجراكسة من بعدهم..." [٢] كما اعتبر المقريزى أن ظهور هذا الكوكب يعد بمثابة نذير شؤم على دولة الظاهر برقوق فيقول: "عندما ظهر فى سنة ٧٩٣هـ فى جمادى الآخر كوكب كبير بذؤابة طول رمحين أو نحو ثلاثة رماح قليلة النور، وصار يظهر من أول الليل إلى أن يغيب نصف الليل... فتفاءل بعض الناس بذلك على الظاهر برقوق..." [٣].

ومن بين تأويلات المنجمين لظهور هذا الكوكب أن يتم قتل ملك من الملوك أو تفشى الطاعون أو حدوث الزلازل والحرائق، فيذكر المقريزى حادثة يدلل بها على ذلك بقوله: "... وفى سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م اتفق أيضاً فى الليلة التى قتل فيها لاجين ظهر فى السماء نجم له ذنب، يخيل لمن رآه، أنه قد وصل إلى الأرض، فلما رآه {لاجين} تعجب منه، وتمعر وجهه وقال لقاضى القضاة حسام الدين وهو معه، "ترى ما يدل عليه هذا المنجم؟" فقال ما يكون الأخير" فسكت {لاجين} ثم قال: يا قاضى، حديث كل قاتل مقتول صحيح" وتغير تغيراً زائداً، فشرع الحسام يبسطه ويطيب خاطره، وهو يقول : إن لله وإن إليه راجعون، وجلس وكررها فقتل فى مجلسه ذلك[٤].

---

(١) ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى السعودية الطبعة الأولى ١٩٨٨م ـ٣ ، ص ٢٦٤؛ إبن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ق١ ، ص ٥٥٤.

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ، ص ٢٩٣

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ١، ص ٤٢٠- ٤٢١

(٤) المقريزى، السلوك ، جـ١ ق٣ ، ص ٨٦٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨ ، ص ١٨٢.

وفى نفس السياق، ربط الناس بين ظهور هذا الكوكب وبين الطاعون، ففى سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م ظهر فى السماء كوكب بذؤابة تزيد على قدر الرمحين، ودام مدة كذلك.. ثم ابتدأ الطاعون بالقاهرة..." [١] كذلك ربطت مخيلة الناس بين ظهور هذا الكوكب وبين الطاعون الذى ضرب مصر فى سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م، معتقدين أينما حل هذا الكوكب حل معه الطاعون، ويشير عبد الباسط بن خليل بقوله: "وفى سنة ٨٣٣هـ وفى رجب ظهر فى السماء كوكب عظيم له ذؤابة قدر الرمح، فكان يظهر عند غروب الشمس بين المشرق وجهة القبلة، فكان يتطاير منه شرار من الشرق والغرب فتعجب منه الناس وفيه ارتفع الموت من الأطفال والشباب وصار يعمل فى الشيوخ والعجائز فكان إذا دخل فى الدار فنيت من أهلها حتى يعلقوا مفاتيح الدار فى رجل النعش.... ومات الكثير من الحيوانات من جمال وحمير وإبل وغنم..." [٢].

كما ساد اعتقاد بين الناس أن وجود هذا الكوكب يدل على حدوث الحرائق، ففى سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م ظهر فى السماء نجم بذنب طويل جداً، فكان يظهر من جهة الشرق ودام يطلع نحواً من شهرين، وكان من نوادر الكواكب وقد تكلم عنه الفلكية فيما يدل عليه الأمر وزاد الكلام فى ذلك بسببه، ثم اختفى ذلك النجم وأقام مدة طويلة نحوا من ثلاث سنين، حتى وقع بمصر الطاعون، ووقع بمصر الحريق[٣] كذلك فى سنة ٨٦٢هـ/ رأى الناس وقت الجمعة صاعقة عظيمة نزلت من السماء على بعض الأماكن التى ببولاق فاحترق، ثم علت النار واشتد الأمر حتى جاوز الحد فى ذلك وأقامت النار تعمل فى البيوت نحوا من أسبوع..." [٤].

ويحسب "لابن البقاعى" عدم إيمانه بما كان يُروجه الناس من الاعتقاد فى هذا الكوكب قائلاً:" وفى سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م كان قد خرج فى حدود سفرى وهو خامس عشر من الشهر أو قبله بيسير أو بعده بيسير، نجم مقارن لكوكب الصبح إلى جهة الشمال، بينه وبينه نحو قيد ثلاثة رماح، وله شعاع ممتد من فوقه قريب من مقدار رمح منعطف رأسه إلى جهة كوكب الصبح، واستمر على هذه الحالة أكثر من خمسة عشر يوماً، ثم اختفى وظهر هو أو غيره من جهة الغرب وقت المغرب واستمر إلى أواخر الشهر ثم اختفى وكان الناس يذهبون كل مذهب كما جرت به عادة الجاهلية وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم، أنه يستمر فى هذه الأمة[٥].

---

(١) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٢ ، ص ١٨٣؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٠٦.

(٢) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٤، ص ٢٧٦،٢٨٧؛ ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٢، ص٦٣٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ، ص ٣٣٣

(٤) ابن إياس، نفسه، جـ٢ ، ص ٣٤٧

(٥) البقاعى، إظهار العصر لاسرار أهل العصر، تحقيق محمد سلام الصوفى، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، جـ٢، ص ١٨٤.

وتجدر الاشارة إلي أنه بمجرد أن يظهر هذا الكوكب يخشى الناس ظهوره، فيذكر ابن الصيرفي في سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م " أنه طلع في السماء كوكب من جهة الشمال كبير الهيئة وأمتد إلى جهة الغرب وله ثلاث شعب وفي إحدى الشعب ذنب طويل طول رمح وله نور يضيء على نور القمر، ثم بعد ذلك انتقل امتداده من الغرب إلى الجنوب وسمع الناس له صوتاً مزعجاً مهمولاً"[١]، وأحياناً يصفه المؤرخون بالهيبة، ففي سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م "وفي ربيع الآخر، ظهر بالسماء نجم غريب نادر له ذنب ممتد طويل روى بعد العشاء الآخرة، واستمر نحوا من عشر درج، وصار يتلاشى حتى ذهب، وكان له هيبة"[٢].

ومن بين الظواهر الطبيعية التى أثرت على مخيلة الناس "الرياح" إذ كان لها باعث على نفوسهم ، فإذا ما هبت الرياح يعتقد الكثيرون أن القيامة قد أوشكت أن تقوم، وهذا ما أورده ابن إياس قائلاً: "وفي حوادث سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م في شهر رجب هبت رياح عاصفة من جهة الغرب حتى أظلم الجو ظلمة شديدة، ومن قوة ما ثار من الرياح، قلعت عدة أشجار من الغيطان، وتساقطت أماكن كثيرة، من داخل القاهرة، واستمرت تلك الرياح ثائرة من إشراق الشمس إلى نصف الليل، حتى ظن الناس أن القيامة قد قامت، وصار يودع بعضهم بعضاً..." [٣].

كما كان لهبوب الرياح المريسية في عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م دور كبير في إقلاع عدد من الناس عن القيام بأفعال منكرة لاعتقادهم أن القيامة قد قامت، وهو ما أشار إليه عدد من المؤرخين بقولهم: "... ثارت ريح مريسية طوال النهار، فلما كان قبل الغروب بنحو ساعة، ظهر في السماء صفرة من قبل مغرب الشمس كست الجدران والأرض بالصفرة، ثم أظلم الجو حتى صار النهار مثل وقت العتمة، حتى كاد الإنسان يمد يده، فلا يكاد يراها من الظلمة، فاشتد فزع الناس ثم أخذ الظلام ينجلي شيئاً فشيئاً، وعقبه ريح عاصف كادت المباني منه تتساقط وتمادى طول ليلة الأربعاء، فرأى الناس أمراً مهولاً .... وفي عقيب هذه الرياح رأى بعض من يظن به الخير في منامه قائلاً يقول له: ما معناه: لولا شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل مصر؛ لأهلكت هذه الريح الناس"[٤].

---

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١ ، ص ١٥٣.

(٢) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٧ ، ص ١٠٢.

(٣) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٤، ص ٢٧٦ ، ٢٨٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٦٣٢.

(٤) المقريزي، السلوك ، جـ٤ ق٢ ، ص ٦٣٢؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٤، ص ١٢٧-١٢٨ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٣، ص٣٠١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٢٥٢.

وفى أحيان أخرى كانت هذه الرياح تبعث فى النفوس أن يتبعها قيام فتن وصراعات ففى سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م "عندما تسلطن الملك الظاهر بقمق، هبت ريح شديدة عاصفة حارة أثارت غباراً ملأ آفاق السماء، حتى كادت الشمس تختفى عن الأبصار... فتطير الناس من ذلك وزعم من عنده أثرة من علم أن هبوب هذه الرياح يؤذن بحدوث فتن..." [(١)]

وفى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ، أظلم الجو وأرعد وأبرق ومطرت السماء مطراً غزيراً ، وكان ذلك فى أول بؤونه من الشهور القبطية، فاستمر المطر ثلاثة أيام متوالية حتى عد ذلك من النوادر، وقامت عقيب ذلك رياح عاصفة واصفر الجو صفرة عظيمة، وقت المغرب، فتفاءل الناس بوقوع فتن فى الوجود..." [(٢)]، كما سادت خرافة بين الناس مبعثها ظهور أشياء غريبة، تظهر عقب الرياح، وهو ما أشار إليه ابن إياس بقوله "... وفيه ثارت رياح مزعجة حتى ارتاع الناس منها، فلما أصبح الناس اجتاز بعض الناس بالكيمان التى خلف المجرأة، فرأى فى الأرض أثر قدم إنسان، فكان طوله فوق الذراع، وقد أثر ذلك فى التراب الناعم وظهر فى عدة أماكن بين الكيمان، فأشيع ذلك بين الناس ولا يُعلم ما سبب ذلك"[(٣)].

ونود الإشارة إلى أنه عندما يظهر فى السماء نور أحمر "حمرة السماء" تخرج التأويلات الخرافية بأن القيامة كادت أن توشك ويودع الناس بعضهم بعضاً ففى سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م "وفى شهر جمادى الأولى ظهر بالسماء حمرة شديدة جداً، كأنها النار الموقدة، وصارت من خلال النجوم كالعمد النار حتى سد ذلك الأفق واستمر بطول الليل، حتى طلع الفجر فارتاع الناس من ذلك، واشتد خوفهم، وصار يودع بعضهم بعضاً وباتوا يستغفرون الله من ذنوبهم، واستمر الأمر على ذلك حتى طلع الفجر ولاح النهار..." [(٤)].

وأرجعت الذهنية الشعبية بعض الظواهر الطبيعية[(٥)]* إلى تفسيرات خرافية ،ويبرز ذلك فى حادثة الفئران التى هاجمت الزرع عندما تنبأ المقريزى بحادث عظيم نتيجة اقتتال الفئران مع

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٤ ، ص ١٠٩٠ .

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥ ، ص ٤٨.

(٣) ابن إياس، نفسه، جـ٣ ، ص ٣٠١.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص ١٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ، ص ١٠٠.

(٥) * ساد اعتقاد عام بين الناس أن الكوارث الطبيعية التى تحدث نتيجة ما ارتكبته نفوسهم من مفاسد، وظنوا أن الالتزام والاعتدال فى الحياة والتمسك بالفضائل ينجى الناس من هذا الغضب، ويجعلهم فى مأمن من الكوارث.

بعضها البعض، فيقول المقريزى: "وفيه ورد الخبر سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، بأن الفأر كثر بأراضى الزراعات، وأن فى ناحية البهنسى، كانت للفيران حرب شهدها الناس، وقد اجتمع من الفيران عدد عظيم، اقتتلوا قتالا كبيراً ثم تفرقوا فوجدوا فى معركتهم من الفيران شيء كثير ما بين مجروح ومقطوع... وعندى "يقصد المقريزى نفسه" أن هذا منذر بحادث ينتظر..." [1].

ظاهرتا كسوف الشمس وخسوف القمر[2]

ولقد أثرت ظاهرتا كسوف الشمس وخسوف القمر على تفكير الناس، فعندما تكسف الشمس يلهج الناس بوقوع الفتن والحوادث الكبرى، ففى سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، كسفت الشمس قبل العصر، فأخذا المنجمون يتفاءلون بوقوع حوادث كثيرة [3] كذلك فى سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م عندما كسفت الشمس توقع الناس حدوث فتن وخروج على السلطان وهو ما أورده عدد من المؤرخين بقولهم :"كسفت الشمس بعد نصف النهار وتغطى جداً من ثلثى جرمها وأصفرت الأرض حتى انجلت، وأرجف أهل النجامة بخروج أهل الشام والصعيد عن طاعة السلطان[4].

وإذا انتقلنا إلى ظاهرة خسوف القمر، فقد كثرة الخرافات والخزعبلات حول هذه الظاهرة، فإذا ما خسف جرم القمر ظهرت الخزعبلات بزوال مُلك السلطان، وربما أرجع الناس أن خسوف القمر يدل على الأفول، وهو ما جعلهم يلهجون بزوال مُلك السلطان لأفول نجمة، وكثرت فى العصر المملوكى الحوادث الخاصة بخسوف القمر نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر[5]، وفى سنة ٨٦٥هـ خسف القمر كله واسود جرمه وأظلم الجو جداً وكان من نوادر الخسوفات، وأخذ الناس يلهجون بزوال

---

(١) المقريزى، السلوك ، جـ ٤ ق٣ ، ص ١١٤٠.

(٢) الخسوف والكسوف، ظواهر طبيعية تحدث نتيجة وقوع ظل الأرض على القمر أو القمر على الشمس، وهو ما يعرف بكسوف الشمس وخسوف القمر، محمد الجوهرى، موسوعة التراث الشعبى العربى، المعتقدات والمعارف، المجلد الخامس، ص ٢٣٨.

(٣) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٣ ، ص ٣٢

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص ١٠٩٠؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٥ ، ص ٥٦ ؛ ابن الصيرفى ، نزهة النفوس، إبن إياس بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٠١

(٥) ذكرت المصادر المملوكية أكثر من حادثة، ففى سنة ٨٠١ هـ وفيه خسف جُرم القمر، وتفاءل الناس بزوال السلطان الظاهر برقوق فكان كذلك، كذلك فى سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م وفيه خسف جرم القمر، بحيث لم يبق إلا اليسير، وكان ذلك فى الثلث الأخير من الليل وأخذ الناس يشيعون على عاداتهم بزوال السلطان الأشرف برسباى، وقبل ذلك بعام أى سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢٠م وفيه خسف جرم القمر، وتفاءل الناس بزوال سلطنة المظفر بن المؤيد شيخ، عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٣ ، ص ٢٠ ، جـ١ ق٤، ص ٨٢، ١٠٧ ؛ إبن إياس جـ١ ق٢ ، ص ٥٢١، جـ٣، ص ٢٣٨.

السلطان "المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال[١]. كذلك فى سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م خسف جميع جرم القمر، وأخذ أرباب التنجيم والتقويم يشيعون بأن ذلك إذن بزوال السلطان الأشرف قايتباى حتى صرح بعض الكذابين منهم بأنه فى سادس رجب لا يبقى له وجود فى الدنيا وظهر كذب الكل ،حيث بقى بعدها عدة سنين تزيد على العشرين سنة[٢] .

وأيضاً فى سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م وفيه خسف جرم القمر وأظلم الجو ودام الكسوف نحوا من خمسين درجة، فلهج الناس بأن زوال السلطان قد قرب وما كان شيئاً مما لهجوا به، وأقام السلطان بعد ذلك مدة طويلة[٣].

ويتضح مما سبق أن معظم هذه الروايات قد كتبت بأثر رجعى، ومعظم هذه الروايات لم تصدق، وهو ما دفع عبد الباسط بن خليل منشداً بقوله

لا تفعل الشمس شيئاً لا ولا القمر وعن خسوفهما لا يصدر الأثر[٤]

علاوة على ذلك ساد اعتقاد بين الناس أن ظهور الخسوف قبيل المعارك دليل على الهزيمة، ففى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م "وفى ليلة الاثنين رابع عشرة ابرز القمر ، ثم لما توسط فى السماء ابتدأ فى الخسوف إلى أن خسف جميعه ثم استمر نحو ساعتين وانجلى، وفى هذا اليوم زعم بعض المنجمين أن السلطان مغلوب مع ملك الروم[٥] وأحياناً كان يعتقد الناس بأن هذا الخسوف يعقبه قيام فتن وقلاقل داخلية، ففى سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م، صلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين يلبغا اليحياوى بجامع تنكز ظاهر دمشق وخرج الجند والأمراء فى آخر النهار وانزعج الناس واتفق طلوع القمر خاسفاً..." [٦]. كما حدث أيضاً فى سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م وفيه خسف جرم القمر وأظلم الجو ، واستمر على ذلك إلى قريب طلوع الفجر وفيه قويت بين الناس الإشاعات ، بوقوع فتنة من الظاهرية، وقد مالوا إلى جانب جانى بك نائب جدة، ثم هدأت الفتنة[٧].

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ١٦ ، ص ٢٣١ ، عبد الباسط بن خليل ، نيل الأمل، جـ٢ ق٦، ص١١٠، الروض الباسم، جـ٢، ص٣٤ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور جـ٢، ص ٧٦.

(٢) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٧ ص ٢٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص ٢٣٨

(٤) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل ، جـ٢ ق٨، ص٥٩ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص ٢٣٨

(٥) ابن طولون ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، ص ٣٣٢.

(٦) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص ١٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ، ص ١٠٠

(٧) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١، ص ١٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ، ص ١٠٠

أضف إلى ذلك، سرت في المجتمع عادات خرافية أثناء الكسوف والخسوف، وهي الأواني النحاسية وقت الكسوف والخسوف معتقدين أن الجن خنقت القمر أو الشمس وعليهم أن يفعلوا ذلك لإبعاد الجن، وهو ما يدلل عليه ابن الصيرفي بقوله "وفي يوم الخميس في شهر جمادى الآخرة في سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م، خسف جرم جميع القمر من بعد عشاء الآخرة بأربعين درجة... وعملوا النسوة عاداتهم القبيحة[١]* من ضربهم على الأواني النحاسية وهي محمر جميعه"[٢].

الخرافات المتعلقة بالعمران:

علي الرغم من أن مصر في العصر المملوكي قد حظيت بعمائر قل أن تتجمع في وطن واحد وأخذت تتطور عبر السنين والعصور في سلسلة مرتبطة مكونة حلقة فريدة من التنوع والتشكيل، إلا أن بعض هذه العمائر قد ارتبطت به بعض الخرافات ،حيث ارتبطت بجامع عمرو بن العاص خرافة غريبة مفادها "أنه يوجد أمام المدخل القبلي عمودان من الرخام منصوبان جنباً إلى جنب، ويزعم الناس أن من كان نجساً أو عاصياً لا يستطيع المرور بينهما، وإن كان طاهراً أو بريئاً مر، فمن الناس من هو بدين ضخم ويمر كالبرق، ومنهم من هو ضعيف نحيل ولا يقدر على المرور، ويحكى أن شاطراً "لصاً" ممتازاً من شطار أحد الأمراء دخل بينهما بقصد المرور فعجز عنه فاجتمع الحاضرون وأمسكوه من يديه بصخب، وحلبوه وأرجعوه القهقرى ، وما إن خرج من المسجد حتى أسلم روحه لسبب مجهول، أهو الخجل أم أمر أخر ، وغسل الرجل في غمضة عين، وحضر على جنازته ألوف من الناس[٣].

ومن جانب آخر فقد حيكت أيضاً حول "جامع الأزهر" "خزعبلات" فيقول ابن عبد الظاهر: "إن بهذا الجامع طلسما فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به، وليس هو مخصوص بالعصافير فقط، بل هو لسائر الطيور ليس يبيت به شيء من الحمام ولا اليمام ولا العصافير ولا غيرها ولا يفرخون

---

(١) وهذه العادات هي عادات قديمة ولازالت سارية حتى الآن في مجتمعنا، فقد اعتاد القرويون في مصر أن يهللوا ويبتهجوا عند خسوف القمر، وهم يقرعون الطبول والصفائح المعدنية الفارغة ويحدثون بها دوياً شديداً ويقولون "إحنا عبيدك يارب، يا أولاد الحور سيبوا القمر ينور" ويحدث أحياناً أن يصوب الرجال بنادقهم نحو القمر ويطلقونها ويعتقدون بذلك أنهم يخيفون العدد الذى يحاول الاعتداء على القمر، للمزيد انظر وليم نظير، العادات المصرية بين الأمس واليوم، ص ٢١.

(٢) ابن الصيرفي، إنباء الهصر، ص ٣٦٦.

(٣) أولياجلبي، سياحتنامة، ص ٢٦٩- ٢٧٠ ؛ إبراهيم كامل أحمد، النبش في ركام الخرافة مجلة الفنون الإسلامية عدد ٦٢/٦٣، ص ١٥٣؛ عمرو منير، الأساطير، ص ١٥٣.

به" [١]، ويؤكد تلك الخرافة المقريزى بقوله "وأما أمر الطلسم الذى به فإنه صحيح وهو باق مستمر العمل به إلى وقتنا هذا وهو سنة ثمان وتسعين وسبع مائة"[٢]، وأيضاً ارتبطت بمدرسة ومسجد السلطان حسن[٣] خرافة غريبة مؤداها :أن السلطان لما حضر أساس هذه المدرسة وجد فى الأرض مالاً مدفوناً فصرفه على عمارة هذه المدرسة فعمرت... وقيل: لما حضروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب، قيل كان البحر هناك[٤].

أضف إلى ذلك، فقد راجت عدد من الخرافات حول آثار مصر القديمة، نذكر على سبيل المثال: "أبى الهول" فقد شاعت خرافة بين الناس أن لأبى الهول مقدرة على إزاحة الرمل عن بر مصر الغربى الذى يعرف ببر الجيزة ؛لذلك لم يتعرض له أحد بسوء وظلت هذه الخرافة سارية ردحاً من الزمان إلى أن قام شخص من صوفية الخانقاة الصلاحية سعيد السعداء "يعرف بالشيخ "صائم الدهر" وذلك سنة بضع وثمانين وسبع مائة فشوه وجه أبى الهول وصار كما هو عليه الآن[٥] وما برحت بعد ذلك "يقصد المقريزى نفسه" أسمع أهل بلاد الجيزة يقولون إنه منذ أفسد وجه أبى الهول غلب الرمل على أراضى الجيزة ولا ينكر ذلك فلعله فى خليقته أسرار يطلع عليها من يشاء من عباده[٦] كما اعتقد المصريون أن الشمس إذا كانت فى برج الحمل وتوجه أحدهم إلى أبى الهول وردد أمامه ثلاثا وستين مرة كلمات مخصوصة يقول معها: يا أبا الهول افعل كذا افعل كذا ، فإنه يجيبهم ويقع ما يرددون[٧].

(١) ابن عبد الظاهر ، الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، الدار العربية للكتاب القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص ٨٥ ، عمرو منير ، مصر والعمران ، ص٢٩٧

(٢) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الأول، ص ٩٣

(٣) ابتدأ السلطان عمارة هذا المسجد سنة ٧٥٧هـ ، للمزيد انظر المقريزى المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الأول، ص ٢٧٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، ص ٨٠ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ، ص ٢٠٤ ؛ عمرو منير، مصر والعمران، ص ٢٩٨.

(٥) كثرة الأقاويل حول تشويه وجه أبي الهول، إن كنت أرجح أن الذي فعل فيه ذلك هو صائم الدهر، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا التمثال كان مغطي بالرمال في معظم العصور وخاصة في العصور الوسطى، فلم يكن يظهر منه سوى الرأس فقط وكان من السهل علي صائم الدهر ان يفعل ذلك، اضف إلي ذلك أن إرتفاعه يبلغ ٢٢ مترا وطوله ٥٧ مترا للمزيد أنظر عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وأثارها القاهرة، ١٩٨٠، ص٣٥٣.

(٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الثالث ، ص ٥٦٧.

(٧) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٨ ، ص٦٠ ؛ أحمد محمود محمد إبراهيم، الدور السياسى والحضارى للصوفية فى مصر زمن سلاطين المماليك، رسالة ماجستير جامعة القاهرة،٢٠٠٦ ،جـ٢، ص ٤٧٦.

وإذا ما انتقلنا إلى الجبال نجد "جبل المقطم"[١] فى مقدمة الجبال التى أحيطت بسياج من الخرافات، يشير ابن ظهيرة "وفيه من الخاصية العجيبة التى لا توجد فى غيره وهى حفظ أجساد الموتى بحيث لا تكاد تبلى إلا بعد دهر طويل..." [٢]، كما ذهب الخيال الشعبى على أوسع مداركه بقوله: "إن الذين يدفنون تحت جبل المقطم يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب يوم البعث والنشور"[٣].

علاوة على ذلك ، كثرت الخرافات والخزعبلات بهذا الجبل ، وسرت خرافة مؤداها : "إذا مرض أحد بمصر مرضاً شديداً ونام سبعة أيام فى ظل جبل المقطم يشفى بإذن الله..." [٤]، وليس هذا فحسب، بل سرى اعتقاد بأن حصى هذا الجبل يستخدم فى علاج رمد "العين" ومن شدة اعتقادهم أفنوا منه شيئاً كثيراً؛ وذلك على حد قول ابن الصيرفى: "ففى سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م وقع من الأمور العظيمة أن امرأة بها رمد فى عينيها عجز الأطباء فى دواها وأيسوا منها وصارت مكسورة الخاطر لما حقق عندها من قول الأطباء، فرأت النبى صلى الله عليه وسلم فى منامها وهى فى حالة المتخضعة لشرفه وكأنها تشكو إليه ما بها من الرمد، وأنه أمرها أن تمضى إلى سفح جبل المقطم، وتأخذ من الحصى هناك وتكتحل به بعد سحقه فعملت ذلك فزال ما فى عينيها من الرمد، فاجتمع أهل مصر والقاهرة إلى أخذ ذلك الحصى حتى أفنوا منه شيئاً كثيراً واستمروا على هذا زمناً مديداً وذكروا أن خلقاً حصل لهم الشفاء به..." [٥].

---

(١) المقطم بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها ومأخوذ من القطم وهو القطع وهو أنه لما كان منقطع الشجر والنبات سمى بذلك مقطماً ويقال إن مصرايم ملك مصر أراد استخراج معدن الذهب والزبرجد والفيروز وغير ذلك من المعادن الموجودة بمصر بطريقة الصنعة أى بطريقة الكيمياء فجعل أمرها إلى رجل يقال له مقيطام الحكيم وكان يعمل الكيمياء فى الجبل فقيل له جبل المقطم، المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، المجلد الأول ، ص ٣٣٥- ٣٣٦؛ ابن عفان موفق الدين محمد ت ٦١٥هـ، مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المسمى الدر المنظم فى زيارة الجبل المقطم، تحقيق محمد فتحى أبو بكر، الطبعة الأولى الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٩٩٥م ص٥؛ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ٢٠١٤م ، جـ١، ص ٤٨، ٥٤.

(٢) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة ، ص ١٩١ ؛ عمرو منير، الاساطير، ص٢٠٥ .

(٣) أوليا جلبى، سياحتنامة ، ص ٦٦.

(٤) أوليا جلبى ، نفسه ، ص ٦٦.

(٥) ابن الصيرفى، إنباء الهصر، ص ٣٦٦؛نزهة النفوس ،ج١،ص٣٩١، ٣٩٠.

وثمة أمر آخر مهم ، وهو أن الذهنية الشعبية أوجدت علاقة بين الزلازل وبين "جبل قاف" ، فخرج علينا النويرى بخرافة نصها: "أن سبب الزلازل والخسف والرجم الذى حدث فى سنة خمس وسبعين ... قيل إن أصلها جبل قاف له عروق تجرى منها المياه فى البحور من البياض والسواد والحمرة والصفرة والعذب والمالح والزعاق، فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أوحى إلى ذلك الجبل أن حرك منك عرق كذا وكذا ، فإذا حرك خسف الله بالقرية مع ما يرسل إليه من الملائكة..." [١].

كذلك "جبل الطاهرة" وهو بأرض مصر وبهذا الجبل كنيسة فيها حوض يجرى فيه من الجبل ماء عذب ، يجتمع فى ذلك الحوض، فإذا امتلأ من جميع جوانبه ترده الناس، لكن شاعت خرافة مؤادها أنه إذا ورد الحوض رجل على جنابة أو إمرأة حائض وقف الماء وانقطع جريانه ولا يجرى حتى ينزح جميع ما فيه من الماء ويغسل الحوض غسلاً بالغاً فيجرى[٢] ، كما نسجت حول جبل "طور سيناء" خرافة غريبة وهى أن هذا الجبل إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها صورة شجرة العوسج على الدوام[٣]، وأيضاً سادت خرافة مبعثها أن هناك حجراً مطلسماً بجامع مدينة آسخا عليه طلسم بقلم الطير، إذا أخرج تلك الحجر من الجامع دخله العصافير، إذا دخل إليه خرجت العصافير[٤].

كما أن على باب مدينة "أبسوج" حجر به صورة فأرة، وسرى اعتقاد بين الناس أن يقوموا "بأخذ طين النيل ويطبعونه على صورة الفأرة التى فى الحجر ويحملونه إلى بيوتهم فتهرب الفأرة عن بيوتهم[٥] ، ويشير أيضاً ابن إياس بقوله إن هناك حجراً بالفيوم إذا أمسكه الإنسان بكلتا يديه تقيأ كل شىء أكله فى بطنه ، وكان خرزه؛ إذا جعلتها المرأة على حقوها فلا تحبل[٦].

---

(١) النويرى، الإلمام أو مرآة العجائب ، تحقيق اتيين كونب، عزيز سوريال عطية، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ١٩٧٠م المجلد الثانى، جـ٤ ، ص ١٢٥.

(٢) ابن الوردى، خريدة العجائب، ص١٦٠؛ القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٣م ، جـ٢ ، ص٢٧١.

(٣) ابن الوردى، نفسه، ص١٦٠.

(٤) ابن الوردى، خريدة العجائب، ص١٦٠؛ القزوينى، آثار البلاد ، جـ١ ، ص ٢٠٢.

(٥) القزوينى، آثار البلاد ، جـ١ ، ص ١٣٨ .

(٦) ابن إياس، نزهة الأمم فى العجائب والحكم، تحقيق محمد زينهم، مكتبة مدبولى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٥، ص ٤٥.

الخرافة المرتبطة بنهر النيل[١]

على الرغم من شدة حب المصريين لنهر النيل[٢] إلا أنهم كانوا يحذرونه ويخشون أن يهبط عن حد الوفاء [٣]، أو يزيد عن المنسوب العادى للفيضان، لذلك حاول المصريون أن يسبقوا الحوادث ويتنبأوا بما سيكون عليه الفيضان قبل حلوله، واعتمدوا فى ذلك على الظواهر الفلكية وغيرها لمعرفة ما سيكون عليه الفيضان، فقد ربط "المنوفى" فيضان النيل بحركة الشمس والقمر، فيقول : إذا أردت أن تعرف زيادة النيل ونقصانه في أي سنة شئت ، فتغير ذلك بالقمر عند نزول الشمس برج الحمل، فإذا كان القمر فى برج الحمل أو الأسد أو القوس فهذه بروج نارية تدل على قلة الماء ونقصانه ، وإن كان القمر فى برج الثور أو السنبلة أو الجدى فهذه بروج ترابية يكون النيل وسطاً، وإن كان القمر فى برج السرطان أو العقرب أو الحوت فهذه بروج مائية يكون النيل كثير الرى ويخشى على الأرض من الاستبحار لكثرة الماء، وإن كان القمر فى برج الجوزاء أو الميزان أو الدلو فهي بروج هوائية يكون النيل فيها كثير المنافع[٤].

كما شاعت خرافة بين الناس مفادها أنه يوجد جبل بالقرب من منية ابن خصيب[٥]، تجتمع

(١) لا يتسع المجال لذكر وصف تفصيلى لنهر النيل ، فهناك دراسات سابقة أكثر شمولاً... للمزيد ، انظر قاسم عبده قاسم، نهر النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠١٢م ، هشام عبد العزيز ، فولكلور النيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١١م انظر لأقوال المرتبطة بنهر النيل واحتفالاته في الرحلة الأوروبية على سبيل المثال
piloti ,L ,Egypte au commencement du qunziems siècle d ,après le trait d ,Emmenuel
piloti de cret incipt ,1420 ed Dopp ,Le Caire .1950 ,P..19-21

(٢) من الجدير بالذكر أن المصريين كانوا يعبدون النهر باعتباره إلها للخير ، ويطلقون عليه اسم "حابى" "Hapi" وفى بعض الأحيان يسمى البحر والنهر العظيم، كما كانوا يطلقون على فروع النيل فى الدلتا أسماء مختلفة مثل مياه بتاج أو مياه آمون أو النهر الغربى، أبو اليسر فرح، النيل فى المصادر الأغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٢م، ص ٦٠

(٣) وكما هو معروف أن فيضانات النيل أقسام ثلاثة وهى متقاصرة: وهى ستة عشر ذراعاً، ومتوسطة وهى سبعة عشر زراعاً فما حولها، عالية وهى ما فوق الثمانية عشر وربما زادت إلى العشرين، القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م الطبعة الثالثة، جـ٣، ص ٢٩٦، قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ٣٠

(٤) المنوفى ، الفيض المدير فى أخبار النيل السعيد، ص١٧؛ قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص١٦

(٥) يقع هذا الجبل فى الجانب الشرقى من منية ابن خصيب، ويقصد بها مدينة المنيا الحالية، الهروى، رحلة الهروى، دار الكتب م٣ ميكروفيلم ٧٤٧٤ ورقة ١٩

إليه الطيور فى كل عام وفى رأس هذا الجبل ثقب صغير يدخل كل طير منقاره فى ذلك الثقب ولا يزال الطير كذلك إلى أن يقبض ذلك الثقب على طير منها، فيبقى معلقاً بمنقاره إلى أن يموت، ثم ربطوا بين عدد الطيور المقبوض عليها فى الثقب ومدى زيادة النيل، فإذا كانت السنة جيدة قبض الجبل على طائرين، وإذا كانت متوسطة قبض على واحد، وإذا كانت قليلة الخير لا يقبض على شيء [1].

أضف إلى ذلك ما أشار إليه المقريزى، بأن الناس كانوا يستطيعون التكهن على مقدار الزيادة فى السنة من طين معلوم الوزن ينجمونه فى ليلة معروفة يزنونه، فإذا زاد فيحكمون من مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل فيقول المقريزى: "ومما اشتهر عند أهل مصر وجربته أيضاً فصح أن يؤخذ قبل عيد ميكائيل بيوم فى وقت الظهر من الطين الذى مر عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهما، وترفع فى إناء مغطى إلى بكرة يوم عيد ميكائيل وتوزن، فما زاد على وزنها من الخراريب، كان مبلغ النيل فى تلك السنة بقدر عدد تلك الخراريب لكل خروبة ذراع ومع ذلك ، فلابد من أخذ شيء من دقيق القمح وعجنه بماء النيل فى إناء فخار، وقد عمل من طين مر عليه النيل، وتركه مغطى طول ليلة عيد ميكائيل فإذا وجد بكرة يوم العيد قد أختمر بنفسه كان النيل تاماً وافياً وإن وجد لم يختمر دل على قصور هذا النيل، ثم ينظرون مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل إلى الهواء، فإن هبت طياباً فهو نيل كبير وإن هبت غير طياب فهو نيل مقصر، وإن هبت مريسيا فإنه يكون غير كاف"[2].

وعلى أية حال، ساد اعتقاد بين الناس بأن ليلة السابع عشر من يونيو التى توافق الحادى عشر من بؤونة "ليلة النقطة" وهو أن نقطة عجيبة تسقط حينئذ فى النيل وتسبب ارتفاعه، ويحسب الفلكيون الوقت المضبوط لسقوط النقطة ويكون دائماً فى غضون الليلة السابق ذكرها، ويمضى كثير من سكان القاهرة وضواحيها ومن جهات أخرى بمصر هذه الليلة على ضفاف النيل وتتبع النساء عادة غريبة فى ليلة النقطة فيضعون فوق سطح المنزل بعد الغروب عجيناً بقدر عدد سكان المنزل فيعلم كل منهم قرصه، وفى فجر اليوم التالى ينظرون إلى الأقراص فيستدلون من

---

(١) خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، المطبعة الجمهورية باريس ١٨٩٤م، ص ٣٧؛ القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٢٨٨.

(٢) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول ، ص ١٨٠ ؛ عبد اللطيف البغدادى، رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر، أو كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الهيئة المصرية لكتاب القاهرة ١٩٩٨م ، ص١٢٨.

تشقق أحدها على أن صاحبه تطول حياته أو لا تنقضى ذلك العام، ويستنتج العكس إن لم يكن القرص مشققاً ويقول البعض: إن هذه العادة تراعى أيضاً لمعرفة ما إذا كان النيل يرتفع فى الموسم التالى[١]، وأيضاً اشتهرت كنيسة بالقدس بوجود قنديل كبير يمكن من خلاله التنبؤ بحال النيل يقول العينى: "يوجد فى كنيسة القيامة التى بالقدس الشريف فى وسطها قنديل كبير... وفى كل سنة يوم معلوم عندهم يجتمع إليه النصارى من سائر الأجناس، ولا يوقد ذلك القنديل فى كل سنة إلا فى ذلك اليوم، ولا يظهر نوره إلا فى الرابعة من ذلك اليوم، ومتى أبطأ فى ذلك اليوم يقولون أن نيل مصر فى هذه السنة شحيح"[٢].

ولا يقتصر التنبؤ على حال النيل فحسب ، بل إن المصريين كثيراً ما كانوا يتنبئون بحال مصر كلها، عن طريق ظاهرة النيل حيث ربط بعضهم بين اليوم الذى تنزل فيه النقطة المعجزة فى عيد الملاك "ميخائيل" وحوادث العام القادم كله، فإذا نزلت النقطة يوم الأحد يكون النيل متوسطا فى طلوعه ، ويخرج زرعاً جيداً ، ويغزر الزرع وتكثر بركته، وتكثر الامطار فى الجبال ويكون صيفها قليل المطر وخريفها أكثر من شتائها ويقع الموت فى الغنم ومن ولد فى هذه السنة يعيش ويفرح به أهله، بينما إذا نزلت النقطة ليلة الاثنين فيكون النيل مباركاً لطلوعه ويحسن الزرع وتغلو الأسعار فى شهر كيهك ، وليس على مصر خوف فى هذه السنة... ويقع الموت فى أشراف الناس والرؤساء والأكابر وإذا نزلت النقطة ليلة الثلاثاء فإن النيل يجرى بلا توقف ويكون وسطاً ، وينزل الله تعالى فى تلك السنة الرعب فى قلوب أهل المشرق وتقع بينهم حروب كثيرة[٣].

أما إذا نزلت النقطة ليلة الأربعاء، فإن النيل يكون متوسطاً وتكثر فى هذه السنة الأمراض فى الناس والدواب، ويكثر اللصوص والمفسدون، ويقع قتال بين الناس وبين الملوك، وإذا نزلت النقطة يوم الخميس يكون النيل جيداً ، ويحصل العدل فى السلطان ويرتفع الظلم وتستقيم الأمور، وإذا نزلت النقطة يوم الجمعة يكون النيل مباركاً، ولا يغلو شىء ويكثر الصيد وتربح التجارة ولا تظهر فى الأرض عاهة لا من حريق نار، وترخص الحنطة ، وتحدث فى مصر بعض الفتن لكنها لا تضر أحداً، أما إذا نزلت النقطة يوم السبت فيكون النيل فى تلك السنة ثلاثة وعشرين ذراعاً تقريباً، وربما تغرق زراعات تلك السنة من شدة زيادة النيل ونقصانه، ويقع الفناء فى الناس ويموت كثير

---

(١) وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، جـ٢ ، ص ١٦٣

(٢) العينى، عقد الجمان ، جـ٤ ، ص ٢٦٩

(٣) مؤلف مجهول، ذكر ما جاء فى النوروز ، تحقيق عبد السلام هارون، سلسلة الزخائر القاهرة ٢٠٠١م ، جـ٢، ص ٥٥ ؛عمرو منير، الأساطير ، ص ٢٣٦

من المشايخ والعلماء وأرباب الدين والصلاح، ويجور السلطان ويقع بأرض مصر قتال شديد[١].

علاوة على ما تقدم، فقد سرت خرافة جديرة بالذكر والملاحظة، أوردها المقريزى نصها : "اشتهر الناصر محمد بن قلاوون فى حياته بديار مصر إن وقعت قطرة من دمه على الأرض لا يطلع نيل مصر مدة سبع سنين، فمتعه الله بالسعادة العظيمة فى المدة الطويلة، مع كثرة الطمأنينة...."[٢].

ويتضح من هذه الرواية أن الناصر محمد بن قلاوون استطاع أن يحيط نفسه وحكمه بسياج دينى، خاصة فى عصر كثرت فيه الاغتيالات والانقلابات السياسية ترسيخاً لمبدأ "الحكم لمن غلب" وربما يكون السلطان نفسه هو مروج لهذه الخرافة مستغلاً شيوع الخرافة والشعوذة فى المجتمع، كما أننا لا نستطيع القول بأن لهذه الخرافة دور فى أن يظل السلطان الناصر محمد بن قلاوون قابعاً على سدة العرش أكثر من أربعين سنة[٣].

وعلى أية حال، عندما كان يحدث انخفاض فى منسوب النيل يلجأ الناس إلى الأولياء ويسألونهم أن يدعوا الله تعالى أن يفى النيل، ففى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م لجأ الناس إلى الشيخ الصالح سيدى محمد وفا، وليسألوه أن يدعوا الله بأن يفى النيل وأن يمن عليهم بالزيادة عن قريب ، فدخل إلى خلوته، وخرج إلى الناس فى اليوم التالى وهو يقول وفا وفا ، فلذلك سمى سيدى محمد الوفا؛ ثم إن ولده سيدى على "رحمة الله عليه"، نظم هذا الموشح الذى مطلعه

اسـق العطـاش تكرمـــا   فالعقل طاش من الظما

وخرج إلى الناس وهو يترنم بذلك الموشح، فأوفى النيل[٤] كما ساد اعتقاد بين الناس أنهم لو وضعوا في أفواههم شيئاً من الماء ،ثم يمجونه في إناء ويصبونه في فسقية المقياس سوف يزداد النيل ،وقد أشار بذلك الشيخ أمين الاقصرائي عندما بعث إليه السلطان يستفتيه في أمر النيل عندما توقف عن الزيادة في عام ٨٦٦ه/ ١٤٦١م[٥]

---

(١) مؤلف مجهول، ذكر ما جاء فى النوروز ، ص ٥٦؛ هشام عبد العزيز ، فولكلور النيل، ص٩٤

(٢) المقريزى ، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع، القسم الأول، ص ٢١٣

(٣) تولى الحكم للمرة الأولى من سنة ٦٩٣- ٦٩٤هـ والمرة الثانية من سنة ٦٩٨-٧٠٨هـ والمرة الثالثة ٧٠٩-٧٤١هـ ، زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، جـ١، ص ١٦٢.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ، ص٦ .

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٩٥ .

وكما كان طبيعياً وفقاً لمفاهيم العصر السائدة أن تنتشر إشاعات عن رؤى وأحلام خاصة بفيضان النيل، ففى سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، قيل إن امرأة صالحة رأت فى المنام أن ملكين نزلا من السماء وتوجها إلى البحر فرفسه أحدهما برجله فإنه هبط سريعاً، ثم قال أحدهما إلى الآخر أن الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد إلى عشرين زراعاً، فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو فى ثمانية عشر ذراعاً، فلما انتهيت من المنام انهبط النيل فى تلك الليلة دفعة واحدة[1].

أما فيما يتعلق بالأسماك والحيوانات المائية التى تواجدت فى نهر النيل، كان لها دور بارز فى المعتقد الشعبى والتى صبغت صورتها مزجاً بين النموذج المألوف والخيال الأسطورى، ومن هذه الحيوانات المائية التمساح[2]، وهو حيوان معروف ويكون فى الأنهار الكبيرة نهر النيل- نهر مهران[3]، وقد سيطرت على المجتمع المصرى خرافة مفادها "أن هناك اعتقاداً أنه إذا طيف بجلد التمساح حول قرية، ثم علق على سطح ودهليز لم يقع البرد فى تلك القرية[4]، كما اعتقدوا أنه إذا عض التمساح إنساناً ووضع على العضة شيئاً من شحمه برأ من ساعته، وإذا لطخت بشحمه جبهة كبش نطاح نفر منه كل كبش يناطحه ويهرب منه، وإذا تبخر بكبده المجنون برىء[5].

أضف إلى ذلك، ما أشار إليه الرحالة "جون انتيس" بقوله "والتماسيح شائعة جداً فى مصر، لكنها قلما تصل شمالاً أبعد من القاهرة ولا تتعداها ، ويدعى الأهالى أنه بفضل مقياس النيل لا يمكن لها أن تتوغل شمالاً لأنه مزود بتعويذة تمنع تسللها أبعد من هذا الحد"[6].

كما أن هناك لسمكة اسمها "الرعادة" تصيب من يلمسها بالرعشة، ولذا يعمد الصيادون

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ ؛ قاسم عبده قاسم ، النيل، ص ٧٥

(٢) كان المصريون القدماء يخشون خطر التمساح وأذاه، فقد تقربوا إليه بالزلفى والقربان وأقاموا المعابد تكريماً له، وكانوا يقدسونه باسم "السبك" ويعتقدون أن التمساح يستطيع بقوته أن يطرد عنهم الأرواح الشريرة وقد بقى هذا الاعتقاد سائداً حتى الآن ويتمثل ذلك فى موميات التماسيح التى ترى معلقة على أبواب بعض المنازل والحوانيت تيمناً بها ، وليم نظير، العادات المصرية، ص ٤١

(٣) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ١١٦

(٤) المقريزى المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ١٧٨

(٥) المقريزى المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ١٧٨ ؛ ابن إياس ، نزهة الأمم فى العجائب والحكم، تحقيق محمد زينهم، مكتبة مدبولى القاهرة الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص ١١٠

(٦) جون انتيس، مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ١٧٧١- ١٧٨٢ ترجمة سيد الناصرى، المشروع القومى للترجمة القاهرة ١٩٩٧م، ص١١٠ ؛عمرو منير، مصر والعمران، ص ٣٠٦

إلى إخراجها من شباكهم فور اصطيادها، ومن بين الخرافات المرتبطة بهذه السمكة: "إذا علقت المرأة شيئاً من الرعاد لم يطق زوجها البعد عنها، وكذلك إن علق منه الرجل عليه لم تكد المرأة أن تفارقه[١]، وأشار المؤرخون إلي ما أحاط "فرس النهر" من خرافات وزعموا أن هناك سمكة تعيش في نهر النيل وهي شبيهة بإنسان ذي لحية طويلة، وأطلقوا على تلك السمكة المزعومة "شيخ البحر" واعتقدوا أنها سمكة مشئومة إذا ظهرت في مكان أعقب ظهورها القحط والموت والفتن.... وقيل إن دمياط ما تنكب حتى يظهر عندها...." [٢]، أيضاً من بين الكائنات المائية الموجودة في النيل "السقنفور"[٣]، وساد بين الناس اعتقاد أن شحم السقنفور ينفع للجماع، والسقنفور يعض الإنسان ويطلب الماء فإن وجده دخل فيه وإن لم يجده بال و تمرغ في بوله، فإذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته وسلم السقنفور، فإنه اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنفور الماء وتمرغ في بوله، مات السقنفور لوقته وسلم المعضوض[٤]، كذلك يضيف الرحالة عبد اللطيف البغدادي خرافة علقت في أذهان الناس بأن من أكل "سمكة السرب" يحدث لأكلها أحلام ردية مفزعة، ولاسيما الغريب ومن لم يعتدها والاحدوثات المضحكة فيها مشهورة[٥].

وأورد عبد الباسط بن خليل حكاية غريبة عن "سمكة عجيبة" نصها "وفي سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م وهي أن شخصاً من أهل الصليبة يقال له قلقاس اشترى سمكة كبيرة وبعثها إلى داره، وحين أرادت زوجته تقطيعها بالسكين تحركت برأسها ورأت المرأة بعينها شراراً، فارتعبت من ذلك،

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص١٧٣، السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٥٦، ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ١٦٨؛ ابن العماد الأقفهسي، أخبار نيل مصر، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى، نعمان عباس محمد، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة الطبعة الثانية ٢٠١٤م، ص٥٥؛ أبو الفتح الصوفي، الصفوة في وصف المملكة المصرية، تحقيق هبه محمد ياسين رسالة ماجستير، جامعة النجاح نزهة الأمم، ص ١٠٨ ؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص ١١٦

(٢) ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين دار الكتب والوثائق القومية القاهرة الطبعة الثانية ٢٠١٠م، جـ١، ص ٢٥٣- ٢٥٤؛ المقريزي، السلوك، جـ١ ق٣، ص٩٢٩؛ المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ١٧٧، السيوطي، كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة، تحقيق محمد الششتاوي، دار الافاق العربية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص ١٤٥، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٥٦؛ قاسم عبد قاسم، النيل، ص١١٧

(٣) وهو صنف يتوالد من السمك والتمساح، فلا يشاكل السمك لأنه له يدين ورجلين ولا يشاكل التمساح لأن ذنبه أجرد أملس عريض غير مضرس، للمزيد انظر، المقريزي، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص١٧٥

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ١٧٥، السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٥٦؛ اوليا جلبي، سياختنامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠٠٩م، ص ٤٤٤.

(٥) عبد اللطيف البغدادي، رحلة عبد اللطيف البغدادي، ص ٨٨

فقالت هى لخادمها: إنها لم تمت إلى الآن، وأخذتها فتولت هى تقطيعها، وجعلتها فى دست، وغلت عليها فلم تنضج لحمها، فأخذت المرأة قطعة من أسافل الدست لترى هل نضجت أم لا، وإذا بلطمة من الهواء أصابت خدها، فصاحت من ذلك ثم أنزلت الدست فى أواخر النهار، فلم تجد به شيئاً من السمك أصلاً ووجدت به قطعتين من العظم أحدهما يشبه الحنك وفيها عدة أسنان وعدة أضراس أقرب الشبه بأسنان الإنسان وحنكه والقطعة الأخرى تُشبه عظم الضلع ولا شبيه لهما بعظم السمك أصلاً وقصد قلقاس من له خبرة بالسمك وأخبر به فلم يعترف أحد بأنها من عظم السمك، وقالوا ما رأينا سمكاً فيه مثل هذا العظم ووصل خبرها إلى السلطان قايتباى حتى وقف عليها ورآها وتعجب منها[1].

ادعاء النبوة والصعود للسماء:

كثرت فى عصر سلاطين المماليك ادعاءات المشعوذين بالنبوة والصعود للسماء، وكان كلامهم يقع موضع تصديق فى قلوب الناس، وعلى إثر ذلك كانت السلطة المملوكية تقوم بمحاكمتهم وحبسهم لفترة قليلة، لكن سرعان ما يتم إخراجهم بحجة أنهم غير عقلاء "مجانين" ، وقد زخرت المصادر المملوكية بذكر تلك الحوادث ،ففى سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥١م ، ادعى شخص بالقاهرة النبوة، وأن معجزته أن ينكح امرأة فتلد ولداً ذكراً يخبر بصحة نبوته، فقيل له: "إنك لبئس النبى" فقال: لكونكم لبئس الأمة، فسجن وكشف عن أمره، فوجد له أثنا عشر يوماً منذ خرج من عند المرورين بالمارستان، وأنه أخذ غيره مرة وهو مجنون[2] و كذلك فى سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م قبض على رجل ادعى النبوة، وأنه النبى الأمى، وأنه مصدق بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن حروف القرآن تنطق له مع أنه أمى، وأن الذى يأتيه بالوحى جبرائيل وميكائيل وإسرفيل وعزرائيل ورضوان ومالك ودرديائيل، وزعم أنه عربى من مصر، وأنه أرسل بقتل الكفرة وأن الترك يحكموه ويملكوه عليهم وأنه انزل عليه القرآن ، فسجن عند المجانين بالمارستان، ثم أخرجه الأمير بركة....." [3].

---

(١) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل فى ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ، جـ٢ ، ق٧، ص ٣٦٣- ٣٦٤.

(٢)المقريزى، السلوك ، جـ٢ق٣، ص ٨٦٦- ٨٦٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠، ص ٢٦٩- ٢٧٠؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق١ ، ص٢٣٣.

(٣)المقريزى، السلوك ، جـ٢، ص ٣٦٨- ٣٦٩ ؛ عبد الباسط بن خليل ، نيل الأمل، جـ١ ق٢ ، ص ١٦٠ ، إبن إياس، بدائع الزهور جـ١ ق ٢ ، ص٢٤٩؛ أحمد صبحى منصور، العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الاسلام والتصوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ١٩٥.

أضف إلى ذلك، أنه فى سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، ادعى شخص من عرب الصعيد يقال له : عرام، أنه رأى فاطمة الزهراء فى اليقظة، فأخبرته عن أبيها، وأنه سيبعث بعده، فاطاعه ناس ، وخرج فى ناحيته، ثم قبض عليه وتم حبسه وإهانته فرجع عن دعواه وتاب.." [١].

ويتضح لنا مما سبق أن عقلية الناس فى هذا العصر، كانت تعطى للمشعوذين الفرصة للترويج لأفكارهم؛ وذلك لسرعة استجابتهم لهذه الأفكار الخرافية من الوهلة الأولى، فكانوا بمثابة وعاء لقبول هذه الخرافات، وبذلك كان عامة الناس هم وقود هذه الخزعبلات، كما أن موقف السلطة المملوكية فى أغلب الأوقات لم يكن رادعاً لهؤلاء المشعوذين، وكان يتسم بالتهاون فى عقابهم مما شجع الكثيرين من المشعوذين على ادعاء النبوة والصعود للسماء.

وإذا ما انتقلنا إلى مدعي "الصعود للسماء" فقد أوردت المصادر المملوكية أكثر من حادثة تفصح عن هذه الخرافة، فقد ذكر ابن إياس فى بدائعه أنه فى سنة ٧١٧ هـ/١٣١٧م ادعى شخص أنه يصعد للسماء ويكلم البارى جل شأنه فى كل يوم مرة، فاعتقد جماعة كثيرة من عوام مصر، فلما شاع أمره بين الناس، رسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بأن يعقدوا له مجلساً بالصالحية، فاجتمع هناك القضاة الأربعة، وأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر، فشهد جماعة من أهل الطب بأن فى عقله خللاً فسجنوه..." [٢] وكذلك فى سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م ظهر شخص يدعى أنه يصعد إلى السماء ويشاهد النهار ويحل علا ويكمله، واعتقده جماعة كبيرة من العوام، فعقد له مجلس، وحضر فيه القضاة الأربعة، فحكم القاضى المالكى بقتله بشهادة اثنين بأنه حاضر العقل، ولكن شهدت جماعة من أهل الجهة بأنه مختل العقل، فسجن[٣].

وفى سنة ٨١٩ هـ/ ١٤١٦م ، ظهر بالقاهرة شخص أعجمى يدعى أنه يصعد إلى السماء، ويكلم البارى عز وجل فى كل يوم مرة، وأنه صرف فى الكون، فاعتقده جماعة كثيرة من أهل مصر، ولما شاع أمره بين الناس، رسم السلطان "المؤيد شيخ" أن يعقد له مجلساً بالمدرسة الصالحية، فاجتمع بها القضاة الأربعة، فأراد القاضى المالكى، أن يضرب عنقه، فشهدت جماعة من الأطباء أن فى عقله خللاً، فسجنوه، ولم يثبت عليه كفر، وصار مع المجانين[٤].

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣ ، ص ٢٤٣؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٤، ص٩٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٤

(٣) ابن إياس، جواهر السلوك، ص ٣١٣

(٤) المقريزى، السلوك ، جـ٤ ق١، ص ٣٦٧؛ ابن حجر، انباء الغمر جـ٣، ص٩٩ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢٨-٢٩.

ولم يقتصر مدعى الألوهية والنبوة على القاهرة فحسب، بل وصلت إلى الأقاليم، ويشير ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م بأنه ورد الخبر من كاشف الغربية بأن فى قرية ططية بالوجه الغربى من أعمال القاهرة، جماعة زنادقة وفيهم من ادعى الألوهية ومنهم من ادعى النبوة، وانضم إليهم جماعة كثيرة من أوباش الناس ومالوا إلى معتقدهم ووقعت منهم أمور شنيعة وأن الكاشف أمسك منهم نحو أربعة عشر نفراً، فأرسل السلطان إليهم القاضى محيى الدين عبد القادر ابن الوارث، أحد نواب الحكم المالكية ،والناصرى محمد الخازندار لينظروا فى حقيقة أمرهم ويفعل فيهم مقتضى الشرع ومسافر بعد أيام... ثم أحضر المحيوى ابن الوارث ومعه جماعة الزنادقة المقبوض عليهم بتمامهم وكمالهم، فطلع بهم إلى السلطان من الغد، فسألهم مما قيل عنهم فأنكروا ودافعوا فى المحاضر المكتتبة عليهم، فقال القاضى يا مولانا السلطان هؤلاء يعززوا ويحبسوا إلى أن يقتلوا بالشرع، فحبسوا جميعاً ، وطال حبسهم سنين[١].

وفى الصدد نفسه، ادعى بعض المشعوذين، بأنه المهدى الذى جاء لإنقاذ الناس من الفساد، ففى سنة ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠م ظهر بالقاهرة إنسان خفيف العقل، أدعى أنه المهدى، وزعم أنه من نسل الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، وأنذر بأمور كثيرة، وقطع منها بأن العدو يطرق البلاد فى رجب، ويرى الناس غاية العجب، فأمهل إلى الوقت، ولما لم يتم شيء مما قاله، وتبين للناس اختلاله، فعزز وأشهر، وأطلق سبيله[٢].

خرافات أخرى:

ومن جانب آخر ، فقد بلغ الإفلاس العقلى ذروته، عندما اختلق الناس حكايات غريبة مثل نطق الحيوانات أو امرأة تلد ضفدعاً أو إضاءة لحم الجمل، ففى؛ قصة ثور يتكلم أورد ابن إياس

---

(١) اعتقد أن سبب الحبس ليس لادعائهم الألوهية، ولكن ربما لوقوع مصادمات بينهم وبين الكاشف حيث قبض على أربعة عشر نفراً، فدائماً ما يكون مدعى النبوة فرداً واحداً وليس أربعة عشر فرداً، وربما مارسوا نوعاً من أنواع الخروج على السلطة الحاكمة ، فكما هو معروف أن اهتمام المؤرخين دائماً ما ينصب على القاهرة دون غيرها من المدن، ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، تحرير وليام سنة ١٩٣٣م، جـ٣ ، ص ٤١٩- ٤٢١، عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم، تحقيق فرج محمد فرج سلام، رسالة ماجستيرجامعة بنها٢٠١٥ م جـ٢، ص ١١٢.

(٢) بيبرس المنصورى، مختار الأخبارفي تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، ص ١١٨؛ العينى، عقد الجمان، جـ٤ ، ص ١٩٣.

قصة طريفة تدعو للاستغراب والدهشة مفادها: "وفى عهد السلطان الناصر محمد "الأولى" ظهرت فى أيامه أعجوبة، وذلك أن شخصاً من أهل القرى بنواحى الصعيد خرج بثور له ليسقيه من البحر، فلما شرب الثور، قال "الحمد لله" فتعجب منه صاحبه، وحكى ذلك لأصحابه فلم يصدقوه على ذلك.

ثم خرج بالثور فى اليوم الثانى، فلما شرب من البحر، قال "الحمد لله" فلما كان فى اليوم الثالث، أجتمع أهل القرية قاطبة، فتقدم إليه شخص من الحاضرين، فقال له: أيها الثور، أنت تتكلم مثل بنى آدم ، فقال: إن الله تعالى كان قد قدر على عباده أن الأرض تجدب سبع سنين، فشفع فيهم النبى صلى الله عليه وسلم، فقد أمرنى أن أبلغ ذلك الناس، فقال له ذلك الرجل، وما مصداق قولك أيها الثور!!؟ فقال مصداق قولى، أنى أموت، فلما مضى الثور إلى دار صاحبه، فمات عقيب ذلك اليوم، فتسامعت به أهل القرية، فأتوا إليه وكفنوه ودفنوه، وكتب بذلك محضر وثبت على قاضى الناحية [1] بينما ذكر المقريزى حادثة غريبة سيطرت على عقول الناس آنذاك قائلاً :وفى سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م أن امرأة طلقت وهى حامل فكتمت حملها وتزوجت ثم طلقها الزوج الثاني فتزوجت بثالث ثم بعد ذلك أخذها الطلق ووضعت ولد صورته صورة الضفدع فى قدر الطفل، فسترها الله بأن أماته [2] كذلك سرت بين جموع الناس حادثة عجيبة، ففى سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، وصل الخبر إلى القاهرة أنه ذبح جمل، وعلق الجزار ذابحه لحمه فى داره، فأضاء هذا اللحم كما تضيء الشمعة، إذا اشتغل فيها النار وصار كلما قطعوا من لحمة قطعة أضاءت بمفردها ، فأخذوا جملته ودفنوه، ولم يأكلوا منه شيئاً ، ووقع مثل هذا بعد الثمانين وثمانماية فى بقرة ذبحت بالقاهرة، فاضاء لحمه وعد ذلك من غاية العجب[3].

وختاماً؛ وبعد أن تعرضنا للخرافة والشعوذة في الحياة اليومية ...نعتقد أنه من المفيد والمهم أيضاً أن نتطرق إلي الحديث عن حياة المماليك في ظل المفاهيم السائدة ،وهذا ما سنشير إليه بالتفصيل في الفصل التالي.....

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١.
(٢) المقريزى، السلوك، جـ٤ ، ص ٩٢١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣ ، ص ٥١٢.
(٣) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق٤ ، ص ٦٧.

الفصل الثاني

حياة المماليك في ظل المفاهيم السائدة

أولا: الرؤى و الأحلام وأثرها في حياة المماليك- (أ- تعريف الرؤى والأحلام - سلاطين المماليك - الأمراء - الخوندات - وقت الأزمات والكوارث)- ثانيا: التنجيم وأثره في حياة المماليك - (تعريف التنجيم - سلاطين المماليك - الأمراء والخوندات - معرفة الطالع - دور المنجمين) - ثالثا: السحر وأثره في حياة المماليك- (تعريف السحر - لجوء السلاطين والأمراء والخوندات إلى السحر)

عاش المماليك في مصر طبقة منفصلة ممتازة عن سائر السكان بالبلاد المصرية، وساعد ذلك علي قيام نظام طبقي وضحت فيه كل طبقة من طبقات المجتمع وضوحاً أملاها مركزها ونوع نشاطها، وللمماليك في أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم واسلوبهم الخاص في الحياة وعدم اختلاطهم بأهل البلاد سياج يحيط بهم ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن المحيط الذي تعيش وسطة[(١)]

وعلي الرغم مما ذهبنا إليه من كون المجتمع المصري مجتمعا طبقياً،فإن العادات والتقاليد كانت متشابهة في مجملها، فقد كان المماليك يشاركون العامة في الاحتفالات الدينية والمواكب السلطانية والأعياد ...وغير ذلك ، وهنا نود أن نشير إلي أن طبقة المماليك قد شاركت المجتمع المصري في خرافاته وشعوذاته ، ولم تكن بمنأي عن تلك الخرافات ليس هذا فحسب بل إن عامة المجتمع المصري اعتبرت طبقة المماليك هي القدوة الصالحة التي ينبغي تقليدها في كل أمورها وعاداتها، ومن ثم فقد نقلوا عنهم عاداتهم وأخذوا منهم الكثير من سلوكياتهم الخرافية، وهو ما سنراه في فصول الدراسة .

---

(١)وقد قسم المؤرخ " عبد الرحمن بن خلدون" المجتمع المصري انذاك إلي سلطان ورعية ، وهو ما يكشف عن إدراكه لحقيقة الواقع الطبقي آنذاك ، وفي تصورنا أنه يقصد بالسلطان الجهاز الحاكم والفئات التي تعيش علي هامشة من المصريين ، أما الرعية فهم المصريون بجميع طوائفهم وفئاتهم للمزيد انظر ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ، ص ٥١٣ ؛ سعيد عاشور المجتمع المصري ص١٥ ؛ قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك ، ص١٦٤.

أولا: الرؤى والأحلام وأثرها فى حياة المماليك:

بداية تجدر الإشارة إلي تعريف الرؤى والأحلام لغة واصطلاحاً.

الرؤى لغة:- جاء فى لسان العرب أن الرؤيه : النظر بالعين والقلب واسترأى الشيء: استدعى رؤيته.... والرؤيا ما رأيته فى منامك، وأرأى الرجل: إذا كثرت رؤاه، وهى أحلامه وجمع الرؤيا رؤى[١] وقد جاءت فى اليقظة وعليه فسر قوله تعالى: { وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ }[٢].

أما اصطلاحاً:- فهى ما يراه الشخص فى منامه والرؤيه بالهاء إدراك المرء بحاسة البصير، وقد قيل فيها أقاويل، وهى أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم من رأى ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح: ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان فى نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع[٣]، كما أن الرؤية من الله تبشير أو تحذير فهى ذات مضمون يلقيه الله فى قلب عبده ليكون على بصيره من أمره فى شىء أصابه أو سيصيبه رحمة منه عليه، لذا لم يكد ينسى الرائى من رؤياه شيئاً ، وقلما يرى الإنسان رؤيا تحتوى مادتها على لغة الكلام، وإنما الغالب أن النائم يرى صوراً ووقائع ماضية أو مستقبله ولهذا سُميت رؤيا[٤] والرؤية الصادقة هى رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين وهى تقع لغيرهم، وتقع فى اليقظة على وفق ما وقعت فى النوم[٥].

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب، مادة رأى.

(٢) القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، آية ٦٠ .

(٣) ويؤكد الإبشيهى، أن جمهور الأطباء قد قال :إن الأحلام من الاخلاط، وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها قوته، فالذى يغلب عليه الصفراء يرى بحوراً وعيوباً ومياهاً كثيرة، ويرى أنه يسبح ويصير سمكاً، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى فى منامه أحداثا و أمواتاً مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة ومن غلب على مذاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهى والثياب المصبغة، للمزيد انظر، الابشيهى، المستطرف فى كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمة الحلبى، دار المعرفة بيروت الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨م، جـ٢ ، ص ٤٧٥- ٤٧٦؛ محمد الجوهرى، موسوعة التراث الشعبى، المجلد الخامس، ص١٦١.

(٤) محمد بكر إسماعيل، تفسير الأحلام فى ضوء الإسلام، دار المنار القاهرة الطبعة الأولى٢٠٠٢م ، ص ٦-١٨، إمام الشافعى محمد حمودى، الرؤى والأحلام المقدسة عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية اللغة العربية أسيوط جامعة الأزهر ٢٠١٦م، ص ٥٦١.

(٥) ويشير ابن خلدون ان الرؤيا ثلاثة مواضع رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان، ابن=

أما عن مفهوم الأحلام، فجاء في لسان العرب أن الحلم هو: الرؤيا والجمع أحلام، يقال :حلم يحلم، إذا رأى في المنام وتحلم إذا ادعى الرؤيا كاذباً، والرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبح، ومنه قوله تعالى: " أَضْغَاثُ أَحْلام " ويستعمل كل واحد منها موضع الآخر[1] فالحلم هو ما يراه النائم من صور وأشخاص وتخيلاتً ويسمع أصواتاً يتبين بعضها ولا يتبين بعضها الآخر ثم يستيقظ من نومه فينسى منها شيئاً ويذكر شيئاً وقد لا يذكر منها إلا قليل... أما " أَضْغَاثُ أَحْلام " فهي عبارة عن صور وأخيلة لا رابط لها ولا ضابط ولا تقع تحت المعقول ،يراها النائم فيقوم من نومه منزعجاً خائفاً، فهي أشبه بالوساوس الشيطانية والهواجس النفسية التي تقع للإنسان في اليقظة[2].

وعلى أية حال، انتشر بين المماليك تعبير الرؤيا وهي من قبيل الكهانة وعولوا على تعبيرها سلاطين وأمراء ودرجوا مع زوجاتهم وحريمهم على استدعاء معبريها لتفسير مناماتهم، فقد لجأ السلطان حسام الدين لاجين ٦٩٦هـ- ٦٩٨هـ[3] إلى مفسري الرؤى لتفسير رؤياه والتي خلاصتها: "أنه رأى وكأنه بباب القلة من القلعة وقد جلس في موضع النائب والنائب قدامه وشد وسطه، فلما قام من مكانه صعد درجا، وإذا برجل وهو كرجي وقد طعنه برمح، فصار كوم رماد" فاستدعى لاجين" علاء الدين بن الانصاري عابر الرؤي، وقص رؤياه عليه، فقال تدل الرؤيا على أن السلطان يستشهد على يد كرجي، فقال لاجين: الله المستعان وأوصاه بكتمان ذلك وأعطاه خمسين ديناراً وانصرف ابن الانصاري[4] واستغل الأمير منكوتمر فرصة وجود علاء الدين بن الانصاري "وسأله عن رؤية السلطان فكتمها وقال: شيء يتعلق بالحريم فقال منكوتمر: أما أنا فقد رأيت كأني خرجت من الخدمة إلى دار النيابة بالدهليز عمود رخام فوقه قاعدة فجذبت سيفي وضربت رأس العمود

= خلدون، مقدمة ابن خلدون، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٦ م، جـ١، ص ٤٢٣؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري تبويب وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت د.ت، جـ١٢ ، ص ٢٥٤.

(١) ابن منظور ، لسان العرب، مادة حلم.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، جـ١، ص ٤٢٣، محمد بكر إسماعيل، تفسير الأحلام، ص ٦-٧.

(٣) بوزورث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ترجمة عمرو الملاح، دار الكتب الوطنيةأبو ظبي٢٠١٣م، ص١١١.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ١ ق٣، ص ٨٦٢.

فألقيته ففار من العمود دم عظيم ملأ الدهليز، فعمى ابن الأنصارى عليه وقال قد انقطع الكلام برؤية الدم خوفا من شره، وانصرف متعجبا من إتفاق تأويل المنامين[١]، كما استعان السلطان الأشرف برسباى بمفسرى الرؤي فى تفسير المنام الذى رآه له السواس سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م والذى ملخصه: " ... أنه رأى فى النوم- السيد أحمد البدوى، وبين يديه نار وهو يطفئها وكلما أطفأها عاد لهيبها فسأل السلطان عن ذلك فقيل له هذه نار أطفئها عن السلطان، فشاع بعد ذلك أن السلطان ظفر باثنين أو ثلاثة يريدون الفتك به ونجاه الله تعالى منهم... "[٢].

ولم يقتصر الأمر على السلاطين والأمراء المماليك، بل استعانت النسوة بمفسرى الرؤى والأحلام لتفسير رؤاهن ومنهم زوجة السلطان لاجين بنت الظاهر بيبرس، والتى لجأت إلى علاء الدين ابن الأنصارى مفسر الرؤي فى الرؤية التى رأتها والتى مفادها ".... أنها رأت فى المنام ليلة الخميس قبل موت السلطان بليلة واحدة، كأن السلطان جالس فى المكان الذى قتل فيه، وكأن عدة غربان سود على أعلى المكان، وقد نزل منهم غراب فضرب عمامة السلطان فرماها على رأسه، وهو يقول: كرج كرج، فلما ذكرت للسلطان قالت له، أقم الليلة عندنا، فقال :ما ثم إلا يقدره الله تعالى فكان ما كان"[٣].

وأضاف كل من المقريزى والعينى نصاً مكملاً للحادثة سالفة الذكر، خلاصته : "... أن زوجة السلطان لاجين أرسلت خادمها وراء علاء الدين بن الأنصارى لأجل تفسير رؤياها، فقال علاء الدين: إنى ضعيف لا أقدر على الطلوع إلى القلعة، ولكن قل لها، تكتب المنام فى الورقة، وأنا أرد الجواب عنها، فعاد الخادم إلى الخاتون وأخبرها بذلك فأرسلت إليه الورقة مكتوبة فيها الرؤية التى ذكرناها سابقاً فرد عليها علاء الدين: هذا لا يفسر إلا بعد ثلاث جمع، قال وقصدت بذلك التسويف على أن تنقضى إما ثلاثة أيام أو ثلاث جمع أو ثلاثة شهور، وعلمت أنه يظهر سر منامها عن قريب فوقع قتله فى ثاني ليلة الرؤيا"[٤].

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١ ق٣، صـ٨٦٢.

(٢) مجهول، تاريخ الملك الاشرف قايتباى، تحقيق محمد زينهم عزب، الدار الثقافية للنشر القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ص ٩٤.

(٣) ابن أيبك، كنز الدرر، جـ٨، ص ٣٧٨-٣٧٩؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة، جـ٨ ، ص ١٠١؛ المنهل الصافى، جـ٩ ، ص ١٧٣.

(٤) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٣، ص ٨٦٢؛ العينى عقد الجمان ، جـ٣، ص ٤٣٦.

قصارى القول، كان المماليك يعتقدون فى الرؤى والأحلام بدرجة تفوق الوصف، مما كان يدفع مفسرى معبرى الرؤى إلى الكذب فى تأويلها خوفاً من سطوة أولى الأمر، أو يهرب ويراوغ لتجنب الحقيقة، إذا كانت على غير مرادهم أو يلجأ فى التحايل فى تفسير الأحلام حتى يقع المكتوب وهو ما رأيناه فى السطور السابقة، فقد اضطر الأنصارى عابر الرؤي إلى مراوغة الأمير منكوتمر بقوله: " قد انقطع الكلام برؤية الدم" وذلك خوفاً من شره، وكذلك عندما لجأ إلى التحايل والمماطلة فى تفسير حلم زوجة السلطان لاجين "إنى ضعيف لا أقدر على الطلوع إلى القلعة...".

علاوة على ذلك، آمن المماليك بالرؤى والأحلام إيماناً عظيماً وكثيراً ما كانت ترشدهم إلى الأعمال الخيرة، وقد ظهر ذلك بوضوح فى إقامة المشروعات والأعمال، فتخبرنا المصادر المملوكية عن قيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتعمير خانقاه سرياقوس وذلك بناء على رؤية رآها للنبى صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن إياس: "وفى سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، شرع السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى عمارة خانقاه سرياقوس وهى من ضياع مصر، وقيل: إنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، فى المنام وأشار عليه أن يبنى فى هذا المكان خانقاه وأن يجعل شيخ الخانقاه مجد الدين، فلما انتبه من المنام شرع فى عمارة هذه الخانقاه"[١]. كما انساق السلطان الناصر حسن إلي تعمير الأماكن المهجورة والخربة وذلك بناء علي حلم رآه أحد الأشخاص الموصوفين "بأهل الخير" والذى كان لرؤياه مفعول السحر لدى السلطان، فبعد أن كانت قيسارية الجامع الطولوني خربة مهجورة، تم تعميرها فى عهد السلطان حسن "سلطنته الأولى"[٢] وذلك سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م فيخبرنا المقريزى "ولما كانت ليلة النصف من شهر رمضان من هذه السنة رأى شخص من أهل الخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه، وقد وقف على باب هذه القيسارية ويقول، بارك الله لمن يسكن هذه القيسارية وكررها ثلاث مرات، فلما قص هذه الرؤيا، رغب الناس فى سكناها، وصارت إلى اليوم هى وجميع ذلك السوق فى غاية العمارة[٣].

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ١ ق١ ، ص ٤٥٤؛ جواهر السلوك، ص ١٧٠؛ الإسحاقي المنوفي ، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ،الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة١٩٩٨ ،ص١٣٧، ١٣٦.

(٢) تولى الناصر حسن سدة الحكم مرتين المرة الأولى فى الفترة من ٧٤٨-٧٥٢هـ ثم أعيد للحكم من سنة ٧٥٥هـ- ٧٦٢هـ، عبد الباسط بن خليل، نزهة الأساطين، ص١٠١ - ١٠٢؛ زامباور، معجم الانساب، ص ١٦٣.

(٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الثالث، ص ٣٠٢.

وفى الصدد ، لعبت بعض الرؤى دوراً فعالاً فى تهدئة الأوضاع السياسية، وظهر ذلك بوضوح عندما حضر حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب سنة ٧٣٥هـ إلى السلطان الناصر محمد طائعاً ، لما سأله السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن سبب حضوره قال له: "ما أتيتك بأمرى، فإنى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وأمرنى بطاعتك، وكان ضامناً لسلامتى، وفى جملة قوله :إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لى ما بقى من عمرك إلا القليل، وقد صدقت رؤياه"[١].

وعلى النقيض مما سبق، فقد أوشكت إحدي الرؤى التي أُشيعت أن تتسبب فى هدم جامع الحاكم بأمر الله، فقد جاء رجل بواب جامع الحاكم إلى السلطان الغورى سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، يقول له أنه رأى فى المنام قائلاً يقول له :قل للسلطان إن جامع الحاكم فى بعض دعائمة دعامة تحتها دنانير ذهباً لا ينحصر عددها ، فلما سمع السلطان ذلك مال لكلامه وظن أنها حقاً فأرسل الأمير خاير بك الخازندار ومعه جماعة من المهندسين... ولم يتم هدم الجامع ،وكثر القال والقيل فى ذلك وكذبوا ذلك الرجل[٢] كما كان لبعض أخبار الأحلام تأثير سلبى على نفسية بعض السلاطين تجاه الأمراء المماليك، مما كان يدفعهم لاضطهاد بعضهم، والشاهد على ذلك ما ذكره أحد المصادر "فقد رأى السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م، فى المنام أن الأمير أقبغا راكباً فيلاً عظيماً [٣] وهو داخل به إلى الدهيشة وقد هرب الحاضرون منه فحصل عند السلطان من هذا المنام شيء[٤]، فقد أثر فى نفسية السلطان برسباى تجاه أقبغا الجمالى مما أدى به إلى ضربه، بينما استغل السلطان الحادثة الآتية لكي يعاقب أقبغا ، ففي نفس السنة في شهر ذي القعدة وقف للسلطان بعض مماليكه فشكى له أن بلاده قد ظلم فيها الكشاف والولاة والعربان أو أنه يسأل الصدقات الشريفة وأن يضاف على الديوان المفرد ويرتب له جامكية أسوة بالمماليك السلطانية فرسم السلطان للأمير أقبغا بذلك، وناداه السلطان بين العسكر، أمير استادار فقال: نعم فقال:

---

(١) اليوسفى، نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص٢٨١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ١٤٧– ١٤٨.

(٣) يرى ابن سيرين من رأى الفيل فى منامه، فإنه ملك ضخم أو رجل ملعون لأنه من الممسوخ، ومن يرى أنه راكباً على الفيل فقد أوتى ملكاً ضخماً شحيحاً ويغلبه إن كان يصلح للسلطان، فإن لم يكن يصلح لقى حرباً ولم ينصر لأن راكبة أبداً فى كيد فلذلك لا ينصر للمزيد انظر، ابن سيرين، تفسير الأحلام، ضبطة ورتبه على هاشم، شركة دار الفكر الحديث الكويت الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص ١٨٢.

(٤) ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ٣، ص ١٩٩.

"خذ بلد هذا للديوان واصرف له جامكية عوضها، فكان من جوابه بين العسكر أن قال: "أعطني من خزانتك" فشق ذلك الجواب على السلطان... فرسم بضربه بالمقارع[١].

ولما كان الجهل يبسط رداءه على معظم فئات المجتمع المصرى[٢] وكان الناس يميلون إلى تصديق كل ما يقال ولم يكن هناك حاجز بين الخيال والواقع، فقد سقط المماليك فى أحضان من ادعوا أنهم رأوا النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام، وقاموا بتقليدهم فى أفعالهم، ليس هذا فحسب بل ذهبوا أفواجاً رجالاً ونساء من أجل الشفاء من الأمراض أو لدخول الجنة، وأفاضت المصادر التاريخية فى الحديث عن ذلك حيث يقول المقريزى "وفى سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م أتفق بالقاهرة ومصر وظواهرها أنه أشيع بأن امرأة طال دوام رمد عينها وأيس الأطباء من برئها، فرأت فى منامها كأنها تشكو ما بها إلي النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أمرها أن تمضى إلى سفح جبل المقطم وتأخذ من حصى هناك وتكتحل به، وأنها عملت ذلك، فزال ما فى عينها من الرمد،

---

(١) ابن الصيرفى، نفسه، ص ١٩٩

(٢) يمكننا القول بأن المماليك لم يكونوا نسيجاً منفصلاً عن فئات وأطياف المجتمع بل كانت عاداتهم وتقاليدهم وخرافاتهم واحدة، ولم يكن المماليك وحدهم يعتقدون فى الرؤى بل شاركهم فئات المجتمع المصرى فى الاعتقاد فى الرؤى، نذكر على سبيل المثال لا الحصر أنه فى سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م أتفق فى هذه السنة حادثة يتعجب منها وهى أن امرأة رأت فى منامها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينهاها عن لبس الشاش وهى عصبة أحدثتها النساء من نحو سنة ثمانين وسبعمائة وصارت تشبه إسمنة البخت وسمينها الشاش يكون فى أوله على جبين المرأة وأخرى عند ظهرها فمنه ما يبلغ طوله، ممتد نحو ذراع فى ارتفاع دون الربع ذراع، فلم تنته عن لبسه ، فرأته صلى الله عليه وسلم مرة ثانية فى منامها، وهو يقول لها قد نهيتك عن لبس الشاش فلم تسمع ولبستيه ما تموتى إلا نصرانية" فأتت بها أمها إلى شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، حتى قصت رؤياها عليه فأمرها أن تذهب إلى كنيسة النصارى، وتصلى بها ركعات، وتسال الله تعالى لعله يرحمها، ثم تأتية حتى يدعوا لها، فمضت بها أمها من مجلس البلقينى إلى الكنيسة فصلت ثم خرت ميتة لوقتها فتركتها أمها وانصرفت عنها فدفنها النصارى عندهم. كما اشتهر الشيخ عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن باجمال ان أصحابه إذا أصاب أحد مرض أو علة توسل به إلى الله تعالى، فيراه فى المنام ويصبح سالماً من تلك البلية، المقريزى، السلوك، جـ٣ ق٢، ص ٥٣٤-٣٥٣؛ العينى، عقد الجمان، السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة، تحقيق إيمان عمر، ص ١٧٩، عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ق٢ ، ص ٢٢٩؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١ ، ص١٢٠، اليمنى، السناء الباهر، ص٩٧ ؛ إبن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢، ص ٣٦٢.

فلم يبق من الناس إلا من أخذ الحصى واكتحل به ..... وزعموا أنه شفى به خلق كثير...." [١]،
كذلك ذكر ابن إياس فى بدائعه سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م أنه ظهر بقليوب ابنة صغيرة دون البلوغ قيل: أنها رأت النبى صلى الله عليه وسلم وكانت تقيم المقعد وترد بصر الأعمى وتوجه إليها جماعة من الخاصكية والأمراء العشرات وأعيان الناس، ووقع لها سمعة زائدة [٢] كما هرع كثير من الأمراء المماليك إلى الشيخ الشمس محمد بن إبراهيم البوصيرى والذى اشتهر عنه كثرة رؤياه للنبى صلى الله عليه وسلم وسادت بين المماليك خرافة أن كل من قرأ عليه دخل الجنة ،فذهب إليه المماليك بأعداد غفيرة[٣].

ويتضح لنا مما سبق جهل المماليك – وعدم معرفتهم الحقيقية بالإسلام وركنهم إلى الخرافة وشيوعها بينهم.

وتجدر الإشارة إلي براعة بعض من الجند المماليك فى تعبير الرؤيا ،فمنهم من حقق الخبرة والشهرة، مثل الأمير عز الدين أيدمر السنانى والذى وصفه ابن تغرى بردى بأنه" له خبرة بتفسير المنامات"[٤].

وكيفما كان الأمر، فقد تفنن أصحاب الرؤى والأحلام فى ابتزاز السلاطين بهدف الربح والحصول على مغانم، والشاهد على ذلك أن الأمير طيبرس الخزندارى ت ٧١٩هـ/١٣١٩م، رأى أن الأمير حسام الدين لاجين فى منامه قد وقع فى بحر متلاطم الأمواج، فتارة يخفى الماء وتارة يطفو وقد اشتد هبوب الرياح، ثم أن الريح سكنت وركد على موج البحر، فصعد وهو على فرس أشهب بهيئة الملوك، وسار فى موكب جليل مثل موكب السلطان فقص عليه هذه الرؤيا، فأعجبته ووعده إن صحت رؤياه له بإمرة وعاهده على ذلك، فصار يتقرب إليه ويلازمه، فولاه نيابة قلعة الصبيبة نيابة عن الأمير بيدرا، ثم استدعاه وولاه نقابة الجيش بديار مصر، عوضاً عن بلبان الفاخرى[٥].

بل وصل الأمر بأن يقوم مبشر الرؤية بأخذ الوعود من صاحب المنام بأن لا يتم الغدر به فى

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ٨١٧.
(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص ١٦٥.
(٣) السخاوى، الذيل التام، جـ١، ص ٥٢٤ .
(٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨ ، ص ٢٢٧
(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٥٣٨؛ المقفى الكبير ، جـ٤، ص١١.

حالة وصوله لسدة العرش، وهو ما حدث مع الأمير قراسنقر مع حسام الدين لاجين، فقد رأى له رؤية بأنه يتسلطن ويغدر به فى نهاية المنام؛ لذلك طلب من لاجين أن يقسم ألا يغدر به، وفحوى المنام ".... اتفق أن لاجين لما اختفى هو وقراسنقر بعد قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون رأى قراسنقر رؤيا فبعث إلى لاجين ليحضر إليه بسببها، وكان كل منهما يعرف موضع الآخر، فكان قراسنقر فى حارة بهاء الدين، واختفى لاجين فى مأذنة جامع ابن طولون ، فقال له قراسنقر: يا اشقر والله لقد رأيت رؤيا عظيمة ولكن أخاف إذا قصصتها عليك تطمعك نفسك وتغير نيتك وتغدر بى، فقال لاجين لا يكون ذلك إن شاء الله، فأخر الأمر، وأحضر مصفحاً شريفاً وتحالفا، وأكد اليمين ألا يخون أحدهما الآخر، ثم شرع قراسنقر فقص المنام، وقال رأيتك راكباً وبين يديك خيول معقودة الأذناب مضفورة المعارف محللة الارقاب على عادة مراكيب الملوك، قال: ثم نزلت ووصلت على منبر وأنت لابس حلة الخلافة وطلبتنى فأجلستنى بالقرب منك على ثالث الدرجات وشرعت فى الحديث معى، ثم رفصتنى برجلك فوقعت من المنبر فاستيقظت عند وقوعى وهذا يدل على قربى منك على ثالث الدرجات ثم يجرى على أمر من جهتك ثم قال: " يا أشقر النحس أنا والله حلفت وحلفتك فما أدرى هل تثبت على يمينك أم لا...." [١].

هذا وقد تحققت رؤيا قراسنقر وتسلطن لاجين واستناب قراسنقر ثم قبض عليه لكنه أخلى له مكاناً فى بعض القاعات وأكرمه فى محبسه، وأوصى أن تعد له أطعمة مفتخرة ولا تقطع من عنده فاكهة ولا حلوي ... وكل وقت كان قراسنقر يسير إليه ويذكر له المنام المذكور ويسأل منه أن يجعل بشارة المنام الإفراج عنه وإرساله إلى مكان يشير إليه السلطان فيبتسم لاجين ويقول للرسول: قل له إن شاء الله بقى القليل[٢].

ولما كانت ظاهرة الرؤي والأحلام وسيلة من وسائل التنبؤ بالمستقبل فقد تنبأ البقاعى لسيف الدين إينال بأنه سيتولى حكم البلاد من خلال رؤية رآها له، فيقول ".... وفى يوم موت الظاهر سيف الدين جقمق نمت نهاراً فرأيت فى النوم أن ذكرى قائم، وقد صار له قرنان هى فى آخر معكرته من الجانب الذى يلى البطن وهما من لحم كلحم الكمرة، ورأيت أنى قرأت من أول سورة يوسف عليه السلام إلى قوله تعالى «وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ»، وأن

(١) المقريزى، السلوك، جـ١ ص ٨٦١؛ العينى، عقد الجمان، جـ٣ ، جـ ٤٣٤ .
(٢) المقريزى، السلوك، جـ١ ، ص ٨٦١.

أني كنت في صلاة العشاء فولى السلطنة إينال العلائى وكان صاحبى، فذكرت بولايته..." [١].

أضف إلى ذلك أن هناك رؤي وأحلاما رويت من قبل السلاطين المماليك أنفسهم عن توليهم السلطنة، فقد رأى سيف الدين قطز النبى صلى الله عليه وسلم يبشره فى المنام ويقول له: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار[٢] كذلك رأى الملك الظاهر ططر رؤية فى منامه وكان يقول :أنا رأيت فى المنام أنى أصل إلى هذه المنزلة وأتولى السلطنة، ولكن لا أعلم هل تطول مدتى أم لا ، قال هذا الكلام يوم الجمعة ومات يوم الأحد[٣].

ومن ناحية أخرى، وطالما أننا تحدثنا فيما سبق عن رؤى وأحلام تشير إلى تولى عدد من المماليك سدة الحكم، فقد ظهرت عدة رؤئ تتحدث عن زوال ملك بعضهم ،ليس هذا فحسب بل زوال دولة المماليك ككل، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، وباتفاق فى المعنى واختلاف فى الألفاظ ذكر كل من ابن تغرى بردى وابن الصيرفى رؤية تدل على زوال ملك السلطان برقوق خلاصتها :"... لقد سمعت العبد الصالح جمال الدين عبد الله السكرى الغربى يخبرنى، أنه رأى قرداً في منامه صعد إلى المنبر بجامع الحاكم، فخطب ثم نزل ودخل المحراب ليصلى بالناس الجمعة، فثار الناس عليه فى أثناء صلاته بهم، فأخرجوه من المحراب، وكانت هذه الرؤيا فى أواخر سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين، فكان ذلك تقدم الملك الظاهر برقوق على الناس وسلطنته تأويل هذه الرؤيا فإنه كان متخلقاً بكثير من أخلاق القردة شحاً وطمعاً وفساداً[٤].

ويسوق لنا ابن إياس مثالاً آخر على وجود رؤيا تدل على زوال ملك السلطان العادل سيف الدين طومان باى قائلاً: "وفى سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م وفى شهر شوال ظهر الشيخ جلال الدين الأسيوطى وكان مختفياً من العادل فى مدة سلطنته، وكان يقصد الأخراق به، فكفاه الله مؤنته، وذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ويشره بزوال العادل عن قريب[٥]، بل ظهرت

---

(١) البقاعى، إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تحقيق محمد سالم العوفى، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، جـ١، ص ٣٠٥.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص ٨٧-٨٨ ؛ ابن إيبك الدوادار، كنز الدرر "الدرة التركية، ص ٤١-٤٢؛ قاسم عبده قاسم، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص ٥١.

(٣) العينى، عقد الجمان، تحقيق عبد الرازق قرموط، حوادث سنة ٨٢٤ - ٨٥٠هـ، ص ١٥٨.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١ ، ص ٢٩٣-٢٩٤؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١، ص٢٠٠، ٢١٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص ٦.

رؤى تدل على زوال ملك الجراكسة، فقد رأى أحد الأولياء الكرام رؤيا نقلها اليمنى، قائلاً: " قلت فى نفسى كيف يزول هذا الملك مع قوتة وسلطانه وكثرة جنده؟ يقصد السلطان الغورى، فرأيت فى المنام ملائكة نزلوا من السماء بأيديهم مكانس يكنسون الجراكسة من أرض مصر إلى البحر فاستيقظت وإذا بقارىء يقرأ قوله تعالى: "فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ"[1].

وبإسناد مبهم وغير محدد يضيف عبد الله الشرقاوى رواية فى غاية الغرابة مفاداها ".... رأى طومان باى فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه وقال له: يا طومان أنت ضيفنا بعد ثلاثة أيام، فخلع آلة القتال وذهب إلى السلطان سليم طائعاً مختاراً فقتله وشنقه وأبقاه فى باب زويله..." [2]. وترجع غرابة هذه الرواية التى قصرت هزيمة طومان باى على يد قوات سليم العثمانى على هذه الرؤية التى رآها طومان باى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى يأمره بخلع آله القتال.

ومهما يكن من أمر، فقد قدم لنا عبد الباسط بن خليل حلماً يعد ضرباً من الخيال، فيقول: وفى سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م وفيه وقعت حادثة غريبة، وهى أن إنساناً من الجند السلطانى رأى فى نومه هيئة شيخ منور الشيبة فقصده للزيارة، فقال له الشيخ، أعطنى عينيك الاثنتين، وتجادل وإياه، والشيخ مقتحم وهو يمنعه من عينيه إلى أن قال له الشيخ: إن كنت ما تعطنى الاثنتين فهات الواحدة فانتبه الرائى مرعوباً وقد ذهبت إحدى عينيه أصلاً ورأساً، وهذه من النوادر[3].

وفى حقيقة الأمر، فإن الرؤى والأحلام غالباً ما كانت تظهر في أوقات الفتن والقلاقل، والهزائم العسكرية، وكذلك وقت حدوث الكوارث والأزمات، ففى أوقات الفتن والقلاقل تكثر الرؤى ويتم توظيفها في الحياة السياسية ، فإذا ما حدث انقلاب على سلطان ما تظهر الرؤى والأحلام التى تُعيد السلطان إلى ملكه بعد انتصاره على مناوئيه .والشاهد على ذلك ما ذكره ابن أيبك نقلا عن الشيخ محمد بن القوام نصاً: "حدث الشيخ الصالح العالم شمس الدين محمد بن القوام والدى رحمة الله عليه قائلاً: لما كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالكرك المحروس نوبة البرجية ودخل شهر شعبان المكرم وأخبار السلطان شايعة بقدوم ركابه إلى دمشق، فلما كانت ليلة النصف من شعبان والأخبار تزايدت والناس بين مكذب ومصدق... قال الشيخ محمد: "كنت الساعة فى مهد عيسى بالقدس الشريف ، فرأيت الإمام على بن أبي طالب وصحبته رجلين مسمر

---

(١) اليمنى، السناء الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر، تحقيق إبراهيم المقحفى، مكتبة الإرشاد، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص ١٤٧-١٤٨ .

(٢) عبد الله الشرقاوى، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق وتعليق، رحاب عبد الحميد القارى، مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٩٦م، ص ١١٢ .

(٣) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٧ ، ص ٤٠٣.

الألون لا أعرفهما ، فسلمت عليه وصافحته من أين وإلى أين فقال: الإمام على من الحجاز لنعيد محمد بن قلاوون إلى ملكه ثالث مرة، لأنه ينفق بكفيه خمس مرات وأثنى ثلاثة أصابع من كفه اليمين، فما للناس سلطان غيره، يقول الشيخ إبراهيم قال الشيخ محمد، فلما كان بكرة النهار حدثت الفقراء بذلك فبلغ محمد الأذرعى، فحضر إلى عندى وسمع، ثم كنت بذلك عن نفسه للسلطان غفر الله له"[١].

وفى السياق نفسه، ظهرت رؤية تعيد السلطان برقوق لحكمه، بعد انقلاب الأمراء المماليك بقيادة منطاش عليه، ففى حوادث سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م كان الظاهر برقوق فى الكرك[٢] وكان يقف كل يوم فى شباك إلى جهة الخليل عليه السلام ويقول: "يا خليل أنا فى حبسك نجينى من منطاش"، فقيل إن شخصاً من الصالحين رأى الخليل عليه السلام وقال له :قل لبرقوق أن يعود إلى ملكه وينتصر على منطاش"[٣].

ومن جهة ثانية، ظهرت عدة رؤى وأحلام قبل وبعد المعارك الحربية، وكان لها عامل نفسى كبير على معنويات الجند، وربما كان للحلم الذى رآه أحد المقربين من السلطان المنصور قلاوون دور فى انتصار الجيش المملوكى على التتار خاصة بعدما انتشر خبر هذا الحلم بين جموع الناس خاصة الجند، حيث يقول بيبرس المنصورى: " فقد رأى له بعض من حاشيته مناماً وكأن هاتفاً يقول له: هذا قلاوون يكسر هلاوون، فلما قص عليه فى إمرته المنام قال: هذه أضغاث أحلام فكان الأمر محرراً والحلم مبشراً، وذاع حديث المنام فيما يدور بين الناس من الكلام، فقال قائل شعراً فيه تعريض به وهو :

ملك كأن البحر جـود يمينـه: وكأن نور الشمس ضوء جبينه.

تزهو المواكب والكواكب دائماً هـذا وتلك ... حصونـه [٤]

---

(١) ذكر ابن أيبك هذا النص فى حوادث سنة ٧١٢هـ وذكر بأثر رجعى لان الناصر محمد بن قلاوون توفى سنة ٧٠٩هـ، للمزيد انظر ، ابن إيبك، كنز الدرر، جـ٨ ، ص ٢٧٣-٣٧٤.

(٢) لمعرفة المزيد عن هذه الفتنة انظر، المقريزى، السلوك، جـ٣، ص ٦٠٨ وما بعدها؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١ ، ص ٢٧٦ وما بعدها؛ لبيبة إبراهيم مصطفى، الفتن والقلاقل الداخلية فى دولة سلاطين المماليك وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ٢٠٠٠م، ص٥٦ وما بعدها.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ١ ق٢، ص ٤١٤.

(٤) بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، ص ٩١.

كما ذكر النويرى عدة رؤى ومنامات "بأثر رجعى" عن غزو الاسكندرية من قبل القبارصة[١]، وهى كالآتى:

الرؤية الأولى: يقول النويرى : أخبرنى الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن صالح التاجر المصرى قال : كنت بالإسكندرية قبل الواقعة بأيام قلائل، فرأيت فى المنام أن رحبة الجامع الغربى، صارت بحراً طافحاً وإذا بالسماء قد أمطرت جمراً متوقداً[٢] فشرب الجمر ذلك البحر بكماله، وصار الجمر على حاله يتقد ثم أمطرت السماء بعد ذلك ماء فأطفىء ذلك الجمر فصار فحماً أسود، قال فمددت يدى إلى فحمه لأتناولها فانفلقت فلقتين واحدة كبيرة والأخرى صغيرة فتناولت الصغيرة، فلولا ألقيتها سريعاً لاحترقت أصابعى من شدة حرارتها، قال: فاستيقظت من نومى فزعاً مما رأيت، فجرى بعد ذلك وقعة الإسكندرية[٣].

وذكر النويرى رؤيا ثانية سمعها من الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد المؤدب قال: "رأيت فى المنام قبل وقعة الإسكندرية بأيام قلائل كأن سبابتى احترقتا بالنار، فعبر المنام المذكور بأن الإسلام يحدث فيه حدث...." [٤].

وثمة رؤية ثالثة : " أخبرنى الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن أحمد التاجر السفار قال: كنت بالإسكندرية، فرأيت فى المنام قبل الواقعة بخمسة عشر يوماً كأنى فى قصر عظيم على ساحل البحر المالح وجماعة كثيرة من الرجال والنساء خارج القصر وكأنهم أحسوا بعذاب، فصارت النساء يلطمن خدودهن ويقلن واه واه ، قال: فقلت لهن قولوا: يا رسول الله ، نحن فى حسبك، نحن فى جيرتك، ثم قال، ورأيت طائفة من الفرنج مسلسلين داخلين الإسكندرية وفيهم

---

(١) لمعرفة المزيد عن هذه الغزوة انظر، سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٦٠ وما بعدها.

(٢) يشير ابن سيرين أن من رأى ناراً وقعت من السماء فى الدور والمحلات فإن معنى ذلك فتنة وسيف يحل فى ذلك المكان، ومن رأى ناراً خمدت أو أطفئت أو صارت رماداً أو أطفأها ماء أو مطر، فإنه يفتقر ويتعطل عن عمله وصناعته... وإذا أصابت النار فأحرقت من بدن أو ثوب فهو ضرر و مصائب، ورأى سيف بن ذى يزن كأن ناراً هوت من السماء إلى أرض عدن وسقط فى كل دار من دورها جمرة فانطفأت وصارت فحمه فقصها على معبرى مملكته فقالوا إن الحبشة ستستولى على بلدك فكان كذلك... ولعل هذه الرؤى الخاصة بذى يزن قريبة من هذه الحادثة، ابن سيرين، المرجع السابق، ص ٢٩٠-٢٩١ ، ٢٩٣.

(٣) النويرى، نفسه ، المجلد الأول، جـ١، ص ١٠٢

(٤)النويرى، نفسه ، المجلد الأول، جـ١، ص ١٠٢.

جنس لهم أذناب كأذناب القرود، قال: فانتبهت من نومي مذعوراً مما رأيت فجرى بعد ذلك وقعة الاسكندرية..." [١].

أضف إلى ذلك منام رابع ذكره النويرى فيقول: أخبرنى على بن راشد الحجازى المقيم بالإسكندرية، قال: رأيت فى المنام قبل الوقعة بنصف شهر نسوة طوال القامات عليهن الازر البيض فسألت إحداهن عنهن، فقالت إنهن أولاد الأنبياء والشهداء والصالحين ضمهن آباؤهن خارجين بهن من الإسكندرية فقلت ما سبب ذلك قالت أن الإسكندرية مسخوط عليها، قال فضربت بيدى الواحدة على الأخرى وإذا أنا اسمع حس رجال ولا أراهم ثم إن النسوة اختفين عني وكن بشارع قاعة رماة القرافة، فانتبهت من نومي مرعوباً، فجرى بعد ذلك واقعة الإسكندرية[٢].

كما يشير النويرى إلى منام أخير، فيقول : أخبرنى الشيخ الصالح ريحانى الحبشى وذكر أن له سبع غزوات فى الفرنج، قال: بينما أنا نائم بدمشق فى شهر رمضان سنة ست وستين وسبعمائة، وإذا بقائل يقول: قم وامض إلى الإسكندرية لتصلى على أهلها، قال فانتبهت من نومى.." [٣].

وصفوة القول: أن هذه الرؤى الخاصة بواقعة الإسكندرية تكشف لنا عدة أمور منها: أن هذه الرؤى كتبت بأثر رجعى، وربما أراد النويرى أن يهيىء الناس نفسياً بأن سقوط الاسكندرية كان أمراً قدرياً ومهما كانت الاستعدادات فإن الهزيمة كانت ستلحق بالمسلمين، الأمر الثانى، وكما هو معروف عن العصر المملوكى أنه اتسم بمسحة دينية براقة، فنرى النويرى يذكر مصطلح "حدثنى الشيخ" أو "أخبرنى الشيخ" كى يضفي على رواياته المصداقية فى عقول سامعيه، وهو ما لاحظناه فى معظم الرؤى والأحلام السابقة، فمعظم الرؤى كانت تنسب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لصحابى من الصحابة أو لنبى من الأنبياء وأحياناً لملك من الملائكة، أو لرجل شيخ للناس اعتقاد فيه، وأراد بذلك أصحاب الرؤى أن يضفوا على رؤياهم طابعاً دينياً مقدساً حتى يكون لها المصداقية فى نفوس الناس، وأحياناً لم تكن هذه الرؤى صادقة بل هى من باب الافتراء والكذب والادعاء برؤية النبى صلى الله عليه وسلم أي أنها مصطنعة، ففى حادثة سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م وفى شهر شعبان أمر المؤذنون بالقاهرة ومصر أن يزيدوا فى الآذان، خاصة آذان المغرب: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله عدة مرات، وسبب ذلك أن رجلاً من الفقراء المعتقدين سمع فى ليلة الجمعة بعد آذان العشاء الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وكانت العادة فى ليلة

---

(١) النويرى، نفسه ، المجلد الأول، جـ١، ص ١٠٤.
(٢) النويرى، المصدر السابق ، المجلد الأول، جـ١، ص ١٠٥.
(٣) النويرى، المصدر السابق ، المجلد الأول، جـ١، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

الجمعة بعد أذان العشاء أن يصلى المؤذنون على النبى صلى الله عليه وسلم مراراً على المئذنة، فلما سمع الفقير ذلك قال لأصحابه الفقراء: أتحبون أن تسمعوا هذا فى كل أذان ، قالوا نعم فبات تلك الليلة، وأصبح وقد زعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه يأمره أن يقول لمحتسب القاهرة نجم الدين الطنبدى أن يأمر المؤذنين أن يصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم عقيب كل آذان، فمشى الشيخ إلى المحتسب المذكور وقص عليه ما رآه فسره ذلك، وأمر فبقى إلى يومنا هذا[1].

ويتضح من الحادثة سالفة الذكر، كيف ادعى شيوخ المعتقد الكذب ؛وذلك بإلصاق الحلم باسم النبى صلى الله عليه وسلم كى يتسنى للجميع تصديقها، كما أضحت النية مبيتة بادعاء رؤية النبى صلى الله عليه وسلم :" أتحبون أن تسمعوا هذا فى كل آذان قالوا: نعم فبات تلك الليلة، وأصبح وقد زعم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه يأمره أن يأمر المؤذنين أن يصلوا على النبى الكريم فى كل آذان".

واستكمالاً لما ذكرناه سابقاً، فإن الرؤى تكثر وقت حدوث الزلازل والطواعين أو نقص مياه النيل، مفسرة سبب تلك الكوارث والأزمات إلى ما يقع من الفساد والظلم، ففى سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م هاجت ريح سوداء حتى أظلم الجو منها وظهرت النجوم بالنهار ... وتساقطت منها عدة بيوت وهلك جماعة كثيرة من الناس... وفى عقيب هذه الريح رأى بعض من يظن به الخير فى منامه كأن قائلاً يقول: يا قضاة، لولا شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم فى أهل مصر لأهلككم الله تعالى بهذه الرياح [2] كما وجدت رؤى تنسب للنبى صلى الله عليه وسلم وقت حدوث الطواعين[3] ولم تكن هذه الرؤى تقبل الشك لدى الكثير من الناس لأن وجود النبى صلى الله عليه وسلم يمثل المصداقية لدى الناس؛ لذلك عندما يقص صاحب الرؤيا رؤياه تكون بمثابة أمر ملزم للجميع أن يقوموا بتنفيذ ما فى الحلم من أوامر، فيحدثنا ابن إياس بحادثه وقعت فى سنة ٨٩٧هـ/ ، ١٤٩١م مفادها "... وفى ربيع الآخر تزايدت الأقوال بوقوع الطاعون، حتى حكى أن شخصاً من الأتراك رأى فى منامه ملك الموت، فقال له: من أنت؟ قال أنا ملك الموت جئت إلى

---

(١) ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، جـ١، ص ٢٣٢.

(٢) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١، ق٤، ص ١٢٧-١٢٨؛ ابن إياس بدائع الزهور، ج٢٢، ص ٨٥.

(٣) ففى حوادث سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م ضرب طاعون الوجه البحرى، ثم دخل مصر وبدأ يطوق القاهرة من ناحية الساحل وزاد الطاعون ، كان أمراً مهولاً وترآى للناس منامات تشتمل على أنواع البشرى، السخاوى، الذيل التام، جـ١، ص ٥٦٣.

قبض أرواح الكثيرين من الناس فإن الطاعون قد دخل مصر، فقال له ذلك الجندى: هل تقبض روحى فى هذا الوباء ،فقال له: قد بقى من عمرك سبعة أيام فانتبه الجندى من المنام وهو مرعوب، فلما اصبح كتب وصية، وفى اليوم السابع مات، كما قيل، فعد ذلك من النوادر الغريبة، وفى جمادى الأولى قويت الاشاعات بوقوع الطاعون وزعموا أن إنساناً رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وقال له: إن الطاعون كان واقعاً عليكم فشفعت فيكم عند ربى، فقل للناس يصوموا سبعة أيام متوالية، فصام الكثير من الناس سبعة أيام متوالية، فلم يفد من ذلك شيء ووقع بالديار المصرية..." [1].

وعندما نقصت مياه نهر النيل ظهرت الرؤى لتؤكد على زيادته، ففى أثناء أزمة سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م أشيع أن امرأة صالحة رأت في منامها أن ملكين نزلا من السماء وتوجها إلى النيل الذى كان قد ارتفع على حوالى عشرين ذراعاً، ورفسه أحدهما فهبط بسرعة وقال أحدهما للآخر: ان الله تعالى أمر النيل أن يزيد إلى عشرين ذراعاً فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو فى ثمانية عشر ذراعاً، فلما انتهيت من المنام هبط النيل فى تلك الليلة .... دفعة واحدة"[2].

ويتضح لنا أن مؤرخي ذلك العصر استخدموا هذه الأخبار في كتبهم؛ لأن الكتب كانت تقرأ على جمهور من السامعين ولم تكن تكتب بقصد القراءة، وكانت من وسائل جذب انتباه السامعين حتى لا يملوا من الحديث كما أن الكتب التي تقرأ فقد ظهرت متأخرة تماماً في العصر الحديث. وهذا هو السبب في حشو مثل هذه الأخبار في الكتب القديمة.

ثانيا: التنجيم وأثره فى حياة المماليك:

ونود أن نُشير في عجالة إلى تعريف التنجيم لُغة واصطلاحاً. فالتنجيم لغة: مصدر باب التفعيل من نجم ينجم تنجيماً، وفى الأصل نجم المال، إذا أداه نجوماً، ونجم عليه الدية، إذا قطعها عليه نجماً نجماً، ويقال: جعلتُ مالى على فلان نجوماً معدودة يؤدى عند انقضاء كل شهر منها نجماً وقد نجمها عليه تنجيماً، وتنجيم الدين تقدير عطائه فى أوقات عطائه فى أوقات معلومة متتابعة مشاورة أو مساندة، ومنه تنجيم المكاتب ونجوم الكتابة[3].

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣ ، ص ٢٨٦- ٢٨٧؛ نظير حسان سعداوى، صور ومظالم ، ص٩٧.
(٢) ابن إياس، نفسه، جـ٤ ، ص ١٩٣-١٩٤؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٧٥ .
(٣) ابن منظور، لسان العرب، جـ١٢، ص ٥٧٠، يحيى شامى، تاريخ التنجيم عند العرب وأثره فى المجتمعات العربية والإسلامية، دار عز الدين بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م، ص ٢٥.

بينما التنجيم في الاصطلاح، نجم فلان: نظر في حظوظ الناس بحسب حركات النجوم وسيرها، ومن يفعل ذلك يقال له: المنجم، وعلى هذا فالتنجيم هو: "النظر في الحركات الفلكية، والاتصالات الكوكبية لمعرفة أحكام النجوم من اقتضاء حركاتها بالوقائع الكونية والأمور الأرضية[١] بمعنى التنبؤ بالمستقبل واستطلاع الغيب، وهناك عدة طقوس أو وسائل سحرية لمحاولة تحقيق ذلك: من هذه الطقوس: ضرب المندل المحبرة" بقعة حبر على مربع سحرى "الفنجان" استنطاق الودع وغيرها من الطقوس[٢].

وعلي أية حال ،احتل التنجيم مكانة كبيرة في نفوس المماليك؛ وذلك لشغف المماليك بمعرفة الغيب بضروب من الكهانة والعرافة والشعوذة[٣]، حيث نجد أن سلاطين المماليك قد اتخذوا من المنجمين خواصاً لهم استمعوا لأقوالهم وعملوا بنبوءاتهم وصدقوهم في ضرب الرمل، فيما يتعلق بأمورهم المستقبلية، ولقد أفاضت المصادر التاريخية بالحديث عن السلاطين الذين يؤمنون بكلام المنجمين، فقد حكى عن السلطان بيبرس شدة ولعه بالنجوم وما يقوله أرباب التقويم، وقد أختص الظاهر بيبرس ببعض الكهان الشيخ خضر وصار يحادثه في أسراره ويستصحبه في أسفاره ويستشيره في أمور الدولة ومعاركه، وتوهم الظاهر بيبرس إنه إذا عصاه أن يُصيبه المكروه، وأن ما أصابه يوافق ما بشره به[٤].

هذا وقد بلغ من شدة اعتقاد السلاطين المماليك في المنجمين أن يأخذوا كلامهم مأخذ صدق؛ فعندما يضرب المنجم الودع ويحدد أول حرف من حروف من سيلي السلطنة[٥]، يأخذ السلطان القائم بالأمر كلامه موضع تصديق ولا يتريث في أن يقوم بقتل أقرب الناس إليه من واقع أول حرف

---

(١) يحيى شامي، تاريخ التنجيم ، ص ٢٥.

(٢) محمد الجوهري، موسوعة التراث الشعبي، المجلد الخامس، ص ١٧٨.

(٣) الكهانة والعرافة، لفظان لمعنى واحد، وإن رأى البعض أن الكهانة إنما تختص بالأمور المستقبلية، وأن العرافة تختص بالأمور الماضية والمراد بها التنبؤ واستطلاع الغيب، وقد عرفت الكهانة عند البشر منذ القدم خاصة عند البابليين والفينقيين، وعند العرب كانت من العلوم الدخيلة عليهم، واعتقد العرب واستفتوا الكهان واستشاروهم وحكموهم، للمزيد انظر جرجى زيدان ما تاريخ التمدن الإسلامى جـ٣ ، ص١٩؛ محمد طلعت حرب، تاريخ دول العرب، جـ١ ، ص ٥٨- ٥٩ ؛ إسماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية، ص ٢١٠.

(٤) تحدثت عن ذلك بالتفصيل في الفصل الخامس للمزيد انظر، ص.

(٥) ومما لا شك فيه أن المنجمين كانوا على صلة بالحكام ويعلمون ما يجرى من وراء الستار وأغلب كلامهم مبنى على تخمينات، فدوماً ما يختاروا أقرب الأمراء من السلاطين، لعلمهم أنه من الممكن إن يتولى عرش البلاد خاصة في عصر سادت فيه الفتن والقلاقل.

من حروف اسمه مع ما ذكره المنجم ، والشاهد على ذلك أن العادل طومان باى[١] كان قد استشار المنجمين فيمن سيأخذ السلطنة منه، فأشاروا عليه بأن اسمه يبدأ بحرف القاف، فظن السلطان أنه قصروة فقتله ظلماً ولم يكن يحسب لقانصوه الغورى حساباً فكان كما قال:

الرزق لم يزل للمرء ملتزم
ما المن سمى إلا لمن قسم[٢]

كما كان لكلام المنجمين وقع مرير على السلاطين فيتملكه الشك فى أقرب الناس إليه، وتقع الضبابية على عينيه ولا يستطيع تحديد عدوه الحقيقى ويختلج فى نفسه أن عدوه الحقيقى هو أقرب أصدقائه إليه، خاصة إذا ما اقترن أول حرف من حروف اسمه مع ما ذكره المنجم، عندئذ يخطىء فى تحديد عدوه، وهو ما ذكره ابن زنبل الرمال"... أن السلطان الغورى كان له رمال حاذق، فكان كل حين يقول له السلطان؟ انظر ما يلى الحكم بعدى فيقول:"حرف السين" فكان السلطان يعتقد أنه سيباى، وكان كلما كتب سيباى للسلطان بما يفعله خاير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بأنه معه، وأنه ملاحى على أبناء جنسه ويحرضه على المجىء إلى أخذ مصر من الجراكسة، والسلطان الغورى لا يقبل من سيباى نصيحة حتى نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته، وكان ما كان، ولم يتمكن سيباى من ملاقاة السلطان إلا عند سعسعوهى قرية من قرى الشام، وحضر سيباى قدام السلطان وقدم تقدمة عظيمة لا قدر ولا قيمة فشكره السلطان على فعله شكراً زائداً، بعد أن خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على أحد من النواب غيره، وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة إنما هى من سيباى، وما قصدُه إلا أخذ السلطنة كما ذكر المنجم على حرف السين ولا يظن ويخطر فى فكره أن السلطان سليماً يفكر في دخول أرض مصر أبداً لما يعلم من شجاعة الجراكسة وأنهم لا يمكنون أحداً من أخذ بلادهم..." [٣].

وفى الصدد ، لاقى تأويل المنجمين للظواهر الطبيعية قبولاً لدى طبقة المماليك، ومن ذلك ما نسب إلى الناصر محمد بن قلاوون من ظهور كوكب عظيم له ثلاث ذوائب طوال جهة المغرب، وكان ذلك فى حوادث سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م فتعجب الناس من ذلك فلجأوا إلى عماد الدين بن الدهان رئيس المنجمين لتفسير ذلك، فقال لهم إن هذا الكوكب يدل على أنه يولد فى هذه الليلة

(١) تولى السلطنة فى جمادى الآخرة ٩٠٦ هـ إلي آخر رمضان من نفس السنة ، ولم يدم حكمه أكثر من مائة يوم، زامباور، معجم الأنساب، ص ١٦٤.

(٢) إبن إياس، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص ٥.

(٣) ابن زنبل الرمال، واقعة السلطان الغورى ، ص ٤٣ – ٤٤ .

مولود سعيد يملك مصر والشام والعراق ويعيش ثلاثين وثلاثين فنظروا فلم يولد فى تلك الليلة إلا الملك الناصر محمد بن قلاوون[١] كما أن ظهور كوكب فى سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م وأوله المنجمون بأن الناصر حسن سيصاب بشدة تعتريه وسوف تزول فتذكر المصادر[٢]، أنه ظهر بعد العشاء من قبل جبل أبى قبيس كوكب فى قدر الهلال وأكثر نوراً منه، ومر على الكعبة ثم اختفى بعد ثلاث درج فسمع من فقير يمانى وهو يقول: لا اله إلا الله القادر على كل شىء، هذا يدل على رجل يكون فى شدة يفرج الله عنه ورجل يكون فى فرج فيصير إلى شدة والله يدبر الأمر بقدرته، فقدم الخبر فى أخريات شوال بخلع الصالح و إعادة السلطان حسن[٣] كما ربط المنجمون بين ظهور كوكب كبير وبين سلطنة المؤيد شيخ[٤]، حيث يشير ابن إياس فى بدائعه أنه فى سنة ٨٠٤هـ "ظهر فى السماء كوكب كبير يقرب نوره من القمر وله ذؤابة صاعدة إلى السماء واستمر يطلع فى كل ليلة بعد المغرب ويقيم إلى ثلث الليل فأقام على ذلك إلى آخر شعبان مدة ثم اختفى وكان أكثر الفلكية يلهج بسلطنة المؤيد شيخ حتى تسلطن[٥] وأحياناً يخبر المنجمون بعض السلاطين والأمراء عن موتهم فيقع تأويلهم موضع صدق فى قلوب المماليك، فيتملكهم القلق والتخبط ويلجأون إلى الحذر والحيطة، فقد تنبأ المنجم الخاص بالملك المعز عز الدين أيبك بأنه سيقتل على يد امرأة مما

---

(١) وقد ذكر فى مجمل كلامه أن هذا الكوكب ظهر فى سنة عشرين وأربعمائة فولد فى ذلك التاريخ المستنصر خليفة مصر، الذي عاش سبعاً وستين سنة، وأقام خليفة ستين سنة، ثم ظهر هذا الكوكب فى سنة تسعين وأربعمائة فولد فى هذا التاريخ عبد المؤمن صاحب المغرب فعاش سبعين سنة وملك خمسين سنة ثم ظهر هذا الكوكب فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة فولد الناصر لدين الله خليفة بغداد فعاش تسعا وستين سنة وأقام خليفة سبعاً وأربعين سنة للمزيد انظر، العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص ٣٤٠- ٣٤١.

(٢) وتذكر المصادر أن الشيخ المعتقد أبا طرطور قال لا إله إلا الله ،اليوم جلس حسن علي دست مملكة مصر، وكان عنده الشيخ قطب الدين عبد الله بن محمود بن هرماس الشهير بالهرماس وحده، فقام من فوره إلى الأمير عز الدين أزدمر أمير الرجبية وقاضى القضاة عز الدين بن جماعة، وهما بالحرم فجلس إليهما ثم أطرق ورفع رأسه وقال لا إله إلا الله اليوم جلس الملك الناصر حسن دست مملكة مصر عن الملك الصالح فأرخو ذلك عندكم، فأرخه الأمير أزدمر، فقدم الخبر بخلع الصالح وجلوس الناصر حسن فى ذلك اليوم بعينه، للمزيد انظر ابن فهد إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت جامعة أم القرى السعودية الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، جـ٣ ، ص ٢٦٤، عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ١ ق١، ص ٢٧٤.

(٣) ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٣ ، ص ٢٦٤.

(٤) تولى السلطنة سنة ٨١٥هـ- ٨٢٤هـ، بوزورث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ص ١١٢.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق٢ ، ص ٦٤٧.

دفعه إلى ترك القلعة والإقامة بمناظر اللوق[١] كما كان لكلام الشيخ خضر أثر عظيم فى نفس الظاهر بيبرس حيث تنبأ له الشيخ خضر بأنه سيموت قائلاً له: "اسمع ما أقول لك أن أجلى قريب من أجلك وبينى وبينك مدة يسيرة من مات منا لحق صاحبه عن قريب"[٢] فلما سمع الملك الظاهر ذلك وجم وخاف على نفسه[٣] بالإضافة إلى ذلك، فقد أورد العينى فى مجمل حديثه أن بعض المنجمين قد أشاعوا أن الملك الظاهر برقوق يجرى عليه شيء فى يوم عيد الفطر سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م فإن نجى منه يجرى عليه شيء عظيم إلى آخر السنة، فإن نجى منه تطول أيامه، فخاف السلطان برقوق ولم يصل صلاة العيد فى الميدان إلا وهو فى توهم عظيم من اعتراض جسيم[٤].

وكيفما كان الأمر، فقد سيطر التنجيم على عقول المماليك ووصل إلى حد الهوس لدرجة أن يسأل السلطان الناصر محمد بن قلاوون المنجمين فى شأن كلبه، حيث طلب منهم تفسيراً حول وضعها ثلاثين جروا بالقاهرة، ولم يكن عندهم علم من ذلك[٥].

ونتيجة شغف المماليك بالتنجيم واعتقادهم فى المنجمين، فقد اعترفت به الدولة وصرحت بممارسته كأية مهنة ووكل إلى المحتسب الإشراف على شئون التنجيم والمنجمين ضمن اختصاصاته[٦] ونافس بعض المماليك الدجالين فى شعوذتهم وامتهان أعمالهم، فكان استادار الناصر محمد بن قلاوون يعرف الرمل ويمارسه وهو الاستادار الجوال ت ٧٠٢هـ[٧] وبرع أيضاً عدد من

(١) لا شك أن المنجم كان عليماً ببعض ما يجرى من وراء الستار إذ كان المعروف أن الزوجين قد أخذا يتسابقان فى حبك المكائد، فقد سئم المعز أيبك من الحياة مع زوجته لسيطرتها عليه وقوة شخصيتها وتطرق إليه الشك من جهتها ولغيرتها فقد نهرته لخطبته ابنة صاحب الموصل وكانت مؤامرتها التى أودت بحياته ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٠١، سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٢١؛ أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك فى مصر والشام، دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٩م، ص ١١٩.

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ١ ، ص ٢٦٧ ؛ بيتر ثوراو ، أسد مصر، ص ٢٧٨.

(٣) ولقد تحدثت فى هذه النقطة بإسهاب وذكرت عدة أسباب لتصديق بيبرس لكلام الشيخ خضر ،وذلك فى الفصل الخامس، ص

(٤) العينى، السلطان برقوق، مؤسس دولة المماليك الجراكسة تحقيق إيمان عمر، ص ٤٩١؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس، جـ١ ، ص ٤٩٣.

(٥) كانت هذه الحادثة فى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م ، ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ٢ ، ص ١٢١؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٢١٣.

(٦) ابن الأخوة ، معالم القربة، ص ٣٠.

(٧) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ٤، ص ١٨٧ ، إسماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية، ص ٣١٢

المماليــك[1] نذكر على سبيل المثال لا الحصر، الأمير بزلار بن عبد الله العمرى الناصرى والذى يصفه ابن تغرى بردى بأنه كان عالماً بالفلكيات والنجوم[2]وأيضاً الأمير أبو بكر بن عبد الله بن قلطويك الأديب والشاعر المعروف بالمنجم صنعته، وكان صاحب مجون عارفاً بالنجامة مشهوراً بالنوادر[3] ولم يقتصر على الأمراء المماليك بل اشتهر عن بعض الخويذات معرفتهن بضرب الرمل وهى الخوندة "سول ربيت" فلقد نقل السخاوى عن المقريزى أبياتاً من الشعر تقول عنها :

تعلمت ضرب الرمل لما هجرتهم لعلى أرى شكلاً يدل على الوصل[4]

أما الأمراء، فاعتادوا دائماً الالتجاء إلى المنجمين ليطلعوا على النجوم أو يضربوا الرمل ويخبروهم عمن سيلي السلطنة بعد السلطان القائم بالأمر، ويلتمسون منهم تبشيرهم بالأخبار السعيدة، فقد لجأ سيف الدين قطز إلى المنجمين ليعرف من سيلى السلطنة بعد أستاذه المعز عز الدين أيبك، يقول ابن تغرى بردى :" .... قال ابن الجذرى فى تاريخه حدثنى أبى، قال حدثنى أبو بكر بن الدريهم الاسعروى والذكى إبراهيم أستاذ الفارس أقطاى قالا: كنا عند سيف الدين قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك التركمانى، فأمر قطز بالقعود ثم أمر المنجم فضرب الرمل ثم قال له قطز: اضرب لمن يملك بعد استاذى المعز إيبك ومن يكسر التتار فضرب وبقى زمانا يحسب فقال يطلع معى خمس حروف بلا نقط فقال له قطز لم لا تقول محمود بن ممدود، فقال يا خوند لا ينفع غير هذا الأسم، فقال أنا هو، أنا محمود بن ممدود وأنا أكسر التتار وأخذ بثأر خالى خوارزم شاه. فتعجبنا من كلامه، وقلنا: يا خوند يكون هذا إن شاء الله فقال اكتموا ذلك، وأعطى

---

(١) يقول ابن الشاطر الدمشقى إن علم أحكام النجوم كان مزدهراً فيما قبل المماليك، بينما قلت بشدة المؤلفات فى هذا الفرع زمن المماليك، وربما يرجع الأمر إلى القبول المجتمعي لهذا العلم، بينما أرجع القلقشندى اهتمام المماليك بالتنجيم إلى أن من لم يهتم بالتنجيم كان ناقصاً فى حال كتابته فيقول: "اهتم المماليك بمعرفة النجوم... وذكر أن العجم كانت تقول من لم يكن عالماً بإجراء المياه وحفر فرض المشارب ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر فى استهلاله واتصاله كان ناقصاً فى حال كتابته، ابن الشاطر الدمشقى، رسالة النفع العام فى العمل بالربع التام، تحقيق أسامة فتحى إمام، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ص ١١؛ القلقشندى، ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المسفر، تحقيق محمود سلامة، مطبعة الواعظ القاهرة ١٩٠٦م ، ص ٥٣.

(٢) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٣ ، ص ٣٦١ .

(٣) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٢ ، ص ٤٣٨؛ عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل جـ١ ق٣ ص١٨١، ابن تغرى بردى، الدليل الشافى، جـ٢ ، ص ٨١٧.

(٤) السخاوى، الضوء اللامع ، جـ١٢ ، ص ٦٣.

المنجم ثلاثمائة دينار"[١]، كما بشر المنجمون الظاهر بيبرس بالسلطنة [٢] وكذلك السلطان الأشرف برسباى ٨٢٥- ٨٤١هـ[٣] والذى تنبأ له أحد المنجمين بأنه سيتولى السلطنة وكان لا يزال نائب طرابلس، ويورد ابن سباط نصاً يدل به على ذلك "..... كان للأشرف برسباى صاحب من الاعيان وهو مغربى يقال له علاى الدين المالكى وكان له معرفة قوية بمنجم وألزمه أن يضرب تخت رمل لنايب طرابلس وأن يحرر درجات طالعه، ويحسب بتأمله سعد طوالعه، ... فابتدىء يضرب الرمل ويحركه ويقول :اظهر لى أن هذا المشار إليه برسباى نايب طرابلس يصير سلطاناً غير بعيد، وكلما تعذر عليهم شيء من أقواله أوضح لهم دلايله وبرهانه وقال لهم: ان يعتقلوه إن لم يتضح ما قاله، وذلك لما ظهر له من الدلايل والعلامات الواضحة؛ لأنهم لم يكونوا طالبين منه بيان هذه المنزلة أولاً بل لما يدل عليه سعد أم عكس وما كملت سنة بعد هذه القصة ، حتى أتاه الله الملك وتسلطن"[٤] وأيضاً بشر المنجمون الظاهر جقمق ٨٤٢- ٨٥٧هـ بأنه سيلى السلطنة[٥] وكذلك الظاهر تمربغا ٨٧٢- ١٤٦٧م بشره بعض المنجمين بأنه سيلى السلطنة فى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة[٦].

وفى نظير ما يبشر به المنجمون الأمراء كانوا ينعمون عليهم بالعطايا عما يجيش بنفوسهم، فقد أنعم سيف الدين قطز على المنجم الذى بشره بالسلطنة بثلاثمائة دينار[٧]، كذلك أجزل السلطان برسباى خلف الرمال وأتا به فأحسن إليه وأجزل صلته وقرر له كل كفايته وجعله فى معربه واستمرت فى عاقبته يتناولونها من بقى منهم[٨] وفى ذلك نرى التراث الشعبى وخاصة الأمثال الشعبية التي كانت وما زالت رصداً للواقع الحياتى لتفصح قائلة "لا تعط المنجم فى هذا فلوس"[٩]، و"أعمى وعامل منجم"[١٠].

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦

(٢) اتحدث عن ذلك بالتفصيل فى الفصل الخامس.

(٣) زامباور ، معجم الأنساب، ص ١٦٣ .

(٤) ابن سباط، صدق الأخبار، تاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، جرس بروس لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٣م، جـ٢، ص٧٨٠.

(٥) البقاعى، عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران، تحقيق حسن حبشى، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠٠٦م جـ٣ ، ص ١٥٥ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٢، ص ١٩٩.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ٢، ص ٦٨.

(٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص ٨٦ .

(٨) ابن سباط، صدق الاخبار ، جـ٢ ، ص ٧٨٠ .

(٩) وكلمة فلوس لا تعنى النقود على الإطلاق، ولكنها تعنى "وزناً معيناً" بوركهات، العادات والتقاليد المصرية ترجمة إبراهيم شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ص ٣٧ ، ٢٠٠ .

(١٠) أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية، ص ٣٠

ونتيجة اطلاع بعض الأمراء على كتب المنجمين ما دفع بعضهم إلى التقرب إلى السلطان الحاكم؛ لأنه رأى أن المصلحة تقتضى التقرب منه لما بشرت به كتب المنجمين، فنرى الأمير ناصر الدين الشيخى عندما رجع إلى كتب المنجمين وجد أن المستقبل سيكون للسلطان الناصر محمد بن قلاوون فعندئذ تقرب إليه كى ينال الحظوة لديه فيشير العينى "... فى حوادث سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م كان ناصر الدين ناظراً إلى حال السلطان ملتفتاً إلى القرب منه؛ لأنه لما كان والى مصر فإن الأمراء رسموا له أن يكبس بيوت المنجمين ويأخذ كتبهم وأوراقهم؛ لأنه بلغهم أنهم أخبروا أن الملك الناصر تطول أيامه، وأنه يقتل الأمراء ،ولما وقف ناصر الدين على كتبهم وأوراقهم وجد فيها أن الناصر يصلح شأنه جداً فى آخر دولته وتطول أيامه، فلذلك كان ناصر الدين يتقرب إليه حتى تكون له منزلة عنده[1].

وثمة أمر آخر مهم، فأحياناً عندما يخبر المنجم أحد الأمراء بأنه سيتولى سدة الحكم عندئذ يتغير هذا الأمير وربما يدخل فى صدام مع السلطان القائم يتفنن المنجم فى استغلال الأمراء للحصول على مكاسب مادية بعد شعوره أن هذا الأمير لديه الرغبة فى الوصول للحكم، لذلك كان يخبره بأنه سوف يتسلطن، وهذا ما حدث مع الأمير قرقماس والذى كان معروفاً بحبه للرئاسة فقد بشره أحد المنجمين بأنه سيتولى سدة الحكم عندئذ تغير خاطره وأصابه الغرور ودخل فى صدام مع السلطان جقمق أودى بحياته فى نهاية الأمر، وتخبرنا المصادر: "بأنه فى حوادث سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م تأخر الأمير قرقماس بالصعود بين يدى السلطان جقمق ليخلع عليه؛ لأنه بلغه ما غير خاطره وذلك أنه كان فى نفسه أن يتسلطن فلما فُهم هذا عنه، تقرب إليه عدة من الذين يوهمون جهلة الناس أنهم أولياء الله ولهم اطلاع على الغيب، وزعم آخرون بأنهم أطلعوا على ذلك من علم الرمل ومن علم النجوم، فتقرر ذلك فى ذهنه ولم يقدر على إظهار ذلك وقد أشيع

---

(١) ودون الخوض فى تفاصيل، يذكر العينى كيف حاول ناصر الدين الشيخى التقرب من السلطان ففى سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م خرج السلطان إلى الصيد والتنزه وعندما وصل إلى تروجه، طلب ابن عباده وهو وكيل السلطان فقال له ابصرلى دراهم ترسلها على الاسكندرية يشترى بها هدية فقال يا خوند ما ثم الان حاصل فقال له اقترض من أحد التجار ونحن نوافيه ،ولما نزل ابن عبادة إلى القرب من الإسكندرية وجد الامراء ما يدعون له تصرفاً ولا له خزانة ولما وجد ناصر الدين الشيخى ذلك قال لابن عبادة ملك مصر لا يجد لنفسه شيئاً حتى يقترض ثم قال له: ارجع إليه وعرفه أن عندى الفى دينار حاصلة، فإن كان السلطان يأذن لى أجئ إليه وأحضرها وقل له: أنى أحق بجميع ما يختاره السلطان فركب ابن عبادة وجاء إلى السلطان وأخبره بما جرى، ففرح بذلك فرحاً كثيراً... وفى اليوم التالي حضر إلى السلطان وقال له :يا مولانا السلطان مهما تحتاج إليه عرفنى به أحمل إليك.. يا خوند الأمور مصيرها إليك، العينى، عقد الجمان، جـ٤، ص ٣٢١- ٣٢٢.

عنه حب الرئاسة فبشره الرمال أو المنجم أيضاً بما يسره من قبله وحسب اجتهاده لأخذ دراهمه، ثم بلغه وهو مسافر فى التجريدة موت الأشرف برسباى فرأى أن دولته قد طلعت فأخذ يترفع على من معه من الأمراء ترفعاً زائداً هذا مع ما يعرفونه من تكبره وإفراط جبروته وشدة بطشه فزادهم ذلك نفوراً منه وداروه، حتى قدموا ظاهر القاهرة وهو وهم على تخوف من الأشرفية لما بلغهم عنهم من أنهم على عدم الإيقاع بهم، فأخذ قرقماس يطلق القول ويبدى شيئاً مما فى نفسه، وكان فى ظن قرقماس أن تكون السلطنة له وأتفق أنه لما خرج من داره، وسمعهم ينوهون بالدعاء للعزيز كشف رأسه وقال الله ينصر الحق[1].

ومن ناحية أخرى، فطالما أننا تحدثنا فيما سبق عن قيام المنجمين بأخبار السلاطين بأنهم سيموتون وكيف كان يصاب السلاطين بالهلع والخوف والحذر والحيطة، فالأمر يحدث كذلك مع الأمراء، فقد أخبر أحد المنجمين الأمير يشبك الدوادار بأنه سيقتل على يد شخص يسمى أزدمر فظن يشبك أنه أزدمر الطويل فقتله فذهب دمه هباءً منثوراً؛ لأن قاتله سيكون أزدمر الأسود ،ويخبرنا ابن إياس فى حوادث سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م"... أن الأمير يشبك أخبره جماعة من المنجمين بأنه يقتل على يد شخص يسمى أزدمر، فظن أنه ازدمر الطويل فبادر إلى قتله، فلما حضر إليه باينذر ذلك العبد الأسود ليقتله فقال له يشبك: ما اسمك؟ قال أزدمر، فعند ذلك تيقن بأنه هو الذى يقتله بيده وراح أزدمر الطويل ظلماً، فكان هو ذلك العبد الأسود الذى حذا رأسه بالسيف عدة مرار..." [2].

وفى حقيقة الأمر، لم يقتصر أمر الاعتقاد فى التنجيم على السلاطين والأمراء بل شاركهم النسوة فى هذا الأمر[3]، مما دفع الناصر محمد بن قلاوون لمنع المنجمين والقبض عليهم وضربهم

---

(١) هذا وانتهى به الحال أنه لما تسلطن الظاهر جقمق ركب عليه وقاتله، فلم يثبت وفر وقبض عليه وسجن بالإسكندرية ثم ضربت عنقه فى يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الآخرة وقد بلغ الخمسين أو تجاوزها وذلك فى سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، المقريزى، السلوك جـ٤، ص١٠٨٢-١٠٨٤، ١١٤٩؛ ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة،جـ١٥، ص ٢٤٩.

(٢) ابن إياس ، بداع الزهور، جـ٣ ، ص ١٧٢.

(٣) وانخرط بعض قضاة العصر من ولاة الحكم والسلطنة بمناصب الدولة ووظائفها فى أمور التنجيم وتناقلوا – كغيرهم- أقوال المنجمين وتأويلاتهم بشأن حركات النجوم، وأخذ الطالع لاسيما على إثر تولية أحدهم ، ووصلوه إلى مقر عمله الجديد، إذا كان يستحب له الكشف عما يخبئه النجم، عن مستقبله فى وظيفته الجديدة من سعد أو نحس ومدة حكمه بها، فقد أخذ قاضى القضاة على الدين صالح الأسنائي على عهد الناصر محمد بن قلاوون، وجاء على لسانه أنه عندما دخل أحد =

وذلك "لافسادهم حال النساء" وكانت النساء تكثرن من التردد على المنجمين فى عصر المماليك مما جعل بعض الكتاب المعاصرين يوجهون نقداً مراً للمنجمين فيقول: "وحينئذ يؤخذ عليهم وعلى كتاب الرسائل أنهم لا يجلسوا فى درب ولا زقاق ولا فى حانوت بل على قارعة الطريق فإن معظم من يجلس عندهم النسوان وقد صار فى هذا الزمان يجلس عند هؤلاء الكتاب والمنجمين من لا له حاجة عندهم من الشباب وغيرهم، وليس لهم قصد سوى حضور امرأة تكشف نجمها أو تكتب رسالة أو حاجة فيشاكلها ويتمكن من الحديث معها بسبب جلوسه وجلوسها ويؤدى ذلك إلى أشياء لا يليق ذكرها"[١].

وقد صور لنا ابن دانيال فى بابه "عجيب وغريب" أحد المنجمين ووسائله فى الاحتيال على الناس وبخاصة النساء فيما كان يصفه لهن من تمام وتعويذات وأحجبة زاعماً أنها تعين الحامل على أن تضع حملها وترد البصر وتجعل المرأة التى ترملت مطمحاً للخاطبين، يقول ابن دانيال على لسان ذلك المنجم فى وصف التميمة أو الحجاب:

ولقبته الحصن الحصين وأنه	لحصن بأى الله بات منورا
غدا منه ليلى فى التمائم جنة	لمن كان منصور اللواء مظفرا
وكم حامل لما رأته تخلصت	وأحضرها الطلق الذى قد تعسرا

= الولاة إسنا، أخذ له طالعاً لدى المنجم، وعلى مدة خدمته وإقامته بها، فكان كما قال المنجم، أضف إلى ذلك يعمد أقرانه من الفقهاء إلي إحضار أحد المنجمين الحذاق خصيصاً لمعرفة شورته فى أمر تعيينه خاصة إذا جاءت توليته على غير هواهم أو كان يبغضه الناس هذا من ناحية، ولمعرفة كيف فات المنصب ذلك الذى ظنوه صائباً له من ناحية أخرى، ولمعرفة كيف فات المنصب ذلك الذى ظنوه صائباً له من ناحية أخرى، وقد يراجعوا السلطان لتعيين مريدهم، ولم يكن يثنيهم عن عزمهم سوى رأى المنجم بصلاحيته، وطول مدته ويكون أمر القاضى موافقاً لقول المنجم فى ولايته بالعدل والنزاهة، هذا وقد تسممت نفسيات بعض القضاة بمزاعم المنجمين، حتى تمكن الخوف منها ولازمهم فى حياتهم، ابن بطوطة الرحلة، جـ١، ص ١١؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ٢، ص ١٨٢؛ الادفوى، الطالع السعيد، ص ١٦١؛ إسماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية، ص ٣٠٨.

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٨٣، القفطى، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق محمد أمين الخانجى، مطبعة السعادةالقاهرة ١٣٢٦هـ، ص ١٢٨-١٢٩؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ فوزى محمد أمين، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول، ص٢٥٢، نجوان أحمد سعيد، الحسبة فى مصر، ص ١٤١؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٢٦٠.

وذات نزيـــف بالدمـــاء رأت به عيانا وقد قامت من الدم أبحرا

وأرملة عطل من الزوج قد غدا به أمرهـا بالخاطبين ميســرا[١]

كما شهد العصر المملوكى اهتماماً واضحاً بالطوالع[٢] من قبل السلاطين الأمراء، وغالباً ما تذكر المصادر طالع السلطان أو الأمير عند توليه سدة لحكم أو توليه

منصباً[٣] واعتاد عدد من السلاطين عدم الخروج إلى الحروب والأسفار إلا بعد أن يأخذ المنجم

---

(١) ابن دانيال، خيال الظل، ص ٢١٢ -٢١٣ ؛ فوزى محمد أمين، المجتمع المصرى ، ص ٢٥١؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٢٦٠.

(٢) ويتم كشف الطالع عن طريق مراقبة أخساء بعض الحيوانات، ولاسيما مراقبة وضع كبد ما يقدم من الحيوانات كقرابين، ومن وسائل التنجيم أيضاً ملاحظة بعض الأشكال الهندسية التى تتشكل حسب قواعد ثابتة، كما يعتمد كشف الطالع على مراقبة بعض الظواهر الطبيعية كتكوينات السحب، ومن وسائل التنجيم ما يعتمد على مراقبة تصرفات بعض أنواع الحيوانات كالثعابين والكلاب، سعد الخادم ، الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، ص ٩٤.

(٣) يطول بنا المقام لو ذكرنا كل الحوادث التى يذكر فيها المؤرخون طالع السلاطين وقت توليهم سدة الحكم فنذكر على سبيل المثال لا الحصر، يقول ابن حبيب :ان طالع الملك الأشرف خليل بن قلاوون كان سعيداً ابن حبيب ، درة الاسلاك، جـ٢ ، ص٧ ، واقترن بمولد الناصر محمد بن قلاوون طالعاً سعيداً وكان حاكماً له بالسعادة، بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٢٧٠، وكان طالع السلطان كتبغا منحوساً، العينى السلطان برقوق، ص ٣٣؛ بينما كان طالع السلطان برقوق الحوت وعاونه القوس والشمس، والقوس متصلة بالقمر من تثليث والقمر بالأسد متصل بالمشترى تثليثا وزحل بالثور راجعًا مما يدل على طول أيامه ودولته واستمرار السلطنة فى ذريته، ويقول الشيخ شهاب الدين الصغرى من قصيدة:

تولى الملك برقوق المعزى بعد الجد والأقدار ختم

نهار الأربعـــاء بعد ظهـــر وللتربيع فى الأفلاك حكم

وكنى عاجلاً بأبى سعيـــد فوافق نجمـة سعد ونجم

العينى، السلطان برقوق مؤنس دولة المماليك ص ١٢٠-١٢١ ولما تولى الظاهر جقمق السلطنة ذكرت المصادر أن طالعه برج الميزان بعشر درجات وخمس وعشرين دقيقة وكانت الشمس فى السادس والعشرين، والقمر فى العاشر من الجوزاء، ابن تغرى بردى، مورد اللطافة، جـ٢، ص١٥٨، الدليل الشافى، جـ١ ص ٢٤٦؛ المنهل الصافى، جـ٤ ، ص ٢٨٤؛ حوادث الدهور، جـ١ ، ص ٣٣٥، النجوم الزاهرة جـ١١ ، ص ٢٢١- ٢٢٢ ، جـ١٦، ص ٥٧، ٣٥٦-٣٥٧ وعلاوة على ذلك جلس السلطان الغورى على سرير الملك والطالع السرطان، ابن طولون، متعة الأزهان من التمتع بالأقران، جـ١، ص ٣٧٧ ، وكان طالع السلطان الغورى السرطان، متعة الأزهان من التمتع بالاقران، جـ١ ، ص ٣٧٧، وكان طالع السلطان الغورى السرطان، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤.

له طالعه، ومن ذلك ما حدث مع السلطان قطز إذ جمع قبل خروجه لقتال المغول خمسة عشر منجماً لأخذ طالعه، وكان من التنبوءات المأخوذة له أنه يسافر وينتصر عليهم، إلا أنه لا يرجع إلى دار ملكه مرة أخرى فلم يبلغ إلا بنصره على الأعداء فلما خرج للقتال انتصر وفى طريق عودته قتل[١] وأيضاً لجأ السلطان الناصر محمد لمنجمه، ففى حوادث سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م قبل واقعة قازان بوادى الخزندار[٢] أخبره المنجم بأن الطالب مغلوب دون المطلوب، وهزم العسكر المملوكى على يد قوات قازان[٣]، كما حرص السلطان برقوق على ألا يخرج إلى الأسفار إلا بعد أن يأخذ له منجمه الطالع[٤] واعتاد ابنه السلطان فرج ألا يتعدى فى أسفاره الوقت الذى يعينه له المنجم[٥] وكذلك السلطان قايتباى الذى ذهب إلى المنجمين ليأخذوا له الطالع قبل توجهه إلى بلاد الشام سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧[٦]. ومن جانب آخر ربط الأمراء أمورهم بمشورة هؤلاء المنجمين واستندوا على تأويلاتهم فى أخذ الطالع قبل الركوب ضد مناوئيهم، والشاهد على ذلك، أنه فى حوادث سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م ، أراد الناصر محمد بن قلاوون العودة من الكرك لاستعادة ملكه المغتصب منه فى بداية سلطنته الثالثة فاجتمع الأمير سلار نائب السلطنة بأحد المنجمين على عادة القوم، لمعرفة الطالع بالوقوف منه على أمر خروج جيش السلطان لصد ومحاربة جيوش الناصر محمد العائدة لاسترداد ملكه، فرد عليه أحد المنجمين بعدم الخروج إلا أنه لم يلتفت لقوله وركب فيمن خرج فدارت عليهم الدائرة[٧] كذلك لجأ الأتابك دمرداش المحمدى الظاهرى إلى ابن رفاعة المنجم ليأخذ له طالعه قبل توجهه إلى دمشق، وذلك سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م[٨].

---

(١) اليونيني، ذيل مرأة الزمان ، ج١، ص٣٨٠؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، ج٨، ص٤٣ .

(٢) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ٣٥٨، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩ ، ص ١١٧.

(٣) ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٩ " الدرر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، المعهد الألمانى الآثار القاهرة ١٩٧١م، ص ١٧.

(٤) السخاوى، تحفة الأحباب، ص٥ ؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٦.

(٥) اشتهر عن إبراهيم بن بهادر المعروف بابن زقاعه أنه ينظر فى النجوم وعلم الحرف... وطار ذكره وبعد صيته خصوصاً فى أول دولة الظاهر برقوق... وزادت محبته عند الناصر فرج حتى كان لا يخرج إلى الأسفار إلا بعد أن يأخذ له الطالع ولا يتعدى الوقت الذى يعينه له فنقم عليه المؤيد ذلك، السخاوى، الضوء اللامع، جـ١ ، ص١٠٧؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٦.

(٦) ابن جيعان، القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف قايتباى، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية للنشر القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ص ٢٧-٢٨.

(٧) وذلك فى أثناء الصراع بين الناصر محمد وبيبرس الجاشنكير على سدة الحكم، بيبرس المنصور، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، ص ١٩٦؛العينى، عقد الجمان، جـ٥، ص١١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨ ، ص ٢٩٦.

(٨) السخاوى، الذيل التام على دول الإسلام، جـ١، ص ٤٧١-٤٧٢.

وبذلك يلحظ المرء بروز الاعتقاد فى تأثير النجوم فى طبائع الناس وأحوالهم ويشير أبو الصلت إلى ذلك فيقول: "المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعديلاً عليها وشغفاً بها وسكوناً إليها حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أنه لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تعد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها ونصب يعتدونها"[١].

ومن ناحية أخرى، فإن إصابات المنجمين فى أقوالهم وذكرهم بعض الأمور وتحدث حقيقة بناءً على تخمينهم وهى ظنون حدسية وليست علماً، وهو ما أكده كل من ابن خلدون والدلجى، يقول ابن خلدون: "وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدارك للغيب من دون غيبة من الحس فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر... وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب فى شيء إنما هى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثير النجومية وحصول المذاج منه..." [٢] بينما يشير الدلجى إلي"أن التنجيم أقصى ما يعول عليه" حدس وتخمين وظنون كاذبة... وتفرس وحيلة وخديعة، ... وبأن كل الأعراض الغائبة توهم لا يكون شيء منها يقيناً وإنما يكون توهم أقوى من توهم، وأن بعض النبوءات التى تحققت لم تكن لصدق التنجيم، إنما كان إلى أخذ البشر للأسباب وإلى فاعليتهم..." [٣].

وعلى الرغم من ذلك فإنه كانت تخطىء تخميناتهم وتوقعاتهم، وكم من مرة أرجف المنجمون بأن هناك فتنة كبيرة وقطع عظيم على السلطان القائم، وكذلك كذبهم على عدد من الأمراء المماليك بأنهم سيتولون حكم البلاد، وكذلك ادعاؤهم بأنه سوف تنزل من السماء آفة تقتل النبات والحيوان[٤]، أو حدوث زلزال.. وغيرها من الادعاءات، فبات الناس على قلق ينتظرون وهم يخشون سوء العاقبة والمصير، حتى إذا ما أزف الوقت المحدد واقترب الوعد الموعود ، تمخض الحكم عن حديث سخيف ليس من الأهمية بمكان، لا بل ربما كان الحدث نقيضاً لما حذر منه مدعو

---

(١) أبو الصلت، الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ضمن نوادر المخطوطات، الطبعة الثانية ١٩٨٢م ، جـ١، ص ٣٩.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ١، ص ٤٣٢.

(٣) الدلجى، الفلاكة والمفولكون، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، ٢٠٠٣م ص ٤٤- ٤٥.

(٤) ففى سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م "جاء إنسان منجم إلى الأتابك أزبك يعرفه أنه فى حادى عشرين هذا الشهر تنزل آفة من السماء على الحيوانات من سمك وغنم وغيرها ، وفى ماء النيل، وأنه لا ينبغى لأحد أن يأكل من لحوم الأسماك ولا غيرها من أنواع اللحم ولا يشرب من ماء النيل... ثم لم يظهر لذلك أثر، عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٨ ، ٩٥.

الاطلاع على أحكام النجوم، ولن نسترسل فى ذكر مثل هذه المزاعم والأراجيف، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما نصه: أرجف المنجمون أكثر من مرة على أن هناك قطعاً على السلطان الظاهر جقمق وأنه لن يبقى فى الحكم أكثر من سبع سنين، وهو ما ذكره المؤرخون فى حوادث سنة ٨٤٨هـ، ١٤٤٤م، وحوادث ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م "... فقد لهج الكثيرون من المنجمين وأرباب التقاويم بأن فى هذه السنة يكون انقضاء مدة الملك الظاهر جقمق من ملك مصر، وذلك لقران نحس يكون فيه فتنة، وزادت الإشاعة بذلك ثم مضى الشهر وما ظهر لما قالوه أثر حتى ولا ما هو مندوحة فى الجملة..." [1] وكذلك فى سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م "أشيع فى رجب بأنه لا يخرج والسلطان سيف الدين حشقدم موجوداً علي قيد الحياة، بل اشاع المنجمون أن السلطان عليه قطع كبير، ولما استهل شعبان ظهر كذب من قال ذلك وافتراؤه على الله تعالى، وادعاؤه الغيبيات، وقولهم ما لا يعلمونه رجماً بالغيب ، وكان السلطان خشقدم فى خصوص هذه الأيام التى ذكروا هم بأنه لا يبقى فى أرغد ما يكون من العيش والهنا ولم يحصل له أدنى ما يشوش أو يكدر عليه فى تلك المدة ليكون ذلك كمندوحة لهؤلاء وكالذريعة إلى بعض تصديق ما يقولونه ، بل كان على أحسن الحالات وأكملها"[2].

ولم يسلم السلطان قايتباى هو الآخر من ادعاءات المنجمين بأنه سيحدث عليه قطع عظيم[3]، بل إنه تحدى ادعاءات المنجمين الكاذبة، ففى حوادث سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م قال أرباب التقويم وعلماء النجوم إنه يكون قطع عظيم فى يوم سابع عشر من هذا الشهر ولعل ذلك بلغ السلطان فتوجه إلى جهة العمارة من الوجه القبلى متحدياً ادعاءات هؤلاء الكذبة، وكان معه شرذمة قليلة من عسكره، وسافروا خلفه حتى لحقوه وانقطع عنه باقى عسكره من الأمراء الخاصكية، ولم يجتمعوا معه إلا بعد عودته إلى القلعة، وما ذلك إلا استخفافاً بمن يستخف به، وأصبح يوم

---

(١) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٥، ص ٣٤٢؛ ابن تغرى برى، النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص٤٣٧- ٥٠٦.

(٢) تولى الظاهر سيف الدين خشقدم الملك سنة ٨٦٥هـ وظل به إلى ٨٧٢هـ، عبد الباسط بن خليل، الروض الباسم، جـ٣ ، ص١٢٩؛ زامباور ، معجم الأنساب، جـ١ ص ١٦٤.

(٣) ذكرت المصادر أكثر من حادثة فى عهد السلطان قايتباى من قبل المنجمين بأنه سيحدث فى عهده قطع، ففى سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م أشاع أهل التنجيم بأنه يخشى عليه من زواله، بل صرحوا بأنه لا يصل إلى العيد، ثم وعك شيئاً وهو يتجلد فما ظهر مما قاله أهل النجامة شيئاً ، عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٧، ص ٣٦٢ وفى سنة ٨٩١هـ "وفيه أرجف المنجمون ومن يقول بقولهم بأنه يكون فى ثالثة قطع عظيم، وكذبوا ذلك ولا ما يقرب منه، عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل، جـ٢ ق٨ ، ص ١٩.

الخميس ففعل ما فعل من عقد المجلس وقطع ما زاد عن العادة من راتب المماليك السلطانية وغيرهم، ونزل أكثر العسكر ساخطاً عليه... ومع هذا كله لم يتحرك فى الكون ساكن ولم يقع فى هذه الأيام ما تشوش عليه ولا كدره بوجه من الوجوه...." [١].

ويمكننا القول، بأنه إذا كان الإيمان بكلام المنجمين سمة من سمات العصر من أجل تلمس كل السبل للتنبؤ بالغيب حيث اندفع عدد كبير من المماليك سلاطين وأمراء وراء خرافات المنجمين، لكن ربما ظهرت ومضة مضيئة من قبل بعض السلاطين للوقوف فى وجه هؤلاء و هو ما ظهر ذلك جلياً فى الحادثة السابقة من كون تحدى السلطان قايتباى لكلام المنجمين، خاصة فى عصر انتشرت فيه الخرافة والشعوذة وأصبح التنبؤ بالغيب أمر اعتيادياً، حتى أنكر ابن الحاج ذلك بقوله: "أما الباطل فهو زعمهم فى فتح الختمة والنظر فى أول سطر يخرج منها أو غيره"[٢].

وفى نفس السياق، كثر كذب المنجمين على الأمراء الطامحين فى السلطة، وذلك بإخبارهم بأنهم سيتولون حكم البلاد، وذلك مقابل الحصول على مكاسب مادية كما ذكرنا سابقاً، فقد خدع المنجمون الأمير جرمك الناصرى حين أوهموه بأنه سيلى السلطنة فتعلقت نفسه بذلك وأنعم عليهم الأموال الطائلة[٣] وهو ما حدث أيضاً مع الأمير قرقماس، الذي أخبره المنجمون بأنه سيلى السلطنة رغبة منهم فى الحصول على المكاسب المادية، ولكن كذبت ادعاءاتهم وتخميناتهم[٤] وكذلك الأمير سيف الدين تنم بن عبد الله من عبد الرازق ت ٨٦٨هـ والذى أخبره المنجمون بأنه سيتولى السلطنة، وعمل له أحد المنجمين زايرجاه وأتقنها فخرج له أبيات تؤكد سلطنة "تنم" ويذكر ابن تغرى "أن تنم جاء إليه وأخبره بذلك وكان مسروراً، فأجبته بكلام معناه أن هؤلاء كذبة، ليس لهم معرفة بهذه الأمور، وكل ما يقولونه كذب وبهتان واختلاق، نصبة على أخذ الأموال، فعظم ذلك عليه، فقلت له: "لى معك شرط" أكتب الأبيات فإن تسلطن فهو كما تقول، وإن كانت الأخرى فاكتبها ترجمة وفاته ليكون ذلك عبرة لمن يصدق كذب هؤلاء الفسقة، الأبيات هى:

وإن الذى فى السجن لأبدانه   يكون مليكاً للأنام عزيزاً

فأوله تاء وآخر اسمه   على القطع ميم كن عليه حريزا

---

(١) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور ، جـ٣، ص ٦٩٣؛ ابن الصيرفى، إنباء الهصر، ص٣٩.

(٢) ابن الحاج، المدخل، جـ١، ص ٢٧٨.

(٣) المقريزى، المقفى الكبير، جـ٣، ص ٢٢-٢٣ .

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص١٠٨٢، ١١٤٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ١٥، ص٢٤٩.

وذلك كهل يا أخـــى وإنـــه لضخم القفا والصدر فاضغ مميزا

ولابد أن يأتى الزمان بقوة ويعلـــو رقاباً للعـــداه محيـزاً

فذا يرجة فى نظمها نطقت بـــذا فكن لى بهذا العلم منك مجيزاً[١]

ويقول ابن تغرى بردى" وهذا الذى عمل الزايرجه الناس مجمعون على معرفته، فما العجب من كذب هؤلاء الكذبة الجهلة الأوقاح، وإنما العجب فى تصديق الناس لكلامهم، وقد رأيت من ذوى العقول من يقول: "صدق فلان فى قوله كذا وكذا" فأقول له " ما صدق بل حزر مرة وثانية وثالثة ورابعة فأخطأ، ثم أصاب فى الخامسة، وكل أحد يقدر على أن يقول مثل ذلك؛ لأن الخير والشر والولاية والعزل، واقع فى كل أوان وزمان، وكل منصب لابد له من العزل أو الموت، فالفرق فى هذا المعنى بين العارف والجاهل بباب الحذر واضح لها يحتاج إلى بيان"[٢] وأيضاً أخبر المنجمون الأمير قانم ت ٨٧٢هـ سيتولى سدة الحكم وظهر بعد ذلك كذب كلامهم، وفي هذا يشير ابن تغرى بردى: "أنه فى سنة ٨٧٢هـ/ ما قال المنجمون بسلطنته وأجمع الناس على سلطنته وقطعوا بها وصدق هو أيضاً بذلك فتلفت بهذا المقتضى عليه دنياه وتعلقت آماله بالأمر، وكذلك مماليكه وحواشيه... وعندما ترقى فى المناصب إمرة مجلس، ثم وصل إلى أن صار أتابكا تحقق ما كان فى ظنه وجرم على ذلك جميع حواشيه وجماعة من الناس مكان المقدور بخلاف ذلك، وبينما هو والناس من أصحابه يترقبون ذلك إلا أنه مات..." [٣].

ويعلق اليعقوبى على مهارة المنجمين فى التنبؤ بالمستقبل وقبح كذبهم فيقول : "... وكانت لهم فطنة عجيبة ودقيقة يوهمون بها العوام أنهم يكلمون الكواكب وأنها تنبئهم بما يحدث، ولم يكن ذلك إلا لجودة علمهم بالأسرار التى للطوالع وصحة الفراسة، فلم يكونوا يخطئون إلا القليل وادعوا علم ذلك عن الكواكب، وأنها تنبئهم بما يحدث وهذا باطل وغير معقول"[٤].

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦ ، ص٣٣١- ٣٣٢ ، حوادث الدهور، جـ٣ ، ص٥٧٠- ٥٧١.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦ ، ص٣٣١- ٣٣٢ ، حوادث الدهور، جـ٣ ، ص٥٧٠- ٥٧١.

(٣) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، جـ٣ ، ص ٥٩٤- ٥٩٥.

(٤) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، دار صادر بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٠م المجلد الأول، ص ١٨٨، عمرو منير ، الأساطير ، ص ٢٥٥.

ومن النادر أن نسمع عن أحد السلاطين أنه خالف معاصريه فى الاعتقاد بالتنجيم[١] كما حدث سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م عندما أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمنع المنجمين والقبض عليهم وضربهم وذلك "لافسادهم حال النساء"[٢] ،واستتبع ذلك اضطهاد لأحد المنجمين فى سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م؛ وذلك على خلفية التنبأ لأحد الأمراء بأنه سيكون السلطان القادم، فسجن المنجم ثم قتل وتم منع جميع الذين يجلسون بالطرقات ويضربون الرمل[٣].

وتجدر الإشارة إلي أن هناك عدة أبيات شعرية جاءت تنهى عن النظر فى النجوم حيث يقول كمال الدين النصيبى ت ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م:

إذا حكم المنجم فى القضايا ... بأمـــر جازم فاردد عليه

فليس بعالـــم مـــا الله قاض ... فقلدنـــى ولا تركـــن إليـه

وقال أيضاً :

لا تركن إلى مقال منجم ... وكل الأمور إلى الإله وسلم

وأعلم بأنك إن نسبت لكوكب ... تدبير حادثة فلست بُمسلـم [٤]

وكذلك قال الشيخ جمال الدين طه ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م

دع النجوم لطرفى يعيش بها ... وبالعزيمـــة فانهض أيهـــا الملك

إن النبى وأصحاب النبى نهضـــوا ... عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا[٥]

هذا وقد أوضح فقهاء العصر تحريم التنجيم وإتيان وتصديق المنجمين والعرافين وأصحاب الرمل، ومن على شاكلتهم، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: "من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم

---

(١) صدر قرار فى عام ٧١٩هـ/ ١٣١٩م فى أول صفر بمنع المنجمين فى دمشق من أن يكتبوا على التقاويم النجومية أحكاماً، ولم يسمع منه، حيث جمع الشريف جلال الدين الا عناكى نائب الحسبة بدمشق المنجمين ونهاهم أن يكتبوا على التقاويم، البرزالى، المقتضى على كتاب الروضتين، جـ٢ ق٢ ، ص ٣٥٧.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية، جـ١٨ ، ص ٣٥٤ ؛ سعيد عاشور المجتمع ، ص ٢٦٦

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢، ص ٣٨١-٣٨٢، نجوان أحمد سعيد، الحسبة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ص ١١٩-١٢٠.

(٤) المقريزى، المقفى الكبير، جـ٥ ، ص ٧٥٣-٧٥٤.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص ٢٨١.

تقبل له صلاة أربعين يوماً" أخرجه مسلم، وقال النبى صلى الله عليه وسلم: "ومن اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" رواه أبو داود بإسناد صحيح[١] وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم :" من أتى حذاراً فصدقه فى مقاله فقد كفر بما أنزل على محمد"[٢].

ثالثا: السحر وأثره في حياة المماليك

بداية تجدر الإشارة، إلى تعريف السحر لغُة واصطلاحاً، فقد قدم اللغويون تعاريف عدة لكلمة السحر بحسب معانيها، ومنها ما جاء بمعنى السحر وهو: كل أمر كان فيه من الشيطان معونة[٣] ، أو هو إخراج الباطل فى صورة الحق[٤] ، أو هو: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره[٥] ، كما قيل إن السحر يعنى الإفساد ، فيقال طعام مسحور، إذ أفسد عمله، ويقال: أرض مسحورة، أى أصابها من المطر أكثر مما ينبغى فأفسدها[٦].

أما عن تعريف السحر اصطلاحاً ، فقد قدم أهل العلم تعاريف عدة له، شأنهم فى ذلك شأن اللغويين ، نذكر منها تعريف المؤرخ والمفسر الطبرى ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م ، بقوله عن السحر: "هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر، حتى يخيل إلى المسحور: الشيء أنه بخلاف ما هو به، نظير الذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء[٧] ، فيما يقول ابن خلدون: "أن السحر هو

---

(١) السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، ص ١١٥-١١٦ .

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص ١٨٢.

(٣) الفراهيدى: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصرى ت ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، كتاب العين، تحقيق مهدى المخزومى، مكتبة الهلال، ص ١٣٥-١٣٧؛ الهروى، محمد بن أحمد بن الأزهرى ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م ، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، ط١ ، دار إحياء التراث العربى بيروت ٢٠٠١م، جـ٤ ، ص ١٦٩، بلقيس عيدان لويس، مرويات الفكر الغيبى فى مصر المملوكية، مجلة التراث العلمى العربى، العدد الثانى ٢٠١٥م، ص ٢٦٢.

(٤) الفارابى، أبو إبراهيم إسحاق بن الحسين ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م معجم ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار، مؤسسة دار الشعب القاهرة ٢٠٠٣م جـ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ الهروى ، تهذيب اللغة، جـ٤ ، ص ١٦٩.

(٥) الهروى، تهذيب اللغة، جـ٤ ، ص ١٧٠.

(٦) ابن منظور، لسان العرب ، جـ٤ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٧) الطبرى، جامع البيان فى تأويل القرآن، تحقيق ، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة القاهرة الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م جـ ٢، ص ٤٣٧.

"علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر، أما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثانى هو: الطلمسات"[١].

وعلى أية حال، انتشر السحر بين المماليك واحتذي بعضهم علمه وممارسته[٢]، واستخدم المماليك السحر فى اكتشاف الكنوز المدفونة[٣]، وهو ما أكده ابن خلدون بقوله: "اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول فى الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض، مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يغض ختامها، ذلك إلا من عثر على علمه و استحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان"[٤]، وقد أعتقد السلطان الناصر حسن فى سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م بوجود أموال وكنوز مدفونة تحت مدرسته التى بناها، فاستخدم السحر لاستخراج هذه الكنوز المدفونة[٥].

---

(١) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر بيروت ١٩٨٨م ، ص ٦٥٥.

(٢) يؤمن معظم المصريين بالسحر، ولكن منهم من ينكره، ويعتقد أنه مظهر من مظاهر الكفر ويستخدم السحر فى اكتشاف الكنوز المدفونة فى بعض الأغراض الكيمائية أو لمعرفة أحداث المستقبل أو لعلاج العقم أو الشفاء بعض الأمراض أو لمنع تأثير العين الشريرة أو للقضاء على عدو أو لتحقيق الرغبات. وهناك وصفان للسحر، فيصفه بعض المفكرين المتحررين أنه شيء روحى وأنه حقيقة واقعة بينما يصفه بعض المؤمنين بأنه غش وخداع ،أما السحر الروحي الذي يسميه البعض السحر الربانى أو الروحانى فيعتمد على بعض أسماء الله أو آيات من القرآن وعلى قدرة الملائكة والجن وهذا النوع من السحر نوعان علوى وسفلى أو بعبارة أخرى "رحمانى" وشيطانى" ، بينما السحر العلوى الرحمانى، فينظر إليه على أنه علم سام رفيع يقوم على دراسة خير الناس ويستخدم فى الأغراض الطبية، أما السحر السفلى الشيطانى فهو علم يعتمد على قوة الشيطان ونفوذ أشرار الجن ويستخدم فى هذا النوع من السحر بعض الكلمات التى تستخدم خيار الجن والتى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمون والصالحون والناس على استخدامها فى الأغراض السيئة، وليم لين، المجتمع العربى فى العصور الوسطى، ص ٦٦-٦٨، المصريون المحدثون، جـ١، ص٢٩٥.

(٣) لم يقتصر أمر السحر على المماليك بل تعرضت خزانة الدولة للنصب من قبل أحد التجار و يدعى "ابن القماح" والذى خدع حارس قيسارية جهاركس بأنه يوجد فى بئر القيسارية كنز ففتح الحارس له القيسارية ليستخرج الكنز، وأوهمه أنه يحتاج إلى قراءة عزيمة وإلى تبخير البئر، حتى يتيسر أخذ الكنز بإبطال موانعه وفى نهاية الأمر تم القبض على الأمير جهاركس وولده وكذلك حارس القيسارية وتم سجنهم، المقريزى، السلوك، جـ٣ق٢، ص ٤٦٠.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢، ص ٨٣٨.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الأول، ص٢٧٢ ؛ ابن عبد الظاهر، الروضة البهية فى خطط القاهرة المعزية، ص٨٠.

وكادت نزعة الفضول لدى أحد ولاة قوص الأمير طقصبا [١] تُودى بحياته، عندما طلب من إحدى الساحرات أن يرى شيئاً من سحرها ، وكانت بارعة بسحر العقرب حيث تربط اسم الشخص المراد إيذائه على سحر العقرب فيقع عليه ويصيبه سمه فيقتله، ففعلت ذلك مع الأمير طقصبا بناء على طلبه، فتتبع العقرب الأمير أينما توجه، إلا أن الأمير قام بقتل العقرب وقتل الساحرة، ويورد المقريزى نقلاً عن العمرى ذلك بقوله: "... وبالصعيد بقايا سحر قديم، حكى الأمير طقصبا والى قوص فى أيام الناصر محمد بن قلاوون، قال: أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها: أريد أن أبصر شيئاً من سحرك، فقالت: أجود عملى أن أسحر العقرب على اسم شخص بعينه، فلابد أن تقع عليه ويصيبه سمها فتقتله، فقلت: أرينى هذا واقصدينى بسحرك، فأخذت عقرباً وعملت ما أحبت، ثم أرسلت العقرب فتبعنى وأنا اتنحى عنه وهو يقصدنى، فجلست على تخت وضعته على بركة ماء، فأقبل العقرب إلى ذلك الماء وأخذ فى التوصل إلى فلم يطق ذلك، فمر إلى الحائط وصعد فيه وأنا أشاهده، حتى وصل إلى السقف، ومر فيه إلى أن صار فوقى وألقى نفسه صوبى وسعى نحوى، حتى قرب منى، فضربته فقتلته ثم قتلت الساحرة أيضاً [٢].

وأحياناً كان يوصف بعض المماليك بأنه يستخدم السحر وقت الحروب والفتن، وتخرج التأويلات من قبل الناس واضعة بعض المماليك فى مخيلة عجائبيه غريبة أو أسطورية خرافية فوق مستوى البشر [٣]، ففى حوادث سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م أثناء فتنة الأمراء على السلطان المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق كان الأمير يلبغا المجنون من الأمراء الذين خرجوا على السلطان المنصور عثمان بن جقمق وصار يقاتل بطريقة رهيبة بحيث كان يطلق عليه الآلاف من النشاب ولا تصيبه، وأرجع الناس سبب ذلك أنه كان ساحراً، يقول ابن تغرى بردى" ..... إن الأمير يلبغا المجنون كان يخرج من بيت الأمير الكبير عند شدة اشتعال الحرب بلا خوذة على رأسه، بل عليه قرقل مخمل عتيق منقوش فيمشى على أن يصير فى وسط الرميلة فى وقت لا يطيق أحد أن يخرج من بيت الأمير

---

(١) الأمير سيف الدين طقصبا الحسامى التترى الظاهرى أحد المماليك الظاهرية بيبرس ترقى فى الخدم إلى أن ولى قوص وغذا النوبة فى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م وعبر إلى دنقلة وعاد بعد أن مكث هناك بالعسكر تسعة أشهر، المقريزى، المقفي الكبير، جـ٤، ص٣٠-٣١ ،ابن حجر، الدرر الكامنة،جـ٢، ص٣٢٦.

(٢) العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٥م ، ص ٨٧؛ المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ٥١٥-٥١٦؛ إسماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية، ص ٢٩٩.

(٣) إدريس شاه، الصوفيون، ترجمة بيومى قنديل، المجلس القومى للترجمة ٢٠١٦م ، ص ٥٠٦-٥٠٧.

الكبير لعظم الرمى بالنشاب والنفوط، فلما يصير فى وسط الرميلة يقف وحده هناك فيرمى عليه أهل القلعة رمياً عظيماً، ويرمى هو أيضاً عليهم فلا يصيبه منهم سهم واحد، ثم يأخذ يلبغا هذا فى السب والتوبيخ لهم الرمى عليهم فيجتمع عليه من أعيان رماة أهل القلعة عدة ويرمون عليه بالتجديد حتى يصير حوله من النشاب ما لا يحصى كثرة وهو لا يصيبه منهم شيء وهو مستمر على رميهم أيضاً وسبهم فكان لا يتعب يأخذ فى ضم النشاب التي حوله، فكان يلتقط فى اليوم من حوله المئين بل الألوف من النشاب.. وكان إذا تعب من الرمى وضم النشاب على ظهره ينشب على وجهه واستمر على ذلك فى غالب أيام الوقعة.. وقد اختلف الناس فى أمره فمن الناس من يقول كان معه هيكل منيع، من الناس من يقول أنه كان يتحوط بأدعية عظيمة، ومن الناس من يقول كان ساحراً "[١].

ومن ناحية أخرى، فقد أصاب السحرة بسحرهم بعض الأمراء وعزى وفاة بعضهم إلى السحر، بل إذا اختلف فى وفاة أحدهم قيل إنه مات بالسحر، ففى ربيع الثانى من عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، اختلف فى سبب وفاة الأمير سيف الدين الشعبانى وكان ضعيفاً وقيل إنه مات بالسحر[٢].

وعلى هذا النحو، عاقب السلاطين بعض السحرة ؛وذلك لاتهامهم بتعمد ضرر المماليك ونسائهم فكان يتم القبض عليهم لتوسيطهم أو تسميرهم أو يحرقوا بالنار، ففى سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعقاب ساحر يدعى "إبراهيم" بالتسمير[٣].

وأيضاً فى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م رسم السلطان الأشرف شعبان بتسمير شخص من النصارى اتهم بأنه سحر خوند ابنة الأمير طاز زوجة السلطان التي ماتت بسحره ووسط وأحرق بالنار[٤] وكذلك فى سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م عاقب السلطان الغورى شخصاً يدعى المهدى وكان ساحراً يتوضأ باللبن ويستنجا به فحكم عليه أن تضرب عنقه بعد أن أشهروه على جمل وهو عريان[٥].

وفى حقيقة الأمر، كان الحريم السلطاني فى عصر المماليك أعظم ميادين السحر، ومرجع ذلك

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الزهور، جـ١، ص ٣٥٨ – ٣٥٩ .

(٢) وهذا الأمير أحد المقدمين أمير سلاح وأصله من مماليك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، ابن قاضى شهبة، تاريخ ابن قاضى شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسى للدراسات العربية دمشق ١٩٩٤م. جـ٣، ص ٩٠.

(٣) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٤ ، ص ١١٤

(٤) المقريزى، السلوك، جـ٣ ق١ ، ص١٨٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور جـ١ ق٢، ص٦٩.

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ٤ ، ص ٨٧.

فى رأينا تعدد زوجات السلاطين فأخذت كل منهن تسعى لتكيد لغيرها وتظهر عليها، فإذا مات ابن السلطان اتهمت أمة إحدى ضرائرها بأنها سحرت له، وهو ما حدث مع الأمير محمد بن جقمق والذى قيل إنه توفى من أثر السحر، "... وتوفى فى سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م ولم يكمل ثلاثين سنة شهيداً بالبطن، بل ويقال إنه سُحر فمرض من ذلك السحر، ووجد السحر والساحر فمنعهم أبوه من الاعتماد على ذلك..."[١] كما أنه إذا توفيت خوند الكبرى أتهم السلطان خوند الثانية بأنها سحرت لها، والشاهد على ذلك أن السلطان سيف الدين جقمق طلق زوجته مغل البارزية لسحرها سورباى حظيته التى ماتت[٢] وإذا اعترى السلطان مرض قامت امة لتتهم إحدى زوجاته بأنها سحرته فتوقع الحوطة علي موجودها وتضرب جواريها ليعترفن عليها، وحدث ذلك مع "خوند أردو" زوجة السلطان الصالح إسماعيل ٧٤٣-٧٤٦هـ/ ١٣٤٢- ١٣٤٥م عندما اتهمتها أم السلطان بأنها سحرته لإصابته بالمكروه، فهجمت عليها وأوقعت الحوطة على موجودها وضربت عدة من جواريها ليعترفن عليها[٣] وفى بعض الأحيان يتم سحر بعض الخوندات لكونها فائقة الجمال، فيشير السخاوى إلي "أن شيرين الرومية أم الناصر فرج بن برقوق، اتهم جماعة بسحرها وظن ابنها أن ذلك من بعض خوندات أبيه حسداً وبغضاً لكونها بارعة الجمال"[٤].

وتجدر الاشارة إلي أن ابن خلدون قد ألحق الطلاسم بالسحر قائلاً: "لا نفرق بين السحر والطلمسات وكله باب واحد وأن أثرهما واحداً"[٥] وكان لاعتقاد المماليك فى الطلاسم أن تعرض الأمير شهاب الدين أحمد بن المحسنى وإلى دمياط للضرب؛ لأنه تسبب فى تخريب أساس قديم فى البحر كانت عليه طلمسات تمنع بحر الملح عن النيل، حتى تلفت الطلمسات وغلب البحر عن

(١) ويقال إنه سم ولم يثبت شيء من ذلك، للمزيد انظر السخاوى، التبر المسبوك، جـ١، ص ١٩٢؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٧.

(٢) وكان ذلك فى حوادث سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م للمزيد انظر عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل جـ٢ ق٥ ، ص ٢٥٥؛ السخاوى، التبر المسبوك، جـ٢، ص ٨٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٥ ، ص ٣٨٢؛ حوادث الدهور، جـ١، ص١٣٠ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٦٣-٢٦٤ ؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٧، أحمد عبد الرازق، المرأة فى مصر المملوكية، ص ١١٥-١١٦.

(٣) وكان ذلك فى حوادث سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م فقد أصيب السلطان الصالح إسماعيل برعاف مستمر، ولعل سبب ذلك من اعتزام أخيه السلطان الناصر أحمد المسير إلى مصر مع بعض المناوئين له لقتله، فتملك السلطان القلق وحدث له ما حدث، المقريزى، السلوك ، جـ٢ ق٣ ص ٦٢٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٠ ، ص ٤٩، ٨١.

(٤) السخاوى الضوء اللامع ، جـ١٢ ، ص٦٦.

(٥) وصاحب الطلمسات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة فى عالم العناصر، ابن خلدون، المقدمة ، جـ٣ ، ص ١٠٣٧.

النيل فتلفت البساتين ، وأنه نال من ثمن حجارة هذا الأساس مالا كثيراً .... فضرب بالمقارع واستخرج منه جملة المال[1].

خلاصة القول: فقد سيطرت الخرافة و الشعوذة على عقول المماليك إلى درجة الهوس واتخذوا من المنجمين خواصا لهم واستمعوا لأقوالهم وعملوا بنبوا ءتهم وصدقوهم في ضرب الرمل فيما يتعلق بأمورهم المستقبلية وكان ذلك سمة من سمات العصر من أجل تلمس كل السبل للتنبؤ بالغيب؛ ويرجع ذلك لجهل المماليك ـ وعدم معرفتهم الحقيقية بالإسلام وركنهم إلى الخرافة والشعوذة، كما أن الرؤى والأحلام غالبا ما كانت تظهر في أوقات الفتن والقلاقل وكذلك أوقات الكوارث والأزمات ويتم توظيفها توظيفا سياسيا من قبل بعض المماليك لتحقيق مكاسب ذاتية.

وعلي اية حال ...فإن دورنا في الفصل القادم هو رصد للصوفية وكيف تحولت من صوفية معتدلة إلي صوفية يشوبها الخرافة وتسيطر عليها الشعوذة ، وهو ما سنراه في الفصل الثالث.

---

(١) وكان ذلك فى حوادث سنة ٧٣٥هـ ؛ المقريزى، السلوك جـ٢ ق٢ ، ص ٣٨٤.

الفصل الثالث

تأثر التصوف بالخرافة والشعوذة

مقدمة – الإعتقاد في الأولياء «المجاذيب»- زيارة الأضرحة- مزاعم الكرامات- الموالد – تأثيرات الصوفية على المجتمع.

بداية يمكننا القول بأن انتشار الخرافات فى شعب من الشعوب يتناسب طردياً مع شيوع الجهل عكسياً مع انتشار العلم، وإذا فشت الجهالة فى شعب وأصابته الفاقه وأدركه الضنك وثقلت عليه الحياة، كان هذا الشعب أصلح البيئات لشيوع الخرافات وانتشار الأوهام، وقد توافرت فى المجتمع المصرى هذه الصفات خاصة فى الشطر الثانى من العصر المملوكى، حين ملأت الجهالة رؤوسهم وأثقلت الفاقة ظهورهم وأحرجت المظالم صدورهم فلاذوا بالخيال يستعينون به على احتمال تلك الحياة التى أثقلت كواهلهم، وأقوى مظاهر الخيال الذى يميل إليه هذا النوع من الشعوب، ما كان له اتصال بالعقائد الدينية؛ لأن التدين يُغذى هذا النوع من الايمان الخرافى ويقويه فى نفوس أهله، فمرد الأمر الإيمان إلى الظروف التى أحاطت بالشعب المصرى لا إلى طبيعته.

ونود أن نشير فى عجالة إلى الأسباب التى دفعت العديد من الناس للدخول فى سلك المتصوفة[1]، فمن الناحية السياسية أحاطت بالعالم الإسلامى أحوال قاسية، منها: هجوم التتار من ناحية الشرق والمسيحيين الغربيين من ناحية الأندلس ،على حين ظل الصليبيون قابعين

(١) هناك العديد من الدراسات التى أشارت بإسهاب عن أسباب انتشار التصوف فى المجتمع المصرى، ولا يسعنا المجال هنا لذكر هذه الأسباب بالتفصيل ومن هذه الدراسات، عامر النجار، الطرق الصوفية فى مصر، دار المعارف القاهرة ١٩٩٥م ، ص ٨٨ وما بعدها، محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية لظاهرة التصوف عصر سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه جامعة الزقازيق، ١٩٩٦م ، ص ٨ وما بعدها ؛ أحمد صبحى منصور، العقائد الدينية فى مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ٣٢ وما بعدها، تحدث كثير من الرحالة الأوروبيين عن إنتشار المتصوفة في شوارع القاهرة على سبيل المثال Beryden Bach ,les saintes peregrinations ,Bernard de Breyden Bech 1483 ed larrvaz le caire ,1904p ;55.Thenoud ,op.cit ,p37..

فى منطقة الشرق الأدنى يمثلون خطراً مباشراً على البلاد الإسلامية[١] وحلت الهزائم بالمسلمين، أينما وجدوا فامتلأت النفوس بالغضب ومشاعر الإحباط والمرارة وشاعت روح من التقوى السلبية والتدين العاطفى الهروبى، وقد تجسد هذا كله فى انتشار الطرق الصوفية الجاهلة من الدراويش وأتباعهم الذين رددوا الخرافات وأنباء معجزات الدراويش وكراماتهم المزعومة على أنها من حقائق التاريخ، وجعلوها قوام حياتهم ونسيج تفكيرهم ومدار اعتقادهم فهى لا تقبل الشك ولا تحتمل التكذيب[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن التصوف ظل ظاهرة فردية في مصر حتى أواخر القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد عندما أقام صلاح الدين الأيوبي أول بيت للصوفية بعد أن تمت له إزالة الخلافة الفاطمية من مصر. وفي ذلك يقول المقريزي ما نصه : "ولما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد الفاطمي وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولة الأكراد، عمل هذه الدار خانقاه سعيد السعداء برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمسمائة ... فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفيتسس." [٣]

إلى جانب ذلك، كثرة الوافدين على مصر من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين، حيث ضاقوا بالحالة التى وصل إليها المسلمون فى المغرب والأندلس فهجروا بلادهم إلى المشرق، حيث صادف أسلوبهم قبولاً كبيراً فى مصر بالذات؛ وذلك لعدم رضا الناس عن أوضاعهم و تألمهم لسوء أحوالهم[٤] مما جعل مصر بوتقه تحوى كل هؤلاء العلماء والزهاد ومشاهير التصوف، وهو الأمر الذى جعل من مصر تربة خصبة لانتشار التصوف على نطاق واسع بين نفوس المصريين باعتباره

---

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٧٦.

(٢) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٢٠٢؛ عصر سلاطين المماليك، ص ٢٠٦ ،؛محمد صبرى الدالى، التصوف وأيامه، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٢م ، ص ٤٩.

(٣) المقريزي، المواعظ والإعتبار، مجلد ٤ ق٢، ص٧٢٧؛ سعيد عاشور، السيد أحمد البدوي ،ص ٣٤.

(٤) كان المصريون يشعرون بسوء أحوالهم نظراً للأخطار التى تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار من ناحية فضلاً عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد واستبدادهم بأهلها وكثرة الفتن واختلال الأمن، فضلاً عن تجدد المجاعات والأوبئة بين حين و آخر؛ لذلك صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من المصريين للمزيد نظر، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص ٣٥١..

لونا من ألوان التدين الشعبى[١].

ومن ناحية أخرى، فنحن لا نستطيع تجاهل الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية والتى أسهمت فى نشر التصوف، والتى جاءت انعكاسا لكون المجتمع المصرى فى ذلك العصر مجتمعاً طبقياً، فلقد أورد المقريزى تقسيماً للطبقات الاجتماعية فى عهد المماليك، القسم الأول أهل الدولة، القسم الثانى، أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية، القسم الثالث، الباعة وهم متوسطو الحال من التجار وأصحاب المعاش فى السوق، القسم الرابع، أهل الفلح وهم أرباب الزراعة وسكان الريف، القسم الخامس وهم الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم، القسم السادس وهم أرباب المصالح والأجراء وأصحاب المهن، القسم السابع، وهم ذوو الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس[٢].

ويتضح من التقسيم السابق أن المجتمع المصرى مجتمعُ طبقي أغلبه من الطبقات الفقيرة الكادحة من الفلاحين والأجراء والعمال وكان الحكام يعيشون فى ترف وثراء[٣].

ولقد أدى سوء الأحوال الاجتماعية فى البلاد إلى سوء أشد فى الأحوال الاقتصادية خاصة في الشطر الثاني من العصر المملوكي، فانتشر الفقر وعمت البطالة، بالإضافة إلى ظلم الناس وتزييف الأموال والتلاعب بها، والاستيلاء بالقوة والبطش على ما تنتجه أرض الفلاحين والزراع من الثمرات وكثرة الضرائب على الأفراد والعقارات[٤]، كذلك تأثير النيل على الأراضى الزراعية أثناء انخفاض مستواه مما أدى إلى المجاعات والأوبئة، ومن ثم ترك تأثيراً عظيماً على نفوس

---

(١) فقد وفد على مصر عدد من المشايخ، مثل أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى، السيد أحمد البدوى وغيرهم ،للمزيد انظر سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٧٧؛ فوزى محمد أمين، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول، دار المعارف القاهرة ١٩٨٢م ص ١٦٣؛عمار على حسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١١م ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) المقريزى؛ إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧م، ص ٧٢-٧٥؛ السيد محمد أحمد عطا، إقليم الغربية، ص ٣٨٩؛ على سالم النباهين، نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٢م ص ١٣٤.

(٣) لم ينس المصريون أن المماليك أغراب عن البلاد وأهلها وأنهم جميعاً كانوا رقيقاً فى يوم ما، وأنهم حكموا مصر وأهلها، بوصفهم أرستقراطية متعالية فجلتها فجوة واسعة عن أهل البلاد، وأنهم استحوذوا على أرض البلاد وثروتها .. ، سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى شيخ وطريقة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨، ص ٣٦.

(٤) المقريزى، إغاثه الأمة ص ٧٠؛ عامر النجار، الطرق الصوفية، ص ٩٢.

الناس وتحولاً كبيراً فى سلوكيات الناس وأخلاقيات المصريين، حيث نجد أن كل واحد استسلم للموت وطابت نفسه لذلك، قد أوصى وتاب وأناب ورجع عن أشياء كثيرة[١].

وعلاوة على ما تقدم، كان سلاطين المماليك يسيرون على نهج أساتذتهم الأيوبيين فى محاربة التشيع ومحاولتهم الدائبة لنشر المذهب السنى، وهو الأمر الذى ساعد على إفساح الطريق أمام رواد ومشاهير الصوفية لتوسيع دائرة أتباعهم ونفوذهم[٢].

الاعتقاد فى الأولياء

كما أصيب المجتمع المصرى بداء الاعتقاد فى الأولياء والمشايخ[٣]* ، السوى منهم والمجذوب، الحى والميت، اعتقاداً راسخاً فى ولايتهم وأنهم يقربون إلى الله، وفى إمكانهم الشفاعة لهم عنده[٤] ، وركبوا التيار السائد فى المجتمع، بل فى الواقع كانوا هم زعامته[٥]، وباعتراف الدولة بالطرق الصوفية ونظمهم الدينية وأسلوبهم وكيانهم الاجتماعى انتشرت ميدانياً بالبلاد ونفسياً بالأجساد، وأفلح أولئك الشيوخ أن يوهموا المجتمع ويأسرونه بأقوالهم وأفعالهم، بما يدخلونه فى روعهم بمقدرتهم على الكشف عن الغيب والاتيان بالخوارق و أرهبوهم بتلك القدرة المزعومة، فركن إليهم المجتمع المصرى التماساً للرضا والنفع، واستولى الشيوخ على عقولهم وقلوبهم[٦].

والاعتقاد فى بركة الأولياء والصالحين شعور طبيعى يبرره إحساس الناس بأن أولئك الأولياء الصالحين أقرب إلى الله، وأنهم بحكم عملهم الصالح وصفاء قلوبهم أوتوا من العلم والقدرة ما لم يتيسر لسائر العباد، وإذا كانت هذه هى مكانة الأولياء والصالحين عند الله، فإنه أمر غير غريب أن يلجأ الناس إليهم يطلبون وساطتهم ويتمسحون بهم عسى أن يصيبهم شيئاً من بركتهم، وبقدر ما يزداد الجهل ويضعف المستوى الثقافى لشعب من الشعوب بقدر ما تنتشر بين أفراده المعتقدات

---

(١) ابن تعزى بردى، النجوم الزهراة ، ص ١٤ ، ص ٣٤١؛ محمد حسن محمد حسن ، الأبعاد الاجتماعية ، ص ١٦؛ عمرو منير، مصر والعمران، ص ٢٦٢.
(٢) محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية ، ص ١٨.
(٣) * الأولياء فى المعتقد الشعبى هم بعض الصالحين الذين يتميزون بالتقوى عادة ويظهرون الكرامات أثناء حياتهم أو بعد موتهم، ما يدل على جدارتهم بلقب الولاية، وبالتالى يحاطون بالعديد من مظاهر التكريم التي من أهمها بناء الأضرحة وتقديم النذور، للمزيد انظر، محمد الجوهرى، موسوعة التراث الشعبى العربى المعتقدات والمعارف الشعبية، المجلد الخامس، ص ١٠٨.
(٤) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبى ، جـ٣ ، ص ١٤٧.
(٥) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣٦.
(٦) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى الأول، جـ١، ص ١٩٣ ؛ إسماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية، ص ٢٣٢.

الباطلة، فيتحول احترام الأولياء الصالحين إلى تقديس، وقد يتحول التقديس إلى تأليه، فتنتشر القصص الخرافية عن معجزات هذا الولى أو ذاك، وغالباً ما يروج لهذه القصص جماعة من المنتفعين الذين يعيشون على سمعة ذلك الولى – ويتكسبون- بل يجمعون الثروات الضخمة- مما يقدم لضريحه من هدايا ونذور أو مما يصرف فى مولده من أموال ونفقات[١].

ونود أن نسلط الضوء على انحراف الصوفية، بعدما كانت تتسم بالاعتدال والمسار القويم، وسنرى كيف تحولت عن مثلها إلى حياة مليئة بالمفاسد و الرذائل الخلقية، وعن مدى تخلى الصوفية عن النظم والآداب التى عرفوا بها بين الناس فاختلت أوضاعهم وازداد عبثهم وصاروا موضع سخرية المجتمع ونقد العقلاء، ومن ذلك أن أذكارهم غدت بصوت مسموع يشترك فيها جماعة، ومن ثم سميت السماعات، ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعات فإذا دب معه "المتصوف" الطرب قليلاً ، حرك رأسه، كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء، ثم إذا تمكن الطرب منه ذهب حياؤه ووقاره فيقوم ويرقص، ويعيط وينادى ويبكى.. ويدخل ويخرج ، ويبسط يديه ويرفع رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها ويخرج الرغوة إلى الزبد من فيه، وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته[٢].

الواقع أن التصوف بمعنى التنسك والزهد والتفقه فى الدين، قد ظهر على استحياء فى القرن الثالث الهجرى ثم انتشر رويدا رويدا ، كما أنه لم يتخذ شكل الظاهرة السائدة فى الحياة الاجتماعية قبل العصر الأيوبى، بل كان هناك فريق من المتصوفة أقرب إلى الفلاسفة يميلون إلى العقل أكثر مما يجنحون إلى الخرافات والغيبيات ، ولكن مصرع شهاب الدين السهروردى المعروف باسم السهروردى المقتول بأمر من صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧هـ ، كان مؤشراً على اتجاه يناصر الدارويش الذين كانت تؤيدهم جيوش المريدين من العامة، وتمثل اهتمام الأيوبيين بهذا النمط من التصوف فى اعتماد صلاح الدين الأيوبى عليهم فى إذكاء حماسة الجنود من جهة و إنشاء المؤسسات اللازمة لخدمتهم، وأوقف الأوقاف السخية عليها من جهة أخرى، وبينما توارى المتصوفة الفلاسفة ظهر المتصوفة الدروايش لاسيما فى عصر سلاطين المماليك، ولقد اتخذ الاتجاه العام للتصوف اتجاهاً سلبياً ضم الكثيرين من الدراويش والمجاذيب وأتباعهم الذين رددوا الخرافات وأنباء معجزات الدراويش وكراماتهم المزعومة على أنها من حقائق التاريخ[٣].

---

(١) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٣٤.

(٢) ابن الحاج، المدخل، جـ٢ ، ص ٢٠٦ ؛ سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى ،ص ٢٢٧.

(٣) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١١م ، ص ٢٠٢- ٢٠٣.

وعلى أية حال ، تطرف هؤلاء "المجاذيب" أو "الدروايش"[(١)] وأتوا أفعالاً شاذة أو غريبة، زاعمين أنها من الدين[(٢)]، ومن بين هذه الأفعال أن يركب الواحد منهم فى قفص على رأس جمل ويتعمم "بشرطوظ طويل جداً ويعاشر الحرافشة ويزعم أن ذلك من الدين[(٣)] ومنهم من اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة، بعد أن يصور لها وجها وعينيين وأنفاً وفما، ويمسك بيده كأنه سوط، ويربط الجريدة بسير أو خيط كأنه لجام ويجرى على هذه الصورة المضحكة وسط شوارع القاهرة وهو يضرب دابته[(٤)] ومنهم من اتخذ فى يديه سوارين من الحديد أو حمل فى عنقه طوقاً من الحديد ووضع فى أذنيه حلقاً وسار والأعلام على رأسه[(٥)].

وكثير منهم حلق رأسه ولحيته وحاجبيه، كما أزال رموش عينيه فبدوا فى صورة مخيفة تشبه المجانين ويزعمون أن ذلك ضرب من التقوى والعبادة[(٦)] وكانوا يجتذبون انتباه الناس بابتلاعهم المستحيل مثل الأسياخ والحيات وينغمسون فى جميع أنواع الخداع، فكان هؤلاء المجاذيب يقفزون ويلفون فى الهواء بين الجماهير المزدحمة الصاخبة وهم يطلقون صيحات خشنة ويضربون رؤوسهم[(٧)] وأشار ابن خلدون إلى هؤلاء المجاذيب بقوله: "ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين"[(٨)]، وعلى نفس المنوال وصف البعض هيئة أحد رجال الصوفية المجاذيب قائلاً "أنه شيخ

---

(١) ودرويش، كلمة فارسية معناها "الفقير" أو "المكتفى بالقليل" أو نحو ذلك، وأصبح الدرويش هو الرجل الذى يلبس خرقة الصوف ويأخذ نفسه بطائفة من العادات والأساليب تجعل لحياته هذا الطابع المعروف، والدروشة كغيرها من الحركات الروحية التى ظهرت فى الإسلام نوع من الأخوة الدينية.. للمزيد انظر عبد اللطيف حمزة الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ص ١٤٠.

(٢) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٨٣.

(٣) الذهبى، تاريخ الإسلام، جـ ٣٢ ، ص ٧٥ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٣ ، ص ٣٢١؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى ، ص ١٨٤.

(٤) السخاوى، الذيل على رفع الأصر، ص ٣٧ ؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٨٤.

(٥) ابن الحاج، المدخل، جـ٣ ، ص ١٧٩ ، ٢٠٥

(٦) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٨٣ ؛طافور، رحلة طافور، ص ٦٣.

(٧) آن وولف، كم تبعد القاهرة، ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٦م ، ص١٨.

(٨) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، جـ١ ، ص ٤٣١ ؛ سعيد عاشور ، مصر فى عصر المماليك البحرية، ص ١٨٦.

مسن فقير حرفوش مكشوف الرأس منفوش الشعر، عليه دلق دقيق، بالى الخلقة رقيق قد تمكن منه الوسخ وبنت فيه ورسخ..." [١].

وقد أعتبر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور أن هؤلاء المجاذيب هم طائفة القلندرية أو القرندية[٢]، مستنداً فى ذلك إلى ما ذكره ابن بطوطة : "بأنه شاهد زاوية لهم فى دمياط، وقال عنهم : "وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم[٣].

هذا وقد أحاطهم الناس بهالة كبيرة من القدرات والمعجزات والاعتقاد فى كل حركاتهم وسكناتهم[٤] وهو ما آثار استغراب عدد من المستشرقين خاصة وليم لين؛ وذلك بقوله: " ولم يكن المصريون يظهرون احتراماً خرافياً للكائنات الوهمية فحسب، وإنما يجاوزون فى ذلك بعض أفراد البشر مثلهم، وكثير ما يكون ذلك التقديس إلى أقل الناس استحقاقاً له، فيعتبرون الأبله أو المجنون مخلوقاً عقله فى السماء وجسده يختلط بالبشر، ويعدونه لذلك ولياً ، ومهما ارتكب الولى المشهور من الخطايا، و كثير منهم يخالفون الدين ، فهى لا تؤثر على قداسته إذ تعد نتيجة تجرد عقله من الأشياء الدنيوية، فروحه أو قواه العقلية كلها مستغرقة فى التقوى، ولذلك تترك شهواته بلا رقيب ويحبس المجانين الخطرون ، أما هؤلاء الذين لا خطر منهم فيعدون أولياء ،وأكثر أولياء مصر المشهورين معتوهون بلهاء أو خداعون ، ويسير بعضهم عراة تقريباً ، ويتمتعون باحترام زائد ولا يشعر العامة بأى عار من هذه الأعمال التى يندر مع ذلك حدوثها[٥]، وعلل الشعرانى ذهاب

---

(١) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوك، جـ١ ، ص ٢٠٣- ٢٠٤ ؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٧٨.

(٢) القلندرية، كلمة أعجمية بمعنى المحلقين، وهم فرقة صوفية يحلقون رؤوسهم وشواربهم وحواجبهم ، وكانت هذه الفرقة مكروهة من الفقهاء المسلمين وعلمائهم، ولقد أنشأ الشيخ حسن القلندرى الجوالقى، أحد فقراء العجم القلندرية زاوية القلندرية وموضع هذه الزاوية خارج باب النصر من الجمعة التى فيها الترب والمقابر بالقاهرة، وقد جاء الشيخ حسن إلى الديار المصرية، وتقدم عند أمراء الدولة التركية واقبلوا عليه واعتقدوه، للمزيد انظر، المقريزى المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٨١٣ ؛ السلوك، جـ١، ص ٦٥٥ حاشية ٤ ؛سعيد عاشور ،المجتمع المصري،ص١٨٤؛ محمد أحمد دهمان، معجم الالفاظ التاريخية فى العصر المملوكى، دار الفكر القاهرة حـ١٢٥؛ محمود الحويرى ، مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٩٥، محمد رجب النجار، حكايات االشطار والعيارين فى التراث العربى، المجلس الوطنى للثقافة الكويت١٩٨١م، ص ١٨٣.

(٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، حـ١ ، ص ٥٢ ؛ ابن الحاج، المدخل ، جـ٣ ، ص ١٩٢.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، جـ١ ، ص ٤٣١.

(٥) وليم لين، المصريون المحدثون ، جـ١ ، ص ٢٥٨ ؛ آن وولف، كم تبعد القاهرة، ص ١٨١ ، آدم صبرة، الفقر والإحسان ، ص ٣٩.

عقلهم بالتجلى الإلهى الذى آتاهم على غفلة فذهب بعقولهم وأن روحانيتهم اللطيفة عرجت إلى السماء ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها، وجعلهم الشعرانى على ثلاثة أقسام تبعاً للوارد الإلهى والعقل[١] وتكون حالة المجذوب بحسب الحالة التى جذب فى أثنائها، فإن جذب فى حالة قبض أى اكتئاب فعمره كله قبض وإن جذب فى حالة بسط فعمره كله بسط وضحك[٢].

وحظى هؤلاء المجاذيب باحترام شديد وتبجيل كبير، فكانوا يمشون فى شوارع القاهرة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، وهم يأخذون كل ما يحتاجون للعيش من الدكاكين ولا يرفض أحد لهم طلباً ؛ لأنهم محل احترام غير عادى من جانب العامة، فتجتمع عليهم النساء والرجال والشبان غالباً وقد يدخلونهم بيوتهم[٣]، وساد اعتقاد بين الناس بأن المجاذيب يعيشون فى عالم آخر، فنرى أحدهم ماشياً وهو راكب، وتراه يأكل فى رمضان وهو صائم لم يفطر، وتراه عارياً وهو مرتد لثيابه، والشاهد على ذلك ما ذكره ابن تغرى بردى بقوله: "إن البجائى المعتقد المجذوب كان يفطر فى رمضان، ولا يتوضأ ولا يصلى، ويتغوط فى مجلسه، ويتكلم بكلام لا يفهم، وكان أهل مصر يعتقدون فيه اعتقاداً عظيماً ويتعصبون له، ويدعون أنه من أولياء الله... وكان الناس يحضرون إليه فوجاً فوجاً ويتفاءلون بكلامه، ويعتقدون بركته من الرجال والنساء[٤].

أضف إلى ذلك أن الناس كانوا يقابلون هذا الاستهتار من جانب المجاذيب بالرضا والاغتباط ؛لأن الأولياء فى عرف الكثيرين قد سقطت عنهم التكاليف الدينية ،فقد عدهم ابن خلدون نوعاً من الأولياء مع سقوط التكاليف عنهم، إلا أنه عاد فاعتبرهم دون مرتبة الإنسان فلا يلحقون بالأولياء[٥] فجاز لهم ما حرم على غيرهم ويرون أنهم قوم آتاهم الله من فضله وخصهم بعنايته، وأودع فيهم أسرار الطهارة والقداسة، وقد يكون أولئك المجاذيب والمجانين فى حالة من ضعف العقل، وقلة الفهم، ولكن عامة الناس اعتقدوا أن روحانيتهم قد عرجت إلى السماء، ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منهم، ومن ثم غضوا الطرف عن فعل أولئك الأولياء فلا

(١) الشعرانى، اليواقيت والجواهر، المطبعة الأزهرية، الطبعة الثانية ، ١٣٠٨ هـ، ص ١٥٥ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٦٠.
(٢) الشعرانى، اليواقيت والجواهر ، ص ١٥٦.
(٣) ابن الحاج، المدخل ، جـ٣ ص ٢٠٤-٢٠٥؛ الادفوى، الطالع السعيد، ص ٦٤٠- ٦٤١ ؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان ، ص ٥١.
(٤) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ١٢، ص ٣١٣
(٥) ابن خلدون، المقدمة، جـ٣ ، ص ٣٢١.

يأبهون مثلاً ، إذا ساروا فى الطريق وليس عليهم من الثياب حتى ما يستروا عوراتهم أو حلقوا رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم[١].

وتجدر الإشارة إلي أن المصريين حملوا احتراماً وتقديساً للأولياء المتوفين أكثر مما يحملون للأحياء منهم، واستمر الاعتقاد فى الأولياء- بعد مماتهم- فى النفع والضر وعمل أهل الدولة على كسب رضاهم، ويحرص أتباع الوالى على تشييعه فى جنازة حافلة تكريماً له، ثم يقام عليه ضريحاً وتبنى عليه قبة تعلن عنه تحتها[٢]، فحفل العصر المملوكى بكثير من الأضرحة والقباب التى جاءت ضرباً من البدع، بما توحى به من تعظيم الأموات وقصدهم بالزيارة والطواف والتمسح بالأضرحة، استمراراً للمعتقدات الباطلة فى التماس البركة، وانتشار دجل الأتباع والمريدين ومعيشة العاطلين على أموال صناديق النزور التى يدفعها زوارهم للدعاء والمسألة وطلب الرضا من الميت بجوار الاضرحة وتحت القباب أو الاعتكاف بها ونسج الخرافات لكسب الأتباع والمريدين، وبنى الأمراء للمشايخ بعد الممات الترب الجليلة بالقرافة ومزارات الأولياء محبة وتقرباً والتماساً للبركة وطلب الاستغاثة[٣].

وتوثقت علاقة السلاطين – والأمراء- بمريديهم ومعتقديهم من الشيوخ وبطرقهم، وحظى بعضهم بالقرب من السلاطين ودعوهم إلى اجتماعاتهم للمشورة واستطلاع الأمور والتماس البركة، وتذكر المصادر المملوكية عدداً من السلاطين الملهمين بهؤلاء الأولياء، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، السلطان الظاهر بيبرس والذى كان له اعتقاد فى الشيخ الخضر[٤]* ، كما أن السلطان لاجين كان يعتقد فى الشيخ محمد بن مسعود الغزى[٥] وكان السلطان بيبرس الجاشنكير شديد الاعتقاد للشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنجى[٦] والسلطان برقوق كان له اعتقاد فى

---

(١) عصمت محمد حسن ، جوانب من الحياة الاجتماعية، ص ١٧١؛ إدريس شاه، الصوفيون، ترجمة بيومى قنديل، المركز قومى للترجمة القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ٢٠١٦م، ص ٤٢٠.

(٢) مثل قبة الشيخ الصوفى زين الدين يوسف من أسرة بنى أمية ت/ ٦٩٧هـ، ١٢٩٧م ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١ ، ص ١١٩ ، إسماعيل عبد المنعم محمد قاسم، الأمراض الاجتماعية بالطبقة الأرستقراطية المملوكية ص ٢٤٩؛ وليم لين، المصريون المحدثون، جـ١ ، ص ٢٦٦.

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور جـ١ ق ١ ، ص ٤٦٧ ؛ توفيق الطويل، التصوف فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة جـ١ ، ص ١٤١.

(٤) ولقد تحدثت بشكل تفصيلى عن العلاقة بينهم فى الفصل الخامس .

(٥) ابن عماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٥ ، ص ٣٤٧ ؛ محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى الأول، جـ١ ، ص ١٩٣.

(٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٨١١.

صندل المنجكى[١]، وأيضاً اعتقد فى كل من الشيخ المعتقد[٢] طلحة، والشيخ المعتقد أبو بكر البجائى وأوصى أن يدفن تحت أرجلهما[٣].

وعلى نفس النهج اعتقد عدد من الأمراء فى مقدرة هؤلاء الأولياء والمشايخ، فيشير البقاعى "إلى الشيخ عيسى الساحر الذي قصده الأمراء خاصة الأمير بردبك الدويدار، وشرع كلما امتد الزمان زاد فى تعظيمه، ويقال: إنه كان يتقرب إليه بنقل أخبار من يعاشره من الرؤساء ويخبره بدقائق أمورهم، وكذا كان يفعل مع كل واحد منهم ثم عظمه ناظر الخاص.. ولم يبق رئيس إلا وله عنده منزلة، وسافر مع الأمير بردبك إلى القدس عندما توجه إليها ثم إلى دمشق وحلب..."[٤] كذلك تردد الأمير سيف الدين يلملك الخاصكى على الشيخ أبى عبد الله بن المرشدى و كان يتقابل معه... [٥].

وربما كان لاعتقاد السلاطين والأمراء فى هؤلاء الأولياء ما شجع المصريين على الاعتقاد فيهم واللجوء إليهم لمساعدتهم فى قضاء حوائجهم؛ ولذلك نجد أن شهرة الشيخ تزداد بنجاحه فى إقناع السلطان وأمرائه بقبول شفاعته فى قضاء حوائج الناس وحسبنا دليلاً على ذلك "أن السلطان بيبرس الجاشنكير، كان ممن يعتقدون فى أحد الأولياء، ولما تولى سلطنة مصر رفع قدره وأكرم محله، فهرع الناس إليه وتوسلوا به فى قضاء حوائجهم[٦].

كذلك نجد الملك الظاهر برقوق كان يعتقد أيضاً فى أحد الأولياء، وكان يبالغ فى تعظيمه واحترامه ومن ثم هرع الناس إلى زيارته وقد أكثروا من مدحه والثناء عليه.. فقويت الرغبة فى

---

(١) كان الناس يترددون إلى زيارته وزاره الملك الظاهر برقوق عدة مرات وكذلك الأمراء وكان يتكلم بكلام كثير لا يفهمه أحد من الحاضرين وبألفاظ غريبة وتوفى سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٧ ، ص ٥٢٨.

(٢) يتردد لفظ المعتقد بفتح القاف، كثيراً فى المصادر التاريخية، حيث يوصف الكثيرون بلفظ حسن الاعتقاد.

(٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٩٢٠- ٩٢١؛ ابن حجر ، إنباء الغمر، جـ٢ ، ص ٥٧ ؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى جـ٣ ، ص ٣٣٩؛ السخاوى، الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص ٢٨٧.

(٤) وكان ذلك سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م ، البقاعى، إظهار العصر لإسرار أهل العصر، تحقيق محمد سالم العوضى، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، جـ٢ ، ص ٢١٤.

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، جـ٦ ، ص ١٤ ، ١٥.

(٦) السخاوى، تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٨٦م ، الطبعة الثانية، ص ٣٢..

اعتقاده[١] وعندئذ تهافت الناس فى الذهاب للأوليا ء والمشايخ بأعداد كبيرة ،والشاهد على ذلك أن البجائى المعتقد كان يحضر إليه أعداد ضخمة على حد قول ابن تغرى بردى "وكان أهل مصر يعتقدون فيه اعتقاداً عظيماً ويتعصبون له، ويدعون أنه من أوليا ء الله، وكان يسكن فى دكان أمام جامع الأزهر فى السوق، وكان الناس يحضرون إليه فوجاً فوجاً ويتفا ءلون بكلامه ويعتقدون بركته"[٢].كما جاءت أفواج ضخمة للشيخ درويش ت ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م، "وقد قصده الناس بالزيارة من كل جهة وتبركوا بإشارته ودعائه وتناقلوا عنه كرامات وخوارق...."[٣].

كذلك اعتقدت نساء الأمراء وأكابر الدولة فى الأولياء وقصدوهم بالهدايا والنذور، فيذكر المقريزى بأن الست الجليلة خوند أم الملك الأشرف شعبان كان لها اعتقاد فى أهل الخير ومحبة فى الصالحين..." [٤]، كما كانت خوند الأحمدية زوجة السلطان سيف الدين خشقدم تحب زيارة الأوليا ء لاعتقادها ألشديد فيهم، فقد سافرت سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١م إلى طندتا بالغربية لزيارة سيدى أحمد البدوى"[٥] كذلك أشار الشعرانى بأن الشيخ عمر الكردي كان يقصده الخوندات والأكابر ويأتون له بالأطعمة الفاخرة و الحلوات[٦].

وثمة أمر آخر مهم، وهو أن الأوليا ء الصوفية لم يكونوا من الرجال فقط، بل إن المرأة قد نجحت فى أن تكون هى الأخرى شيخة ولها من يعتقدها ويحرص على زيارتها، وإن كان ذلك الأمر قد استنكره بعض المعاصرين مثل الناقد الاجتماعى ابن الحاج وذلك بقوله :"وبعضهم يفعل فعلاً قبيحاً شنيعاً، وهو ما أحدثوه من اعتقاد بعض النسوة وزيارتهن وهن على ما يعلم من قلة العلم بالسنة المطهرة.. إضافة لذلك ما تفعله من تسمى بالشيخة من الذكر جماعة بأصوات النسوة وفى أصواتهن من العورات ما لا ينحصر"[٧]. بل تخطى الأمر ذلك أن اعتقد الناس فى طفلة صغيرة، فقد روى أن أهل القاهرة كانوا يعتقدون فى طفلة صغيرة قيل إنها كانت ترى رسول الله صلى الله

---

(١) السخاوى، تحفة الأحباب ، ص ٤٣؛ محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية، ص ٣٢.

(٢) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ١٢ ، ص ٣١٣.

(٣) ابن تغرى بردى، نفسه، جـ ٧ ، ص ١٣٣- ١٣٤ .

(٤) المقريزى، الموعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثاني ص ٦٢٦

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١٦ ، ص ٢٦٩؛ السخاوى، الذيل التام على دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، مكتبة دار العروبة الكويت الطبعة الأول ١٩٩٢م ، جـ٢ ، ص ١٦٠.

(٦) الشعرانى، الطبقات الكبرى ، جـ٢ ، ص ١٦٦.

(٧) ابن الحاج، المدخل ، جـ٢ ، ص ١٣٢- ١٣٣ ؛ محمد حسن ، الأبعاد الاجتماعية، ص ٢٤.

عليه وسلم في المنام مرات عديدة، كما تناقل الناس قصصاً عن ظهور بعض الكرامات لها، مثل شفاء المقعد ورد البصر للأعمى، وقد توافد عليها أهل القاهرة من كل حدب وصوب"[١].

ولم يكن الاعتقاد "قاصراً على أولياء القاهرة فحسب ، بل امتد إلى غيرهم من أولياء الأقاليم الأخرى، مثلما حدث عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، عند قدوم "الشيخ الصالح المعتقد سيدى على البربرى المجذوب من الفيوم وظهرت له كرامات خارقة فهرع الناس إلى زيارته وبالغوا فى اعتقاده[٢]، والمثير أن الاعتقاد فى هؤلاء المشايخ وصل إلى حد غريب من التقديس، فنرى أحدهم قد قام فصلى، فلما فرغ من صلاته توجه إلى ناحية السيد أحمد البدوى وقال: " كن لى يا أبا الفرجات وتقبل عبادتى، ويسر لى رزقى، فقلت ما هذا الكلام، لا يقبل العبادة إلا الله تعالى، ولا يرزق الخلق إلا رب العالمين، وإنما سيدى أحمد البدوى رجل من أولياء الله تعالى... فقال لى: يا سيدى إنما أفعل ذلك عن شيخى الذى كان يقول لى قبل موته اقصد بعبادتك سيدى أحمد البدوى فقلت له: معاذ الله إنما هو مخلوق، والعبادة لا تكون إلا للخالق"[٣].

وكثيراً ما قصد الناس على اختلاف طبقاتهم مزارات الأولياء والمشايخ وبخاصة ذوي العاهات والأمراض الذين تزاحموا أمام أبوابهم طلباً للشفاء[٤]، وذلك حتى يتسنى لهم رؤيتهم واغتنام بركتهم؛ ولأنه برؤية بعض هؤلاء يحصل له من الفهم والحفظ وغيرهما ما قد يعجز الواصف عن وصفه.." [٥]وإذا دخل أحد أولئك الأولياء الحمام وحلق رأسه "تقاتل الناس على شعره يتبركون به ويجعلونه زخيرة عندهم..." [٦].

زيارة الأضرحة

هذا وقد خصص الناس أياماً بعينها لزيارة الأضرحة، فيوم الاثنين لزيارة السيد الحسين، ويوم الأربعاء لزيارة السيدة نفسية[٧] معتقدين أن الذهاب إلى قبر السيدة نفيسة والدعاء عندها

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٤ ، ص ١٦٥.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص ١٦٠ ؛ الأدفوى، الطالع السعيد، ص ١٣٢- ١٣٣.

(٣) الشربينى، هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف بولاق ١٢٧٤هـ ، ص ١٣٢.

(٤) السخاوى، التبر المسبوك، جـ٢ ، ص١٠٨؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٠.

(٥) ابن الحاج، المدخل ، جـ٢ ، ص ١٣١.

(٦) الشعرانى، الطبقات الكبرى، جـ٢ ، ص ١٣١.

(٧) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢ ، ص ١٧.

مجاب لا محال لذلك يقول المقريزي: "وقبر السيدة نفسية أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر..." [١]، ويصف ابن جبير ما شاهده من أفعال الناس عند مشهد الحسين واستسلامهم للقبر وتمسحهم بالكسوة التي عليه وطوافهم حوله متوسلين إلى الله تعالى ببركة المشهد الحسيني سواء لتحقيق رغبة في الإنجاب أو طلباً لرفع الدين، وكانوا يحملون معهم النذور..." [٢] ويطوفون بقبورهم كما يطوف الحجاج حول الكعبة وكانوا بفعلهم ذلك يستقضون من الله حوائجهم ويشفون مرضاهم، ويلتمسون البركة من هذا القبر، ويتقربون بهذا العمل إلى الله، فيذكر الأدفوي أن الناس كانوا يلتمسون البركة من زيارة قبر عبد الرحيم القنائي، قائلاً " وأهل بلاده متفقون على تجربة الدعاء عند قبره يوم الأربعاء، يمشي الانسان حافياً مكشوف الرأس وقت الظهر، ويدعون أنه ما حصلت لإنسان ضائقة وفعل ذلك إلا وفرج الله عنه..." [٣].

أضف لتلك الممارسات الخرافية، تكالب الناس على الأولياء ومزاراتهم حيث هناك قصة خرافية،ذكرها المقريزي نصها : "أنه في سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م أتفق بظاهر القاهر أمر اعتنى بضبطه، وهو أنه كان بناحية اللوق كوم يعرف بكوم الذيل يأوى إليه أهل الفسوق من أوباش العامة، فأخذ بعضهم منه موضعاً ليبني له فيه بيتاً ، فشرع في نقل التراب منه، فبينما هو يحفر إذ ظهر له إناء فخار فيه مكاتيب دار كانت في هذه البقعة، وتدل على أنه كان به أيضاً مسجد، ورأى آثار البنيان، فأشاع بعض شياطين العامة، وكان يقال له شعيب، أنه رأى في نومه أن هذا البنيان على قبر بعض الصحابة رضي الله عنهم، وأن من كراماته أن يقيم المعقد ويرد بصر الأعمى، وصار يصيح ويهلل ويظهر اختلال عقله فاجتمعت عليه الغوغاء وأكثروا من الصياح وتناولوا تلك الأرض بالحفر حتى نزلوا فيها نحو قامتين، فإذا مسجد له محراب، فزاد بنشاطهم، وفرحوا فرحاً كبيراً، وباتوا في ذكر وتسبيح وأصبحوا وجمعهم نحو الألف إنسان، فشالوا ذلك الكوم وساعدهم النساء حتى إن المرأة كانت تشيل التراب في مقنعها ، وآتاهم الناس من كل حدب وصوب ورفعوا معهم التراب في أقبيتهم وعمائمهم، والقوة في الكيمان، بحيث تهيأ لهم

---

(١) ومن بين المواضع التي يعتقد أنها لا يرد فيها الدعاء وهي سجن نبي الله يوسف عليه السلام، ومسجد سيدنا موسى عليه السلام، ومشهد السيدة نفيسة، والمخدع الذي على يسار المصلي في قبلة مسجد الاقدام بالقرافة فهذه المواضع لم يزل المصريون، ممن أصابتهم مصيبة أو لحقتهم فاقة أو جائحة يمضون إلى أحدها، فيدعون الله تعالى فيستجيب لهم" المقريزي، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثاني، ص٨٤.

(٢) ابن جبير، رحلة بن جبير، ص ١٩.

(٣) الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١م ، ص ٣٠٠.

فى يوم واحد ما لا تفى مدة شهر بنقله ،وحفر شعيب حفرة كبيرة، وزعم أنها موضع الصحابى، فخرج إليه أهل القاهرة ومصر أفواجاً ، وركب إليه نساء الأمراء والأعيان فيأخذهن شعيب وينزلهن تلك الحفرة لزيارتها، وما منهن إلا من تدفع الدنانير والدراهم.

وأشاع {شعيب} أنه أقام الزمن وعافى المرضي، ورد أبصار العميان { فى هذه الحفرة}؛ وصار يأخذ جماعة ممن يظهر أنهم من أهل العاهات وينزل بهم إلى الحفرة ثم يخرجهم وهم يسبحون "الله أكبر الله أكبر" ويزعمون أنهم قد زال ما كان بهم فافتتن الناس بتلك الحفرة، ونزلت أم السلطان لزيارتها، ولم تبق امرأة مشهورة حتى أتتها.

وصار للناس هناك مجتمع عظيم، بحيث يسرج به في كل ليلة نحو مائتى قنديل، ومن الشموع الموكبية شيء كثير. فقام القضاة فى ذلك مع الأمير أرغون العلائى والأمير الحاج آل ملك النائب وقبحوا هذا الفعل، وخوفوا عاقبته، حتى رسم لوالى القاهرة أن يتوجه إلى مكان الحفرة ويكشف أمرها، فإن كان فيها مقبور يحمل إلى مقابر المسلمين ويدفن به سراً، ثم يعفى الموضع، فلما مضى إليه ثارت به العامة تريد رجمه، وصاحوا عليه بالانكسار الشنيع حتى رماهم [الجند] بالنشاب فتفرقوا، وهرب شعيب ورفيقه العجوى، وما زال الحفارون يعملون فى ذلك المكان إلى أن انتهوا فيه إلى سرداب حمام ولم يجدوا هناك قبراً ولا مقبوراً فطموه بالتراب وانصرفوا، وقد انحلت عزائم الناس عنه، بعدما افتتنوا به وضلوا ضلالا بعيداً وجمع شعيب ورفيقه كثيراً من المال و الثياب شيئاً طائلاً"[1].

ويتضح من الرواية السابقة، أن المجتمع كان مهيئاً لقبول تلك الخرافة أو بمثابة وعاء لقبول تلك الخزعبلات، خاصة فى عصر سادت فيه الخرافة والشعوذة، كما يتضح أن النساء قد أخذن زمام المبادرة فى الترويج لهذه الخرافة وذلك على حد قول المقريزى: "وكانت المرأة تشيل التراب فى مقنعها.. وركب إليه نساء الأمراء والأعيان... ونزلت أم السلطان لزيارتها، ولم تبق امرأة مشهورة حتى أتتها...".

ولم يكن أمراء المماليك وسلاطينهم أقل اعتقاداً فى أولئك المجاذيب والأولياء من عامة الشعب بل اعتاد بعض السلاطين زيارة أضرحة الأولياء والمشايخ خاصة إذا ما كان فى نيتهم الإقدام على عمل مهم مثل: الخروج فى الحملات العسكرية، وذلك لاعتقادهم فى بركتهم، فقد توجه السلطان الغورى فى شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م إلى البلاد الشامية على رأس

---

(١) المقريزى، السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص ٦٤٩ – ٦٥٠.

قواته وأمرائه ، فقد نزل أولاً من القلعة وتوجه إلى القرافة وزار قبر الامام الشافعى والإمام الليث رضى الله عنهما وبصحبته ولده..."[1] ولم يكتفى بذلك السلطان الغورى بل حرص على أن يصطحب معه خلال حملته خليفة السيد البدوى وخليفة السيد الرفاعى ومن تعلل منهما بالمرض ألزمه السلطان بالسفر طلباً للبركة..." [2].

كما اشتهر عن السلطان قايتباى كثرة زياراته لأضرحة الأولياء، ففى سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م "ركب ونزل إلى القرافة وزار الأولياء وعاد من على قناطر السباع..." [3] وفى سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م "جاءت الأخبار بأن السلطان دخل إلى دسوق وزار سيدى ابراهيم الدسوقى، وهو ماشي وحوله الأمراء، واستمر السلطان غائباً فى هذه السفرة..." [4] ، وفى سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م زار سيدى أحمد البدوى..." [5].

وكان إذا توفى أحد أولئك الأولياء المجاذيب، احتفل احتفالاً كبيراً بتشييعه ودفنه، وأحياناً يتولى تجهيزه ودفنه أحد كبار الأمراء ، وأحياناً يطلب بعض السلاطين أن يدفنوا إلى جوارهم وذلك على سبيل التبرك والشاهد على ذلك، فقد أوصى الظاهر برقوق أن يدفن تحت أرجل الشيخ علاء الدين السيرامي والشيخ طلحة والشيخ المعتقد أبو بكر البحائى[6]، كما تنافس الأمراء وأهل الزوايا وعامة الناس فى شراء ثياب الولى المتوفى للاحتفاظ بها على سبيل البركة [7] وبعد دفنه يواظب الناس على زيارة قبره للتبرك به والشاهد على ذلك ما أشار إليه المقريزى بقوله :"أن الشيخ المعتقد حسين بن إبراهيم بن على الجاكى، أقام الناس يتبركون بزيارة قبره وصار لهم هناك مجتمع

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥ ، ص٣٨؛ لطفى نصار، الدور السياسى للشعب المصرى فى عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه ، جماعة عين شمس، ١٩٦٧، ٣٦م.

(٢) ولعل استعانة الغورى برجال الصوفية فى معركة مرج دابق، أنه كان تيمناً بهم وتبركاً بدعائهم وقت الشدة، فعندما حمي وطيس المعركة التفت الغورى الى مشايخ الصوفية وقال لهم: "ادعوا لى الله بالنصر فهذا وقت دعائكم ، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٥ ، ص٧٠ ؛ البكرى، التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠٠٥م، ص٣٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٠- ١١.

(٤) ابن إياس، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٥٦.

(٥) ابن إياس، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٩٩.

(٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع، القسم الثانى ، ص ٩٢٠- ٩٢١.

(٧) العينى، عقد الجمان، جـ ٥ ، ص ٦٨.

عظيم فى كل يوم ويحملون إلى قبره النذور ويزعمون أن الدعاء عنده لا يرد..." [١].

واستتبع ذلك الاعتقاد الكبير فى الأولياء عناية فائقة بإحياء الموالد السنوية فى الجهة أو البلدة التى بها قبر الولى وذلك لتكريمهم وإحياء ذكراهم، بصرف النظر عن معرفة تاريخ مولدهم على وجه التحديد.

" الموالــد ":

يمكن تعريف المولد بأنه الاحتفال بيوم ميلاد ولى من أولياء الله بأنه فى الحقيقة لكل ولى أيام كثيرة يحتفل فيها بذكراه [٢] والغرض الأساسى الذى يقام "المولد" من أجله هو تكريم صاحبه وإحياء ذكراه بصرف النظر عن مراعاة اليوم الذى ولد فيه؛ لأن غالبية أولئك الأولياء لم يعرف تاريخ مولدهم على وجه التحديد كما لم يعرف شىء عنهم فى طفولتهم أو صباهم [٣].

وفى ظل الاعتقاد الراسخ لدى المصريين "بكرامات الأولياء" نجدهم قد حرصوا على إحياء الموالد السنوية للأولياء فى المكان الذى يوجد به قبر الولى، حيث كان الاحتفال بذكرى مولده الشاهد الملموس على أن هذا الولى ما زالت ذكراه حية فى القلوب، وما دام الناس يدعونه فى السراء والضراء، ويلتمسون لديه عونا على حل مشكلاتهم، ومن هنا فإن إحياء ذكرى مولده يعد أهم تكريم [٤].

---

(١) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع، القسم الثانى ، ص ٨١٨.

(٢) لا يتسع المجال هنا لذكر كل الموالد التى تقام فى مصر، فى حين أفاضت بعض الدراسات الحديثة بالحديث بشكل موسع عن هذه الموالد، ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال مولد السيد أحمد البدوى الذي له ثلاثة موالد وهى المولد الكبير فى شهر أكتوبر من كل عام، والميلاد ويحدد فى الأربعاء الأخير من ذى الحجة الشهر العربى، والمولد الرجبى أو الرجبيه وهو المولد الثالث ويحتفل به قبل الاحتفال بمولد الرسول وعادة يحدد له شهر ابريل من السنة الهجرية للمزيد انظر، سعيد عاشور ، السيد أحمد البدوى، ص ٢٥٨ وما بعدها ، مكفوسون، الموالد فى مصر، ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة د.ت، ص ٦٥ ؛ أحمد مصطفى ، الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٣ وما بعدها ؛ السيد محمد عطا ، إقليم الغربية، ص ٢٤٠ وما بعدها.

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٦٢ ؛ مجدى عبد الرشيد، القرية المصرية، ص ٢٩١؛ نيكولاس بيخمان ، الموالد والتصوف فى مصر، ترجمة رءوف مسعد، المركز القومى للترجمة القاهرة ٢٠٠٩م، ص ٢١.

(٤) مكفرسون ، الموالد فى مصر، ص ٦٥.

وعلى أية حال، انتشرت الموالد المتعددة للاحتفال بذكرى شيوخ الصوفية ممن وراهم الثرى، ودفنوا فى أضرحة كثيرة من أرض مصر آنذاك، وقد أصبحت تلك الموالد من أهم الاحتفالات الترفيهية فى حياة المصريين حيث يتواعدون عليه المولد من قبل إقامته بأيام ويتوجهون إليه أفواجاً[١] وبالطبع يقيم الصوفية حفلات الذكر والسماع، حيث يجتمع جماعة من الرجال ويكثرون من ذكر الله، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أنهم يوقعون ينشدون أشعاراً مع الطقطقة بالقضيب على شيء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يخر مغشياً[٢]، وتراه إذا دب معه الطرب حرك رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء وينادى ويبكى ويتخشع ويدخل ويخرج ويبسط يديه ويرفع رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها ويخرج الرغوه أى الزبد من فيه وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته"[٣] ويبدو أيضاً أن النساء اقتدين بالرجال فى الذكر جماعة يرفع أصواتهن كما يفعل الرجال... ويتمايلون، وزعقاتهم بتلك الطرق المعروفة عندهم، ويتمايلون مع كل صوت ويرجعون بحسب حال كل ذلك الصوت مع التكبير والضرب بأيديهم وأرجهلم على المنبر والكرسى وإظهار التحزن والبكاء..." [٤].

وإذا ألقينا نظرة فاحصة داخل تلك الموالد لوجدنا شيوع عدد من الخرافات فى هذه الموالد من بينها وجود شخص يطلق عليه "المشعوذ" وهو يعرض حيله لكى يحتال بها على الناس، فنجده يحرك الجرذان والخشب والعصافير ويدق الطبل، ويدلى الحبل ويبدل الحية مكان الحية، ويزرع البستان ويضرب بالمضرب والكبستان، ويجعل التراب حنطة، والأترجة بطة، ويثقب خد رفيقه ويخرج الحبال من ريقه ثم ينزل من فمه المصران[٥].

ومن خلال موالد المتصوفة نجد شخصية "هلال المنجم" وكتابه تخت الرمل وكرسيه واصطرلابه ، وهو شخص يأخذ الطالع للناس فيقول: " يا ساداتنا الكرام ، وأعيان الأنام، فإن هذا العام يحدث فيه حوادث وله أحكام؛ لأن فى هذه السنة يأذن الله للسحاب أن يتراكم ولأمواج البحار أن تتلاطم

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٣١٥؛ محمد حسن محمد حسن؛ الأبعاد الاجتماعية،ص٦١.

(٢) ابن الحاج، المدخل، جـ٣، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، السبكى ، معيد النعم، ص ٦٥؛ الشعرانى، لطائف المنن، ص ٥٠٩.

(٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ٢، ص ٦ ، ١١

(٤) ابن الحاج، المدخل ، جـ٢ ، ص ١١، ١٢ ؛ عرفه عبده على، موالد مصر المحروسة، دار عين للدراسات الانسانيةالقاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص٣٠.

(٥) ابن دانيال، خيال الظل، وتمثيليات ابن دانيال، دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، المؤسسة المصرية العامة القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٢٠٧-٢٠٨.

وللرياح أن تهب، ولحشرات الأرض أن تدب، وربما اختلفت الأسعار، ... ثم يأذن الله تعالى للبرق أن يلمع وللغيث أن يهمع، فيا سعادة من خزن الذهب والفضة ويا شقاوة من لا يقدر من الحطام على قبضة، فبشروا من كان أول اسمه قاف واحذروا صاحب السين والكاف...." [1].

كذلك شخصية "ضارب المندل" الذى يعرض حيله التى وقع فى حبالها الكثيرون من المصريين ، فنجده يكتب الأحجبة الحروز ويقول عنها : "جمعت فى هذه الأوراق زبد العزايم والأسماء والأوفاق، ومنافع سور القرآن العظيم العزيز، ثم يخرج الحروز لجمهوره من المشاهدين ويقول: "هذا باب للعين والقطرة والحمى والحمرة، وهذا باب عقد اللسان الأضواء، وهذا باب للتوابع فى الأولاد ، وهذا باب لاستخراج المسجون وإبراء المجنون، وهذا باب لحل المعقود ، وبر المكبود ، وهذا باب للجاه والقبول" ثم ينشد قائلاً فى فائدة تلك الحروز:

وكم حامل لما رأته تخلصت   وأحضرها الطلق الذى قد تعسرا
وكم أريد بالسحر قد كان أكمها   فلما رأى ما فيه فى الحال أبصرا
وذات نزيف بالدماء رأت   بهعيانا وقد من الدم أبحرا
وأرملة عطل من الزواج قد غدا   به أمرها بالخاطبين ميسرا [2]

مزاعم الكرامات:

الكرامة [3] هى الأمر الخارق لما تعود عليه البشر أن يجدوه مقبولاً عقلًا ومطابقاً لقوانين ونظم الطبيعة والحياة، غير أن هذا الأمر الخارق لما تعود عليه البشر لا يقترن بدعوى النبوة ولا إيحاء

(١) ابن دانيال، خيال الظل، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) ابن دانيال، خيال الظل ، ص ٢١١ - ٢١٣ ؛ محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية، ص ١١٣؛ مكفرسون ، الموالد فى مصر، ص ١١٦.

(٣) الكرامة لغة، قال الجوهرى الكرم ضد اللؤم وقال الكرامة أيضاً طبق يوضع على رأس الجن ويقال: حمل إليه الكرام وهو مثل النزل وقال ابن منظور، الكريم من صفات الله واسمائه وهو الكثير الخير الجواد المعطى الذى لا ينفذ عطاؤه ، للمزيد انظر ابى القاسم اللاكائى، كرامات أولياء الله عز وجل، تحقيق أحمد سعيد حمدان، دار طيبة للنشر السعودية الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، ص ١٤؛ ابن منظور، لسان العرب، جـ١٢ ، ص ٥١٠.

لها، ولا سحر دجال، وإنما يخص الله أولياءه العارفين بها[1].

وقسم ابن عربى فى الفتوحات المكية [2] الكرامات إلى قسمين: حسية ومعنوية، أما الكرامات الحسية: فهى للعامة ومن أمثلتها، الإخبار بالماضى والحاضر والمستقبل والمشى على الماء و مساك النار وطى الأرض ونحو ذلك، أما الكرامات المعنوية فهى للخاصة وتنحصر فى التمسك بآداب الشريعة قولاً وعملاً[3]، واهتم الأولياء بالكرامات الحسية دون المعنوية، لأنهم وجهوا اهتمامهم نحو نشر الشائعات عن كراماتهم الحسية لأنها أقرب إلى مفاهيم الناس فى عصور الجهل، وتناسى معظمهم الكرامات المعنوية بما فيها من معان روحية سامية أهمها :ضبط النفس وخشية الله والامتثال لشريعته وتعاليمه وكان السبب فى ذلك أنهم اعتقدوا أن الولاية على الأقل فى نظر الناس- لا تهتم إلا بإظهار آثار القدرة المحسوسة على يديه[4].

وبداية تجدر الإشارة إلى أن الأخذ بمبدأ الكرامات كان معتدلاً فى أول الأمر، لكن سرعان، ما تغير ذلك بانحراف الصوفية عن مسارها القويم بعد سيطرة الدراويش المجاذيب ، الذين عدوا أنفسهم ورثة الأنبياء، بل وضعوا أنفسهم على قدم المساواة مع الانبياء وبلغ الأمر ببعضهم أن اعتبروا الولى أعظم مكانة من النبى، فقد نسب إلي عبد القادر الجيلانى أنه قال: "أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب وأوتينا ما لم تؤتوا"[5] وعلى الرغم من كون غالبية الصوفية قد انحرفت عن جادة الصواب ، فإنه ينبغى أن نذكر دائماً أن هناك قلة منهم حافظت على صلاحها ومبادئها المثالية النقية، وهؤلاء ظلت زواياهم "مركزاً للعبادة والتثقيف وتطهير القلوب وتنقية الضمائر وتهيئة النفوس بعد تصفيتها لإذاعة الخير والمعروف[6].

---

(١) عبد الوهاب الشعرانى، ارشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء، تحقيق محمد صبرى الدالى، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٤م ، ص ٦٥ ؛ عامر النجار، الطرق الصوفية فى مصر، دار المعارف القاهرة الطبعة السادسة، ١٩٩٥م ، ص٤٨ ؛ حسن الشرقاوى، معجم الألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار القاهرة ١٩٨٧م ، ص ٢٤٠.

(٢) ابن عربى، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى، ابراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢م، جـ ٣، صـ٩٨ ؛ ابى يعقوب التادلى، التشوف إلى رجال التصوف ؛ تحقيق أحمد توفيق، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١١م ، ص ٧٤.

(٣) عامر النجار، الطرق الصوفية، ص ٤٨ – ٤٩.

(٤) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى شيخ وطريقة ، ص ١٤٠.

(٥) الشعرانى، الجواهر والدرر، ص ٢٧٨.

(٦) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ٢٣٣.

والواقع أن الناس فى العصر المملوكى كانوا على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها، إذ كان مجرد إشاعة كرامة كفيلة بتوجه الناس جميعهم إلى صاحبها زائرين ومعتقدين ومتوسلين، لأن عقلية الشعب المصرى تستريح وتميل إلى الاعتقاد فى الأولياء وكراماتهم اعتقاداً متأصلاً راسخاً فى فكرهم منذ أزمان بعيدة، ويبدو أيضاً أن هناك عناصر قديمة الجذور متأصلة فى نفسية الشعب المصرى، تجعلها تؤمن بهذه الخرافات حول قدرة الأولياء على التصرف فى الأكوان وعمل المستحيل كما يقال[1]، ولعل الذين كانوا يعملون على ترويج الأساطير والخرافات حول الشيوخ على دراية تامة بنفسية الشعب وعقليته؛ ولهذا نجحوا فى تعميق وتأهيل وترويج هذه الاشاعات الخرافية حول الأولياء.

وارتبط بالفكر الصوفى ظهور كرامات للأولياء والمشايخ ورددها أتباعهم من الناس؛ لأنهم يعتقدون أنه إذا كانت البلاد يتحكم فيها حكام سلاطين فى الظاهر؛ فإن الأولياء يحكمونها من الباطن وغالباً ما يكون حكام الباطن من الفقراء أصحاب الحرف وفى هذا عزاء كبير لهم لأنهم يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الدنيا، ومن المؤكد أن هذه الوساوس لا تسود إلا فى عصور الضعف السياسى والاقتصادى كما سنرى فى أواخر العصور المملوكي، حين تصبح الأمة وهى فارغة الأيدى من سلطان الجاه والمال، ومن ذلك رأينا المسلمين فى عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع، مع أن الصلاح كان من أغلى الصفات عليهم، ثم رأيناهم فى عصور الانحطاط يصدقون كل شيء ويلقون زمامهم إلى كل مخلوق، عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء[2].

وسنلقى الضوء على عدد من الكرامات التى شاعت بين الناس واعتقدوها[3]*.

(١) وهو ما اعتبره الدكتور عامر النجار أن له جذوراً فرعونية بقوله: "كانت هناك عناصر من الديانات الفرعونية وغير الفرعونية تتصل بنفوس الشعب من الخضوع للكهنة والإذعان لسيطرتهم، ثم كان صنيع الفاطميين فى إثارة تلك المشاعر، وربما أبدوا من مهارة فى ربط عقلية الشعب بسكان الأضرحة والقبور، وتلمس الخير والبركة عند عتبات الشيوخ.. وكان أن توالى على مصر كثير من المحن القاسية بوقوع المجاعات الساحقة وفتك الأوبئة، فكان هذا كله مما هيأ عقلية الشعب للانحلال وجعلها أطوع ما تكون لتقبل كل ما تقدم إليها، مما تتبين فيه روح الأمل والعزاء وراحة الركون والاستسلام ، عامر النجار، الطرق الصوفية فى مصر، ص ٥٢.

(٢) زكى مبارك، التصوف الاسلامى ، جـ٢ ، ص ٢٨٤؛ عامر النجار ، الطرق الصوفيبة، ص ٥٢.

(٣) * تمتلىء كتب الصوفية وعدد من المصادر التاريخية بأخبار الكرامات والخوارق ، والتى لا يتسع المجال هنا لذكرها كلها.

ومن بين تلك الكرامات :"إحياء الموتى وإماتة الأحياء" وهذه أعلى أنواع الكرامات، وهناك قصة تواتر ذكرها، خلاصتها: "أن إمرأة مات لها ولد صغير فجاءت إلى السيد البدوى مستنجدة به قائلة "يا سيدى ما أعرف ولدى إلا منك" وظلت تستنجد به وهى تقول: "توسلت إليك بالله ورسوله" وتمضى هذه الكرامة الخيالية لتقول إن السيد البدوى رق لحال المرأة ومد يده إلى ولدها، فأحياه الله تعالى ببركة دعائه وببركة جده صلى الله عليه وسلم"[١] وعلى الجانب الآخر وجدت كرامات تنسب للسيد البدوى يميت فيها الأحياء، فحوى الكرامة أن السيد البدوى استطاع أن يميت سبعة آلاف جمل – هى جملة جمال فاطمة بنت برى بكلمة واحدة، إذ قال لها :"موتى" فماتت جميعها فى الحال، ثم أحياها بعد ذلك فى طرفة عين[٢]، كذلك ما أشيع بين الناس ، من أن الشيخ أبى الحسن الصباغ كان يتوضأ على ساحل البحر، فسمع صياح الناس، فسأل الشيخ عن ذلك فقيل له قد أخذ التمساح رجلاً من الساحل فترك الشيخ الوضوء وأسرع إلى المكان وقد توسط به لجهة البحر فصاح الشيخ بالتمساح أن يقف فوقف مكانه لا يتحرك يميناً ولا شمالاً فعبر الشيخ على متن الماء وهو يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم" وكأنه يمر على وجه الأرض وكأن البحر فى نهاية ذيادته حتى انتهى إلى التمساح، فقال له: ألقى الرجل فألقاه من فيه.. وقد هلك الرجل فخذه من مسكة التمساح، فوضع الشيخ يده على التمساح وقال مت فمات فى موضعه..." [٣].

وفى الصدد نفسه ذكرت عدة كرامات عن قدرة الأولياء والمشايخ على "طى الأرض" [٤]، فقد روى عن أبي العباس المرسى بأنه كان يحضر يومياً من الإسكندرية إلى المقسم حتى يسمع الميعاد ويعود فى نفس الوقت للإسكندرية مع شيخة الشاذلى[٥]، كما نقل البدوى ابن أخيه من جبل أبى قبيس إلى طنطا فى غمضة عين ثم رده إلى مكانه فى غمضة عين أيضاً [٦]، كذلك اشتهر

---

(١) عبد الصمد، الجواهر السنية والكرامات الأحمدية، سلسلة الألف كتاب القاهرة ١٢٨٧هـ، ص ٤٣.

(٢) عبد الصمد، الجواهر السنية، ص ٤٧ ؛ سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٥٦.

(٣) البرهانى، طبقات الشرنوبى، المطبعة الشرفية القاهرة ١٣٠٥هـ ، ص ٢، ٣، ٤ ؛ ابن الصباغ القوصى، شيخ الاسلام فى القرن السابع الهجرى، مكتبة المتنبى القاهرة ١٩٧١م ، ص ١٢١؛ عامر النجار ، الطرق الصوفية، ص ١٦١؛ عمرو منير، الأساطير ، ص ٢٥٨.

(٤) ويقصد بذلك انتقال الولى من مكان لآخر فى لمح البصر أو نحوه، ويقول ابن عطاء: "أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها فى نفس واحدة ، للمزيد انظر ابن عطاء السكندرى، لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن، مكتبة القاهرةالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٥، ص ٥٩.

(٥) ابن محسن الشاذلى، تعطير الأنفاس بمناقب أبى الحسن وأبى العباس، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٧ تاريخ تيمور، ص ٢٤٦.

(٦) عبد الصمد، الجواهر، ص ٥٨ ، ٦١ ؛ أحمد صبحى منصور، العقائد، ص ٣٥١.

بين الناس أن السيد البدوى قطع المسافة من شمال العراق إلى جنوبه فى سبع عشر خطوة، وقطع المسافة من مكة إلى طنطا فى إحدى عشر خطوة، وكان يختفى من فوق السطح فى طنطا ليؤدى صلاة العصر فى جزيرة نائية يحتاج السفر إليها إلى سنوات طويلة..." [١].

ولم يقتصر اعتقاد الناس فى كرامات الأولياء على طى الأرض فحسب بل "طى الزمان" ، فقد اشتاق الشيخ جمال الدين يوسف إلى أهله فى حصن كيفا من بلاد الأكراد فشاور الشيخ المتبولى، وكان ذلك بعد العصر، فأدخله الخلوة، فرأى نفسه داخل بلده والتقى بأهله ومكث عندهم يخطب فى الجامع ويقرئ الأطفال مدة تسعة أشهر ثم اشتاق للشيخ ،فأذن له والديه فخرج الى موضع خارج البلد، فإذا هو فى خلوة الشيخ وفى نفس الزمان[٢].

ومن بين الكرامات التى سيطرت على عقول الناس وتفكيرهم "طاعة الحيوان والجماد للأولياء" فيحكى عن إبراهيم بن عصيفير "أنه كان ينام فى الغيط ويأتى البلد وهو راكب الذئب أو الضبع.." [٣] ، كذلك الشيخ المعتقد ابن جميل اليافعى والذى أشار إليه ابن تغرى بردى فى ترجمته أنه "خرج يحتطب فى يوم من الأيام ومعه حماره يحمل عليه الحطب فبينما هو يحمل الحطب إذ وثب أسد على حماره فافترسه، فقال للأسد تقتل حمارى!!على أى شىء أحمل حطبى وعزة المعبود ما أحمل حطبى إلا على ظهرك، فجمع الحطب وحمل عليه وساقه إلى أن وصل إلى طرف البلد ثم حطه عنه الحطب وقال له :اذهب"[٤].

أضف إلى تلك الكرامات التى اعتقدها الناس "قلب الأعيان" بمعنى تحويل الشىء إلى شىء آخر، فيجعل العسل قطرانا والقطران عسلاً والخمر حلاوة والحشيش حلاوة،[٥] وقد توافرت هذه الكرامة لعدد من الأولياء،، فنرى الشيخ بركات الخياط يحول الحمام إلى سمك ثم يقلبها إلى دجاج، وربما ذبح خروفاً فوضعوه فى الدست فصار على صورة كلب فيأكله وحده ولا يطعم أحداً منه شيئاً[٦]، كما روى عن الشيخ نجم الدين أبى الغنائم كرامات، بأنه "كان يملك شاه كبيرة فنزل

---

(١) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٥٧.
(٢) الشعرانى، الطبقات الكبرى، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، توفيق على وهبة، مكتبه الثقافة الدينية القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٥م ، جـ٢ ، ص ١٦٧؛ أحمد صبحى منصور، العقائد الدينية، ص ٣٥٢.
(٣) الشعرانى، الطبقات الكبرى، جـ٢ ، ص ٢٤٩
(٤) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى ، جـ١٢ ، ص ٢٤٩.
(٥) ابن الحاج، المدخل ، جـ٣، ص ١٩٢؛ الشعرانى ، الأنوار القدسية ، جـ٢ ، ص ٤٤.
(٦) اليمنى، السناء الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر، تحقيق إبراهيم المقحفى، مكتبة الإرشاد القاهرة الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ١٥٣-١٥٤.

عليه ذات يوم أحد الفقراء فحلب له منها لبناً لإطعامه، وحينما طلب عسلاً قيل أنه حلب منها عسلاً[١] ويسوق لنا ابن بطوطة مثالاً آخر عن شدة اعتقاد الناس فى كرامات الأولياء على "قلب الأعيان" فيروى قصة مفاداها "أن القاضى خرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له: انت الشيخ المبتدع، فقال له : وأنت القاضى الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم أن حرمة الإنسان ميتاً كحرمته حياً، فقال له القاضى :وأعظم من ذلك حلقك لحيتك ، فقال له إياى تعنى وزعق الشيخ ثم رفع رأسه، فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة، فعجب القاضى ومن معه ونزل إليه عن بغلته ثم زعق ثانياً، فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة، ثم زعق ثالثاً ورفع رأسه فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى فقبل القاضى يده... وصحبه أيام حياته"[٢]، كذلك الشيخ الصالح سويدان المصرى، والذى كان كثير التطور فكان يرونه إذا دخلوا عليه فى بعض الأيام سبعاً وتارة فيلاً وتارة أميراً وتارة فقيراً..." [٣].

ولا يغيب عن الذهن ذكر الكرامات التى عرفت بـ "مقام التصريف" وهى تعنى قدرة الولى على القيام بأشياء خارقة للعادة كالمشى على الماء والطير فى الهواء ومسك النار وغيرها، فنرى إبراهيم بن عصيفير "كان يمشى على الماء ولا يحتاج إلى مركب، وكان بوله كاللبن الحليب الأبيض.."[٤].

وقد أفاضت المصادر التاريخية والصوفية فى الحديث عن الأولياء الذين يخبرون الناس بالغيبات[٥]. بيد أنه لو أخطأ أحد الأولياء فى التنبؤ ، تخرج المبررات لتأكيد كراماته، وهذا ما

---

(١) السخاوى، تحفة الأحباب ، ص ٣١، ٣٢ ؛ محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ٢٥٦.

(٢) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان ، ولد أحياء العلوم بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص ٥٢، ٥٣.

(٣) اليمنى، السناء الباهر، ص ١٢٢.

(٤) ابن الحاج، المدخل، جـ٢ ، ص ٩٦؛ الشعرانى ، الطبقات الكبرى، جـ٢، ص ٢٥٠.

(٥) وتضمن الكتابات العديد من الإشاعات والتنبؤات الصوفية التى بشرت بزوال الدولة المملوكية واستيلاء العثمانين على مصر ، فالشيخ ابراهيم بن لحاف ت ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م أرسل يقول للغورى تحول واعط مفاتيح القلعة لأصحابها، والشيخ محمد الشربينى أخبر بدخول ابن عثمان قبل دخوله بسنتين وكان يقول: "أتوكم محلقين اللحاء فكان الناس يضحكون عليه لقدرة التمكين الذى كانت الجراكسة عليه، والشيخ ابراهيم بن عصيفير ت ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م ، وكان يقول : "جاءكم ابن عثمان فكان جند الغورى يسخرون منه، والشيخ عمر البجائي أخبر بزوال مملكة الجراكسة وقتالهم لابن عثمان وقال إن الدولة تكون للسطان سليم والشيخ عمر المجذوب سأله الشعرانى بعد سفر فأجابه بأنه سيدخلها" ، ابن تغرى بردى، حوادث =

أشار إليه ابن تغرى بردى بقوله: "إن الشيخ محمد السفارى دخل فى نزاع مع السلطان حقمق، وتنبأ بزوال ملك السلطان، قائلاً: أن السلطان يموت فى حادى عشرين جمادى الأولى من هذه السنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ومن الناس من نقل عنه إنه قال: اكتبوا عنى ذلك"[١]، ولكن الشيخ محمد السفارى مات قبل ذلك اليوم بعشرة أيام ولم يظهر لكلامه صحة، وهنا يحاول ابن تغرى بردى تأويل كلام الشيخ بأنه كان يقصد نفسه بالموت وليس السلطان، وأن الناس أخطأت فى النقل عنه ، قائلاً : فقال كلاماً معناه فى اليوم الفلانى نستريح بالموت فتحرف الكلام على من سمع قوله، وأما قوله "نستريح بالموت" فإنه أشار بذلك إلى السلطان لا إلى نفسه..." [٢]، وفى أمثالنا الشعبية ما يؤكد ذلك "إنت شيخ والا حد قال لك" [٣]، وكان من كرامات الشيخ بركات الخياط أنه أخبر بأخذ السلطان سليم مصر وأخبر بالسنة واليوم... فكان كما أخبر[٤] وأيضاً من كرامات الشيخ الإمام العالم تاج الدين الذاكر أنه أعلم بهزيمة الغورى على يد قوات سليم العثمانى فإن السلطان الغورى لما خرج القتال ابن عثمان، كان قد طلب من الشيخ ومن جميع مشايخ البلد أن ينخرطوا معه، فأبوا فتوعدهم بالقتل، فقال الشيخ تاج الدين ما بيننا وبينه اجتماع وهو لا يرجع ونحن نموت فكان الأمر كما قال[٥].

علاوة على ذلك، فقد نسب إلى عدد من الصوفية كرامات "شفاء المرضى" ومن ذلك ما يروى عن الشيخ شرف الدين محمد المعروف بالإخميمى أنه ساعد فى شفاء مريض فيقول فضل الله الصقاعى: "رأيت بنواحى مصر فقير فى صورة موله، وكنا جماعة فقراء، فاضافنا بعض أكابر ناحية منه وكان ولده مريض، فأحضرنا إليه وهو مطروح محموم إلى جانب النيل، فقال هذا ولدى، اقعدوا عنده وادعوا له بالعافية ، والفقير الموله مكشوف الرأس معنا، فالتفت المريض إليه من

= الدهور، جـ١ ، ص ٢٢٦؛ نجم الدين الغزى، الكواكب السائرة باعيأن المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الافاق الجديدة بيروت ط٢ ، ١٩٧٩م ، جـ١ ، ص ٢٨٧، جـ٢ ، ص٨٥؛ الشعرانى؛ الطبقات الكبرى، جـ٢ ، ص ١٢٣، ١٢٧، ١٣٤ ، ١٦٩؛محمد صبرى الدالى، فقهاء وفقراء، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م ، ص ٣٧.

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ١ ، ص ٢٢٦.

(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ١ ، ص ٢٦٧

(٣) يضرب فى الاستغراب من معرفة المخاطب بأمر لم يخبره به أحد أى أنت ولى بعلم الغيب حتى عرفت ما فى نفسى أم أخبرك أحد به. أحمد تيمور، الأمثال العامية، ص ٩٢.

(٤) اليمنى، السناء الباهر، ص ١٥٥.

(٥) اليمنى، السناء الباهر، ص ١٤٣

هوس الحمى وقال للفقير: "لوجبت لى خياراً أكله عوفيت وزالت الحمى، فقال نعم ونزع عباءته ونزل فى النيل وعام وغاب طويلاً حتى توهمنا غرقه ثم حضر ومعه من الخيار أربعة أو خمسة فرماه قدام المريض فأخذ منه وأكل منه واحدة... ثم عوفى الولد المريض..." [1].

وقد رويت عن السيد البدوى خرافات تشير إلى مقدرته على شفاء المرض، فكان رفيقه وخليفته السيد عبد العال يأتى إليه بالشخص الذى يبول فى ثيابه وينادى السيد أحمد من فوق السطح إليه فيأتيه وينظر له نظرة واحدة فيزول ما به من مرض..." [2].

وانتحل الصوفية لأنفسهم كرامات تفوق قدرات البشر من عدم الأكل والشرب والنوم، فقد اشتهر عن أبى على حسين الصوفى ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م أنه مكث بخلوة فى غيط خارج باب البحر أربعين سنة لا يأكل ولا يشرب وباب الخلوة مسدود وليس له طاقة يدخل منها الهواء، ثم خرج بعدها وأظهر الكرامات والخوارق[3] كما أن من كرامات عمرو التباعى ت ٧٠٢هـ أنه كان يمكث الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وفى السنة التى مات فيها أقام سبعة أشهر ما ذاق فيها طعاماً[4] كذلك ابن عرب الصوفى ت ٨٣٠هـ، "أقام أكثر من عشرين سنة لا يشرب الماء أصلاً" [5] واشتهر عن الشيخ الصالح المعتقد شمس الدين التبريزى أنه عرف بصائم الدهر، وذلك لأنه أقام نيفا وأربعين سنة يصوم الدهر ولا يفطر إلا على الحمص[6].

أما عن النوم، فقد اشتهر السيد البدوى أنه كان يمكث أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وأكثر أوقاته شاخصاً ببصره نحو السماء وعيناه كالجمرتين..." [7]، وعرف بين الناس أن سلمان الخانوتى مكث نحو سبعة وثلاثين سنة لا يضع جنبه إلى الأرض"[8].

ويتضح من الروايات السالفة الذكر، أنها كاذبة لمناقضتها قوانين البشر، فمعلوم أن طاقة

---

(١) فضل الله الصقاعى، تالى كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، المعهد الفرنسى للدراسات العربية دمشق ١٩٧٤م، ص ١٥٢-١٥٣.
(٢) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٥٧.
(٣) ابن عماد الحنبلى، شذرات الذهب ، جـ٧ ، ص ٣٥٠.
(٤) النبهانى، كرامات الأولياء ، جـ١ ، ص ١٣٧.
(٥) السخاوى، الضوء اللامع ، جـ١، ص٢٠١ .
(٦) ابن إياس، بداع الزهور جـ١ ق٢، ص ٣٥١.
(٧) ابن عماد الحنبلى، شذرات الذهب، جـ٧، ص٦٠٤؛ السيوطى حسن المحاضرة، جـ١، ص٥٢١- ٥٢٢.
(٨) الشعرانى، الطبقات الكبرى، جـ٢ ؛ ص ١٦٩.

البشر فى الامتناع عن ضروريات الأكل والشرب والنوم محدودة بزمن معين وإن ما يسرى على البشر يسرى على هؤلاء الأولياء المجاذيب.

وانفرد السيد البدوى بكرامة، إحضار الأسرى من بلاد الإفرنج ،وقد ذكر الرواة، قصة إمرأة أسر الصليبيون ولدها، فلاذت بالسيد البدوى تطلب منه إحضاره، وما هى إلا لحظات حتى جاء الأسير يرسف فى قيوده فأخذته أمه وانصرفت[1] بل إن الناس فى القاهرة أخذوا يتغنون بقدرة السيد البدوى على إحضار أسرى المسلمين ، فصاروا ينشدون العبارة المعروفة... الله الله يا بدوى جاب اليسرى" واليسرى هنا تحريف للفظ "الأسرى"[2] ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل ظلت الكرامة حكراً علي السيد البدوى حتى بعد وفاته فيحدثنا الشعرانى[3]* مرة أخرى عن البدوى جلاب الأسرى، فيقول: "شاهدت أنا بعينى سنة خمس واربعين وتسعمائه وتسعمائة أسيراً على منارة سيدى عبد العال رضى الله عنه مقيداً مغلولاً وهو مختبط العقل فسألته عن ذلك فقال: "وبينما أنا فى بلاد الفرنج آخر الليل توجهت إلى سيدى أحمد البدوى، فإذا أنا به فأخذنى وطار بى فى الهواء فوضعنى هنا، فمكثت يومين ورأسه دائرة عليه من شدة الخطفة رضى الله عنه"[4].

ويتضح من الروايتين السابقتين مدى العجز والخنوع الذى أصاب نفوس الناس فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأمة فترة الحروب الصليبية وما تلاها ، فقد ظلت الحروب الصليبية هي الشغل الشاغل للناس طوال عدة أجيال، ورأوا فى السيد البدوى المنقذ والمخلص لما هم فيه، ورأوا فيه بطلاً أسطورياً يستطيع أن يحرر الأسرى بطريقة خيالية، وهو ما أثار غرابة واستهجان أستاذنا الدكتور سعيد عاشور وذلك بقوله: "ورحم الله سوبرمان"[5]، والرأى عندنا لو كان هناك فرقة من الأولياء تشبه فى كراماتها السيد البدوى، ما أعوزنا ذلك لتجييش الجيوش وإقامة الحزوب مع الصليبيين!!!

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص٣٣٦؛ عبد الصمد، الجواهر، ص ٧٩؛ سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص١٦١؛ عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية، ص ١٤٤.

(٢) النبهانى، جامع كرامات الأولياء، جـ١، ص ٥١٢؛ سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٧٠، محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية، ص ١٧٤؛ سعيد مراد، التصوف الإسلامى رياضة روحية خالصة، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعيةالقاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٦٨.

(٣) يعتبر الشعرانى إلى حد كبير من أكبر المسئولين عن الترويج لهذه الخرافات، ويبدو أنه أوتى من خصوبة الخيال وسرعة البديهة وقوة الذكاء ما مكنه من سبك عدد لا حصر له من كرامات الأولياء والمشايخ وتقديمها لمعاصريه فى الصورة التى ترضى ذوقهم؛ سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٣٨.

(٤) النبهانى، كرامات الأولياء، ص ٣١١؛ عامر النجار ، الطرق الصوفية ، ص ١١٠.

(٥) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٦٠ .

وكما مر علينا ظهور بعض الكرامات للأولياء بعد وفاتهم مثل ما قام به السيد البدوى من إحضار الأسرى بعد وفاته، كذلك الشيخ عمر الشناوى الاشعث الذى كان يخرج من قبره راكباً فرسه ليغيث زائريه من قطاع الطرق[١] ؛ ولعل ظهور هذه الكرامات يرجع إلى أن مروجو الكرامات، شعروا أن أعداد المعتقدين والمترددين على اضرحه الأولياء أخذت فى الانخفاض، لظهور الكرامات لأولياء جدد خطفوا الأضواء ولذلك راحوا يخلقون قصصا جديدة للناس تثبت لهم أن الولى ظل بعد وفاته مستمراً فى أداء دوره كاملاً، وأنه على اتم الاستعداد لإجابة دعواه إذا دعاه، وهذا ما يفسر لنا وجود عدد من كرامات الأولياء حتى بعد وفاتهم[٢].

وبلغ ادعاء الصوفية فى كراماتهم مبلغ الجنون والافتراء كذبا الذى لا يصدقه العقل، فادعوا فى كراماتهم "رؤية الله" فيقول أبو العباس المرسى: إن له أربعين عاماً ما حجب فيها عن الله طرفه عين[٣] وادعى الشيخ تاج الدين النخال أن الله يتجلى له فى الخلوة [٤] كما أن الشيخ الباجريقى الصوفى ت ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م، ذهب فى طيشه بعيداً بأنه " قد وصل إلى السماء الرابعة وأنه بلغ مقام موسى بن عمران فى أربعة أيام"[٥].

وجدير بالذكر انه لم يكن الصوفية وحدهم على الساحة، فقد لعب الفقهاء دوراً أساسى فى التصدى للخرافات التى روجها عدد من رجال التصوف أو مدعوا الصوفية * ، ولعب أبن تيمية دوراً محورياً فى مناوءة مدعي الصوفية، وأصدر فتاوى بتحريم مذاهبهم وطرقهم، فعلى سبيل المثال فتواه سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥م بتحريم زيارة الأضرحة وما يحدث فيها من تجاوزات العامة من دعاء وتوسل بهم[٦] فيعلق ابن تيمية على ذلك بقوله :"أما الزيارة البدعية فهى التى يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب الدعاء، فالزيارة على هذه الوجه عليها مبتدعة لم يشرعها... "[٧].

---

(١) عبد الصمد، الجواهر، ص ٧٠

(٢) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٥٤ – ١٥٥

(٣) أبو محسن الشاذلى، تعطير الانفاس بمناقب ابى الحسن وأبى العباس، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٧ تاريخ تيمور ، ص ٢٢٠.

(٤) ابن الكوهن الفاسى الشاذلى ، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية فى طبقات السادات الشاذلية، طبقة العلامية القاهرة ١٣٤٧م، ص١٨، أحمد صبحى منصور ، العقائد الدينية ، ص ٣٥٣.

(٥) المقريزى، المقفى الكبير، جـ٦ ، ص ٦٦

(٦) هناك عدة دراسات حديثة ذكرت تصدى الفقهاء خاصة ابن تيمية لهؤلاء الصوفية المجاذيب، منها أحمد صبحى منصور، العقائد الدينية، ص ١١٥-١٣٨؛ محمد حسن محمد حسن ، الأبعاد الاجتماعية، ص ٣٤-٤١، ١٣٨ وما بعدها.

(٧) مصطفى حلمى، الحياة الروحية فى الإسلام ،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤م ص ١٨٩.

وقد حاول ابن تيمية ومن معه من أتباعه[1] أن يحارب تجاوزات الصوفية عملياً، حيث حضر إلى الشيخ تقى الدين بن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانب وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلم أظفاره وكانوا طوالاً جداً، وحف شاربه المسبل على فمه، ... واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما يجوز من المحرمات وغيرها[2] وأيضاً عقد مناظرة مع الصوفية الأحمدية وكشف أحوالهم الشيطانية التى يتعاطونها فى سماعاتهم وأكثر أموالهم من باب الحيل والبهتان، كما اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديدية من رقابهم، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه... وأظهر الله السنة على يديه وأخمد بدعهم"[3].

ومن جهة ثانية ،فقد أنكر الفقهاء شطحات الصوفية من مزاعم بعض الكرامات، وحاولوا جاهدين كشف زيف هذه الكرامات والمعجزات، حتى أن أحدهم يتسآل "كيف يعقل أن الشخص الواحد يكون فى الزمان الواحد فى مكانين يتكلم فى هذا ويصلى فى ذاك...." [4]، بل إن الشعرانى نفسه يعترف بأن الكرامات والمعجزات "الكذب فيها كثير[5] .

تأثيرات الصوفية على المجتمع:

يبدو مقبولاً أن نحاول التعرف على الأثر الذى تركته خرافات الصوفية فى نفوس المجتمع المصرى، فقد أخذ الناس فى مصر عن الصوفية عدة ممارسات وعادات زميمة أشاعت التفسخ فى الحياة الاجتماعية لاسيما فى الشطر الثانى من عصر سلاطين المماليك ومنها: "عادة التوسل بالأولياء أمام مقابرهم لقضاء حوائجهم، وبث مشايخ الصوفية مئات القصص بين معتقديهم التى

---

(١) الشعرانى الطبقات الكبرى، جـ٢ ، ص ٩٨ ، ١١٧.

(٢) لم يكن ابن تيمية وحده هو الذى يناوىء هؤلاء الصوفية، وإن كان هو الذى بدأ زمام المبادرة فى محاربة أفكار الصوفية العفنة، فكان أيضاً شيخ الإسلام البلقينى جلال الدين محمد بن عبد الرحمن والاقصرائى وغيرهم الذين سطروا بأحرف من نور صفحات من جهاد الباطل والوقوف فى وجه الصوفية الخرفة، أحمد حسين ماضى، تاريخ الجرائم فى مصر والشام فى العصر المملوكى، رسالة ماجستير جامعة القاهرة دار العلوم، ٢٠١٣م جـ١ ، ص ٣٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص ٣٣ ؛ محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية ، ص ٣٩.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤ ، ص ٣٦.

(٥) الأدفوى، الطالع السعيد، ص ١٣٢.

تؤكد على عدم موت الأولياء الصوفية داخل توابيتهم أو مقاماتهم ، فإذا زار أحدهم شيخاً قبره لا يعتقد أنه ميت، بل الأدب أن يعتقد -حياته البرزخية لينال بركته[١] وترسخ هذا الاعتقاد فى فكر الناس، بل والأخطر من ذلك أشاعوا بين الناس مواعيد محددة لزيارة قبور الاولياء ومشاهيرهم حسب وجودهم فى مقابرهم فيقول الشعرانى: "إن غالب الأولياء لهم السراح والإطلاق فى قبورهم، فيذهبون ويجيئون وكان على هذا القدم سيدى على الخواص، كان إذا رأى إنساناً عازماً على زيارة بعض الأولياء يقول له :إذهب بسرعة، فإنه عازم على الذهاب إلى موضع كذا، وفى بعض الأوقات يقول له: لا ترتاح له، فإنه ما هو هناك اليوم ، وقد زرت مرة سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه ، فلم أجده فى قبره فجاء إلى بعد ذلك وقال: اعذرنى، فإنى كنت فى حاجة"[٢].

كما أشاع الصوفية بين الناس ما يسمى بالفتوح والحمل، أما الفتوح، فعادة ما تكون هدايا عينية أو نقدية يدفعها إليها من يعتقدهم مقابل أن يحقق الولي الصوفي المعتقد رغباتهم من إنجاب ودفع أذى، بل ودفع الموت عن مرضاهم[٣]، فإذا تأخر الحمل تتجه أنظار الزوج وأهله نحو الزوجة محملين إياها مسئولية عدم الإنجاب مما يجعلها تتجه إلى الأولياء والمشايخ التماساً فى بركتهم فتحمل النذور من الطيور والزيت وغيره إليهم ظناً أن ذلك يجلب لها المنافع فى تلك المشكلة[٤] والشاهد على ذلك أن إمرأة أراد زوجها الزواج عليها لكونها لا تلد ولداً، فذهبت إلى أحد هؤلاء الأولياء الصوفية "ليسأل الله أن يرزقها ولداً، فقال لها هاتى مما معك من الفتوح، فأعطته أسورة كانت فى يدها فقال لها هذه ما تكفى حلاوة الصبى"[٥] وإذا شاء القدر وحملت المرأة فكان أهل المولود يحرصون على أن ينزل المولود فى خرقة أحد الأولياء على أساس التبرك[٦].

وفى السياق نفسه، يلجأ الناس إلى "الفتوح" لدفع الموت عن مرضاهم، فعندما فاجأ مرض العضال على ابن السلطان قلاوون سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، استعان السلطان بالصوفية المعروفين بالصلاح والتقوى ليلتمسوا له الشفاء، وكان ممن استعان بهم الشيخ محمد المرجانى، ولكنه رفض

---

(١) الشعرانى ، لطائف المنن ، ص٥٩ ؛ محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية، ص ٣٧.

(٢) الشعرانى، الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، تحقيق طه عبد الباقى سرور، السيد الشافعى، مكتبة المعارف بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٨م جـ١ ، ص١٦١.

(٣) الشعرانى، لطائف المنن، ص ٢٢٧ ، محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية، ص ١٣٣.

(٤) الشعرانى، لطائف المنن، ص ٤٧٢

(٥) لا زالت تلك الخرافة سائدة فى المجتمع إلى الآن خاصة فى الريف، ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١ ، ص ٤٧٥.

(٦) الشعرانى، لطائف المنن، ص ٤٧٢ ؛ الأنوار القدسية، ص ٥١-٥٢.

الحضور فبعث إليه بمبلغ من المال لكى يعمل "وقتاً" أى حفلة يذكرون فيها الله، ويقرأون القرآن.. لكنه رفض... وبعث السلطان إلى صوفى آخر يدعى الشيخ عمر أبى السعود فحضر إليه وطلب منه السلطان أن يدعو لولده "على" فقال: "أنت رجل بخيل ما يهون عليك شىء، ولو أخرجت للفقراء عن شيئاً له صورة لعملوا "وقتاً" وتوسلوا إلى الله أن يصيبهم ولدك لكان يتعافى فأعطاه السلطان مبلغاً كبير من المال، عمل به وقتاً، ثم عاد إلى السلطان وقال له: طيب خاطرك الفقراء كلهم سألوا الله ولدك وقد وهبه لهم".

لكن بعد ذلك مات على بعد أسبوعين وبضعة أيام من ذلك الحفل الذى أقامه الشيخ أبو السعود، ورأى السلطان الشيخ بعد الوفاة فقال له: "يا شيخ عمر، أنت قلت أن الفقراء طلبوا ولدى من الله وأنه وهبه لهم فأجاب على الفور، نعم الفقراء طلبوه، ووهبهم إياه ألا يدخل جهنم ويدخل الجنة، فسكت السلطان[١].

أما عن الحمل[٢]، فقد جعلوا لأنفسهم الحق فى تحمل نكبات وحوادث الناس نيابة عنهم، مقابل هدايا عينية ونقدية، مثلما جاء أحد ممن نقم عليه السلطان الغورى إلى واحد من هؤلاء الأولياء "يستعجله فى الحملة، فقال له: أخلع لى هذه الجوخة الحمراء الصوف والعمامة التى عليك حتى أحمل حملتك بقلب، واخرج أنت بالقميص والقبع فقط، فشاور نفسه وتوقف ثم قال: أنا أدخل معك بالروح وأنت تشح على بخليقات عندك فى الدار غيرهم، فسلوه تلك الليلة للعقوبة، فحلقوا رأسه وكتفوه وملأوا قحفاً خنفساً والبسوه على راسه.. فصار الخنفس يحفر دماغة حتى صارت رأسه حفراً، فلو أنه كان أعطى الشيخ الثياب لكان حمل عنه هذا العذاب[٣].

وترسخ فى ذهن المصريين اللجوء للصوفية وقت الأزمات، فحينما يتوقف النيل عن الزيادة يلجأ الناس للصوفية طالبين منهم أن يدعوا الله بأن يفى النيل، وتزداد ثقتهم فى هؤلاء الشيوخ حينما يصل النيل إلى درجة الوفاء[٤] بل وصل الأمر ببعض السلاطين أن يتشبه بهؤلاء الصوفية

---

(١) ولقد أشرت لذلك فى الفصل الأول فى نقطة خرافات الزواج، للمزيد انظر ابن الحاج، جـ٣ ، ص ٢٨٥.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١ ، ص ٧٤٤ - ٧٤٥ ؛ أدم صبرة الفقر والاحسان ، ص ٩٦؛ محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، ص ٩١، ٩٢.

(٣) وضعوا شروط للحمل وهى "أن لا يجلس الحامل قط حدث إلا لضرورة ولا يجامع حليلته مدة الحمل الا يكون ممن يحضر مع الله تبارك وتعالى فى جماعه، كما يحضر فى صلاته، وكذلك لا يشم رائحة طيبة ولا يدخل حماما بغير ضرورة ولا يضع جبينه إلى الأرض فى ليل أو نهار، ولا يضحك ، ولا يغفل عن الله تعالى لحظة، ولا يبت على دينار ولا درهم، الشعرانى، لطائف المتن، ص ١٧٥.

(٤) الشعرانى، لطائف المتن، ص ١٧٣- ١٧٤

مثل :السلطان المؤيد شيخ الذى تخلى عن ملابسه العادية، ولبس ملوطة صوف أبيض بغير شد فى وسطه وعلى كتفيه مئزر صوف مُسدل، وعليه عمامة صغيرة جداً لها عذبة مرخاة بين لحيته وكتفه الأيسر، كما كان فرسه مغطى بقماش ساذج ليس فيه ذهب ولا حرير وذلك عندما خرج إلى الصحراء فى ربيع الآخر سنة ٨٢٢هـ/ إبريل ١٤١٩م للدعاء برفع الوباء [١] وكان أيضاً على نفس الهيئة عندما خرج لصلاة الاستسقاء عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م[٢]

إلى جانب ذلك، رسخ فى اعتقاد المصريين أنه[٣] حينما يشتد بهم وطأة الطاعون ويطول، يذهبون إلى من يعتقدون أنهم أولياء ويسألونهم أن يدعوا الله بأن يرفع الطاعون عنهم أو يحاولوا أن يعرفوا متى ينتهى ذلك الطاعون، مثلما حدث وأن توجه الكثيرون ممن يعتقدون فى الشيخ على الروبى اثناء طاعون عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، ويسألونه بأن يدعوا الله بأن يخفف عنهم ما هم فيه من كرب وبلاء، فما كان منه إلا أن قال: "إن الطاعون يرتفع فى آخر ربيع الآخر فوقع كما قال"[٤].

وفى الصدد نفسه، ثبت فى الوجدان الشعبى ، ضرورة اللجوء للأولياء التماساً للشفاء ببركتهم، فقد أصيبت إمرأة بمرض الكساح وعجز الأطباء فى دوئها مدة أربع سنين فدخل الشيخ لها وبصق فى شيء من الزيت وقال أدهنوا بدنها فدهنوها فى حضرة الشيخ فبرئت[٥] فى حين نجد من يضع الأناء تحت رجل الشيخ عبد الله القرنسى، وكان اجزم كسيحا فإذا تحصل منه شيء من الصديد شربه، تبركاً وتيمنا بالشيخ الذى يطرح الصديد[٦] ويشير الدكتور فوزى محمد أمين أن فخر الدين بن مكانس[٧]*، لجأ للأولياء ملتمساً الشفاء ببركتهم وذلك بقوله: "وتطيب بالطب

---

(١) كان بلوغ النيل ستة عشر ذراعاً بشراً بوفاء النهر؛ ابن إياس بدائع الزهور جـ١ ق٢، ص٦؛ السخاوى، تحفة الأحباب، ص ٢٩٧؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ٤٥

(٢) المقريزى، السلوك جـ٤ ق١، ٤٨٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤ ، ص ٩٧؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس ، جـ٢ ، ص ٤٥٥.

Fernandes ,the evolution of Asufi institution in mamluk Egypt ,The khanqah ,Berlin,1988 , P.7 10 ,

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ، ص ٥٣- ٥٤ .

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢ ، ص ٢٨٢؛ شلبى الجعيدى الأزمات الأقتصادية، ص ٢٠٥.

(٥) ابن حجر، انباء الغمر، جـ١ ، ص ٢٣١ ؛ محمد حسن محمد حسن الأسرة المصرية، ص ٨٦.

(٦) لا نستطيع أن نضع كلام الشعرانى موضع حقيقة فكما اشرت من قبل أنه بطل سبك القصص والخرافات، وبديهى أن يجعل هذا الشيخ له بركة فى علاج هذه المرأة، للمزيد انظر، الشعرانى، الطبقات الكبرى، جـ٢ ، ١٢٤.

(٧) الشعرانى، لطائف المنن ، جـ٢ ، ص ٢٢٣- ٢٢٤.

السوى واستعنت على ضعفى بتدبير الحكيم القوى وأمدنى شخص من أولياء الله، وممن يجاب دعاء بدعائه ، فكان يعجبنى منه لفظة العربى، ودعاؤه الأدبى، أقامة الله لمفترضاته، وأعانه على مرضاته فحصل الشفاء، وأماطت العافية العفاء، ولله المنه على زوال المحنة" [١].

كما ترسخ فى ذهنية عدد من الناس، أن لهؤلاء الصوفية القدرة على حل مشاكلهم، فإذا عجز الأب عن تجهيز ابنته فإنه يتجه يائساً إلى هؤلاء المتصوفة، لعله قد يفلح فى حل تلك المشكلة، فنجد أحد الشيوخ "كان عنده أبريق كبير يسقى فيه المكروبين[٢] فمن يشرب يعتقد بأنه قد أرتاح نفسياً كثيراً وربما لديه القدرة على حل المشكلة.

ومن المهم أن نتطرق إلي خرافات أهل الذمة، وهو ما سوف نتناوله من خلال الفصل الرابع.

---

(١) * هو الشاعر فخر الدين بن مكانس ت ٧٩٤هـ وكان له ديوان مشهور وقال عنه ابن تغرى بردى أنه: كان أديباً فاضلاً شاعراً فصيحاً بليغاً لا يعرف فى ابناء جنسه الاقباط من يقاربه ولا يدانيه، وشعره غاية الرقة والانسجام.. ابن تغرى بردى، النجوم ، جـ١٢، ص ١٣١، قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة، ص ١٦٩.
(٢) فوزى أمين، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى، ص ٢٧٣.

الفصل الرابع

الخرافة والشعوذة فى معتقدات غير المسلمين

الخرافة والشعوذة في الحياة الخاصة للأقليات الدينية- أعيادهم - في عقائد اليهود والنصارى - موالد أهل الذمة- التأثيرات المسيحية واليهودية فى عادات وتقاليد المجتمع المصرى.

الخرافة والشعودة فى الحياة الخاصة للأقليات الدينية

شارك اليهود والنصارى المصريون فى أحداث عصر سلاطين المماليك ونشاطاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مشاركة إيجابية فى معظم الأحوال، مما ينهض دليلاً على أن أهل الذمة فى مصر آنذاك كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المصرى يتأثرون بأحداثه الجارية ويخضعون لنفس الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى خضع لها المجتمع ككل، والتى شكلت ملامح الحياة فى ذلك العصر من ناحية، ويؤثرون بقدر أو بآخر فى مجريات الأمور فى عادات وتقاليد المجتمع من ناحية أخرى، بغض النظر عن بعض الحالات التى تعرض فيها الذميون لبعض الضغوط أو القيود لسبب أو لآخر، فإنهم فى أغلب الأحوال قد مارسوا حياتهم اليومية بشتى جوانبها داخل إطار الحياة العامة للمجتمع المصرى ككل آنذاك[1].

وعلي أية حال،اتسمت أخبار أهل الذمة الخاصة بعاداتهم وتقاليدهم بالقلة- على حد اطلاعى- فلم نجد إلا إشارات قليلة فى بعض المصادر، فضلاً عن بعض الإشارات التى ذكرها عدد من الرحالة[2].وقد سرى اعتقاد بين اليهود أن العروس وسائر النساء يخضبن أيديهن وأرجهلن بالحناء من أجل إبعاد الأعين الشريرة الحسودة، كما كان العروسان لا يناما فى هذا اليوم للاعتقاد

---

(١) الشعرانى، لطائف المنن، ص ٤٩٧

(٢) قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٣٧

بخطورة ذلك عليهم[١] وسادت خرافات بين نساء النصارى خاصة إذا ما كانت المرأة عاقراً فإنها تتجه إلى القيام ببعض الخزعبلات وفي هذا يذكر المقريزى: "بأن هناك كنيسة فى بعض القرى فى مصر"الفيوم"، فيها سرداب ينزل إليه العامة والنصارى وفيها سرير تحته رجل وصبى مشدودين... وذكر عن أهل القرية أن المرأة المتوهمة فى نفسها حملاً ، تحمل ذلك الصبى وتضعه فى حجرها ، فيتحرك ولدها فى البطن..." [٢].

وفيما يتعلق بالولادة؛ فإنه إذا كان المولود ذكراً قالت القابلة للأم: "محبة بالمسيح"، أما إذا كانت أنثى قالت محبة بالعذراء ، كما يحضرون أحد رجال الدين من القساوسة يوم الولادة ليصلى على باب المنزل تبركاً، ويعلق للطفل التمائم والتعاويذ وخرزة زرقاء تقية من الحسد[٣].

ونود أن نشير، إلى أن جنائز الأقباط تشبه جنائز المسلمين من وجوه عديدة فالجسد يحمل فى نعش يتبعه النساء وهم يولولن مثل المسلمات، كما يتم استخدام النائحات المستأجرات ليندبن فى منزل المتوفى ثلاثة أيام بعد وفاته، ويحدد الندب فى اليومين السابع والرابع عشر من الوفاة[٤]. كما اتبعت جنائز اليهود عادات غريبة ، فقد كان أهل المتوفى يقومون بتناول واجبة خفيفة عرفت

---

(١) تفتقر مصادرنا العربية الإسلامية لأخبار أهل الذمة الاجتماعية الخاصة بعاداتهم وتقاليدهم ، وربما يرجع ذلك لمشاركتهم العامة فى كثير من العادات والتقاليد التى عرفت لذا لم يتميزوا بعادات خاصة بهم، وربما أيضاً أن أهل الذمة خاصة اليهود تكتموا على خصوصياتهم لرغبتهم فى أن لا يعرف المسلمون بها لذلك بقيت غير معروفة، ونستنتج من الروايات التاريخية المختلفة أن اليهود كانوا ينفردون بالاحتفال باعيادهم الدينية دون مشاركة القبط أو المسلمين لهم، وكان موقف المسلمين من احتفالات اليهود الدينية فى الواقع يختلف عن مواقفهم من احتفالات القبط، ولم يشارك أمراء مصر وخلفاؤها اليهود فى احتفالاتهم بأعيادهم.
للمزيد انظر، فاطمة مصطفى عامر، تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١ م ، جـ١ ، ص ٣٩٣.

(٢) ونزل شمشون إلى تمنة، ورأى امرأة في تمنة من بنات فلسطين، فصعد وأخبر أباه وأمه... ونزل أبوه إلى المرأة، فعمل هناك شمشون وليمة، لانه هكذا كان يفعل الفتيان، وقامت المرأة بتخضيب رجليها خشية الحشد، وكان في اليوم السابع أنهم قالوا لامرأة شمشون: "تملقي رجلك لكي يظهر لنا الأحجية لئلا نحرقك وبيت أبيكي بنار" سفر قضاة، الإصحاح ١٤، ص٢٠٥ ، ص ٢٧ ؛ سوزان السعيد، المرأة وحقوقها وواجباتها فى الشريعة اليهودية، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م ، ص ٩٢.

(٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول ، ص ٩٩.

(٤) وكما ذكرنا سابقاً في الفصل الأول، استعانة المسلمين بالأولياء، وقت الولادة من نزول الطفل فى خرقة أحد الصالحين نجد تشابهاً كبيراً بين أبناء الوطن الواحد فى تناول خرافات بعضهم البعض ولكن الاختلاف فى الطريقة، عبد الخالق التميمى ،أهل الذمة ومؤسساتهم في دولة المماليك البحرية ، رسالة دكتوراة جامعة بغداد ٢٠٠٤ ،ص ١٢٠

بوجبة الحداد وكانت تتسم بالبساطة وتخلو من اللحوم والخمر وتقتصر على البيض والعدس[١] وخلال فترة الحداد هذه كان أهل المتوفى ينعزلون عن بقية أفراد المجتمع، كما كانوا يمتنعون عن ارتداء الملابس الحريرية[٢].

وإذا ما أصيب أحد النصارى بالمرض، كانوا ينذرون للكنائس والمعابد والأديرة زيتاً وشموعاً وبخوراً أو يقومون بملء إطارات الأيقونات وشروخ كهف أى قديس يلجأون له، أو أى مكان بالأديرة التى يختارونها لقضاء حوائجهم فتوضع فى الشروخ قصاصات الورق التى طويت بعناية وتحمل تلك العبارة البسيطة: "أذكر يارب عبدك فلان" أو ينقلون بعض النباتات الموجودة فى الكنائس والأديرة وإعطائها للمريض من أجل شفائه[٣].

ويشير أحد الباحثين أن اليهود مارسوا عدداً من الخرافات في حياتهم اليومية، منها: أكل الثوم يوم الجمعة فهو فى اعتقادهم يساعد على استرجاع الصحة والعافية ويبعد الأمراض وكانوا يستخدمونه كتعويذة فكان المريض أو الخائف من المرض يضع الثوم حول رقبته فى كيس من القماش[٤].

كذلك سرى اعتقاد بين النصارى فى الجن والعفاريت والأرواح الشريرة، فهم يرون فى تلبس البشر للأرواح الشريرة ،وذلك نتيجة أخطاء ارتكبت أثناء التعميد، لكن الطريقة التى يتم بها طرد الروح الشريرة والتى تتضمن مفاوضات معها نفس الطريقة التى يستخدمها المسلمون، ومن المهم أن تترك الروح الشريرة جسد الملبوس بها من خلال أصبع القدم أو أصبع اليد؛ لأنهم اعتقدوا أنها لو خرجت من العين فإن الشخص سيصبح أعمى[٥].

كما اعتقد النصارى فى الأرواح الغائبة أو فى اعتناق معتقدات وهمية لم تكن موجودة فى الواقع، يقول جاك تاجر نقلاً عن "تيفينو" :"يوجد بالقرب من مصر العتيقة على شاطىء النهر، مقبرة واسعة دفن فيها عدد كبير من الجثث ويعتقد سكان القاهرة من أقباط ويونانية وغيرهم، اعتقاداً راسخاً أن الموتى فى أيام الأربعاء والخميس والجمعة، كانوا يبعثون ولكنهم لم

---

(١) وليم لين، المصريون المحدثون ، جـ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢) ابن زمرة، فتاوى دافيد بن زمرة، جـ٦ ، ص ٢٥٤ ؛ محاسن الوقاد ، اليهود ، ص ٣٤٧.

(3) Ashtor, History of the Jews, II. P, 363.

(٤) عرفة عبده علي ، موالد مصر المحروسة، ص ٧٢؛ عبد الخالق التميمي، أهل الذمة، ص ٩٨.

(٥) مصطفى لطف، حكاية اليهود فى مصر العصر الأيوبى، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١٣م ، ص ١٣٢ ؛ محمد الجوهرى ، المعتقدات والمعارف، المجلد الخامس ، ص ١٨٣.

يتنزهوا فى المقبرة، كما يتبادر إلى الأذهان، بل كانت عظامهم تخرج من الأرض فى هذه الأيام الثلاثة ثم تعود إليها إذا ما انقضت، فذهبت إلى هذه المقبرة... ودهشت عندما رأيت هذا الجمع الغفير..."[١].

ونود أن نشير إلي أن أهل الذمة نصارى – يهود كانوا يلجأون إلى الصوفية لقضاء حوائجهم، وفي هذا يحدثنا الشعرانى عن أحد هؤلاء الصوفية بأنه "كان يقضى حوائج العجائز والأرامل من النصارى ويخدمهم ويحسن إليهم، وكانوا يسمونه أبو الأيتام والمساكين"[٢] بل ويضيف الشعرانى فى موضع آخر: "ومن جملة اعتقاد النصارى واليهود أنهم يطلبون منى كتابة الحروز لأولادهم ومرضاهم، فأعطى أحدهم القشة فيبخر بها مريضة"[٣]*، فيحصل له الشفاء فأتعجب فى اعتقادهم مع اختلاف الدين"[٤] كما يحدثنا المقريزى عن لجوء بعض النصارى إلى السيدة نفيسة من أجل شفاء أبنائهم قائلاً: "جاء إلى السيدة أسرة من النصارى وذهب أهلها فى حاجة من حوائجهم وتركوا المقعدة عند السيدة نفيسة،ولما عادوا وجدوا ابنتهم قد شفيت, وقد تيقنوا أن مشى ابنتهم كان ببركة السيدة نفيسة..." [٥].

بالإضافة إلى ذلك عمل بعض اليهود بمهنة التنجيم وحاز فيها شهرة واسعة، فقد ذكر ابن دقماق أن أحد اليهود كان يمتلك جانوتا يمارس فيه مهنة التنجيم مدة تزيد على أربعين عاماً، حتى اشتهر المكان باسمه – خلف اليهودى[٦]، كذلك كانت بعض عجائز النساء اليهوديات تحترفن مهنة قراءة الكف والطالع[٧]، كما اشتهر عن سليمان بن المغربى الإشبيلى ت ٧١٨هـ /١٣١٨م أنه كان بارعاً فى عدة علوم منها النجامة[٨]. كما يشير المقريزى إلي أن النصارى لديهم خبرة

---

(١) نيكولاس بيخمان، الموالد، ص١١١ ؛ محمد الجوهرى المعتقدات والمعارف، المجلد الخامس، ص ١٩١.
(٢) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى عام ١٩٢٢م ، ترجمة سمير مرقس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٥م ، ص ٢٧٨.
The venot ,Voyage en Egupte ,P.275 ,
(٣) الشعرانى ، لطائف المنن ، ص ٢٦٨ .
(٤) * ذكرت التوراه اعتماد اليهود على البخور فى معتقداتهم الدينية، للمزيد انظر، سعديا بن جاؤون الفيومى، تفسير التوراة بالعربية، نقله إلى العربية، سعيد مطاوع، أحمد الجندى، المركز القومى للترجمة القاهرة ٢٠١٦، ص ٢٦٠.
(٥) الشعرانى، لطائف المنن ، ص ٢٦٨
(٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٨٤١
(٧) ابن دقماق، الانتصار، جـ ٤ ، ص ٤٩ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة، ص ١٤٠ ؛ عصر سلاطين المماليك ، ص٢٦٧
(٨) قاسم عبده قاسم، اليهود فى مصر ، ص ١٠٢

بعلوم السحر والطلسمات والنجوم لذلك تهافت عليهم الحكماء والفلاسفة وتقربوا منهم [١].فيذكر ابن إياس في بدائعه إلي تعرض أحد النصاري إلي القتل نتيجة سحره لأحد بنات الأمراء المماليك ،فيقول:" وفي حوادث سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م رسم السلطان بتسمير شخص من النصاري زعموا أنه سحر خوند ابنة الأمير طاز زوجة السلطان الأشرف شعبان، فماتت بسحره ،فلما سمر وسط وأحرق بالنار بعد ذلك[٢]

ب- أعيادهم :

فى عصر المماليك استمر اليهود والنصارى يحتفلون بأعيادهم فى حرية تامة كما شاركهم المسلمون فى بعض الأحيان ببعض تلك الأعياد ، وامتزجت بتلك الأعياد بعض العادات والأفعال الخرافية[٣].

عيد الميلاد : ويكون هذا العيد يوم التاسع والعشرين من كيهك [٤]؛ وارتبط بهذا العيد خرافة غريبة ذكرها ابن الحاج: "وهو أنهن يعملن صبيحة ذلك اليوم عصيدة لابد من فعلها لكثير منهن ويزعمن أن من لم يفعلها ، أو يأكل منها فى ذلك اليوم يشتد عليه البرد فى سنته تلك، ولا يحصل له فيها دفء ولو كان عليه من الثياب[٥].

عيد الغطاس[٦]:

وفى هذا العيد يقوم النصارى بغمس أولادهم فى الماء فى ذلك اليوم وينزلون بأجمعهم ، ولا يكون ذلك إلا فى شدة البرد ، ويسمونه يوم الغطاس

---

(١) كان يهودياً ثم أسلم فى أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون وذلك سنة تسعين وستمائة وتسمى أحمد ، المقريزى، السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ ؛ قاسم عبده قاسم، اليهود فى مصر، ص ٤٩.

(٢) المقريزى، تاريخ الأقباط ، المعروف بالقول الإبريزى، تحقيق عبد المجيد دياب، دار الفضيلة ، ص ٢١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ق٢، صـ ٩٦.

(٤) الجدير بالذكر أن اليهود في احتفالاتهم كانوا ــ غالباً ــ مكتفين بأنفسهم ولم يسمحوا لأحد غيرهم مشاركتهم في الاحتفال ،ومن هنا كانت ذكر خرافات أو الأساطير المتعلقة بممارساتهم في الأعياد بمنأي عن الذكر عند كتاب الأخبار ،وهو الأمر الذي يبرر قلة المادة الواردة عن خرافات اليهود في احتفالاتهم وعاداتهم اليومية .

(٥) وفى هذا اليوم يقول النصارى إن السيد المسيح ولد فى بيت لحم ويقولون إنه ولد فى يوم الاثنين، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ٤١٦.

(٦) ابن الحاج، المدخل، جـ٢ ، ص ٥٦

وكان له بمصر موسم عظيم[١]...

وشاع بين النصارى خرافة أن الغطس فى الماء فى ذلك اليوم يعد أمان ووقاية من الأمراض، فيقول المقريزى "... ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء"[٢].

وكذلك "عيد الشهيد" وهو يقام فى ثامن شهر بشنس القبطى سنوياً، وارتبط ذلك العيد بخرافة فحواها: "أن النيل بمصر لا يزيد ماؤه فى كل سنة حتى يُلقى النصارى فيه تابوتا من خشب فيه أصبع أحد القديسين لدى النصارى، وكانوا يحتفظون به فى تابوت فى كنيسة بشبرا"[٣]. وكان أعيان الأقباط من المباشرين والرهبان ينزلون فى المراكب وقت إلقاء ذلك الأصبع فى البحر، ويخرجون ذلك الأصبع من الصندوق الخشب ثم يغسلونه فى بحر النيل فى مكان معلوم فى شبرا[٤]، ويجتمع فى ذلك اليوم الذى يرمى الأصبع فيه خلق من سائر الأقاليم ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل إليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا رب ملعوب ولا ماجن ولا خليع ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد[٥] وبذلك يجتمع بشبرا عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر ويتجاهرون هناك، وكانت تصحب هذا العيد مظاهر الفساد والانحلال والفوضى إذ ترتكب المعاصى جهراً، وتقع حوادث القتل، وكانت الاحتفالات بهذا العيد تمتد أحياناً إلى يومين بثلاث ليال[٦].

---

(١) ويعمل بمصر فى اليوم الحادى عشر من شهر طوبة، وأصله عند النصارى أن يحيى ابن ذكريا- عليهما السلام، المعروف عندهم بيوحنا المعمدانى، عمد المسيح أى غسله فى بحيرة الأردن وعندما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس، فصار النصارى لذلك يغمسون أولادهم فى الماء في هذا اليوم، وينزلون فيه بأجمعهم ولا يكون ذلك إلا فى شدة البرد، ويسمونه يوم الغطاس، وكان له بمصر موسم عظيم إلى الغاية، المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى ص ١٠٢٣، قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١١٤.

(٢) اعتبر وليم لين عيد الغطاس وما يفعل فيه أنه "لتسلية أكثر من اعتباره شعيرة دينية وذلك بقوله: "جرت العادة أن يقوم أغلب الأقباط بطقس غريب فى ليلة الغطاس فيغطس الرجال شيوخاً وشباناً..." وليم لين، المصريون المحدثون، جـ ٢، ص ٢١٦.

(٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ٧١٨؛ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٣٠١.

(٤) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص ١٨٣؛ ابن إياس، نزهة الأمم، ص ١١٢؛ السخاوى، التبر المسبوك، جـ١، ص ١٥٢؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر، ص ١٥٢؛ جاستون فييت القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ٩٣؛ علاء طه رزق، عامة القاهرة، ص ١٤٠.

(٥) العينى، عقد الجمان، جـ٤، ص٢٦٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور جـ١ ق١، ص ٥٦٥- ٥٦٦؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٤.

(٦) العينى، عقد الجمان، جـ٤، ص ٢٦٧؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٤.

هذا وقد أبطل الاحتفال بعيد الشهيد عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م أثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية بسعاية الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير صاحبى السلطة الفعلية آنذاك؛ وذلك بسبب مظاهر الفساد التى ارتبطت به[١] وظل كذلك حتى اعادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧ [٢] ثم أبطل الاحتفال به نهائياً عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م بعد هدم الأمير صرغتمش الكنيسة وأحرق التابوت الذى فيه الأصبع فى الميدان الكبير بحضور السلطان ثم ذرى رماده فى النهر[٣].

جـ ـ في عقائد اليهود والنصارى

ومن الطبيعى أنه كان لأهل الذمة المصريين فى عصر سلاطين المماليك مقدسات يتبركون بها ويعظمونها، ومن أشهر مقدسات النصارى آنذاك "نبات البلسم"[٤] والذى اكتسب شهرة واسعة فى تلك العصور؛ لدرجة أنه كان من الهدايا الجليلة التى يطلبها ملوك المسيحيين من سلاطين المماليك. كما كانت حدائق البلسم فى ضاحية المطرية القريبة من القاهرة مزاراً يحج إليه القادمون من شتى أنحاء العالم المسيحى[٥].

ويصف البعض نبات البلسم بأنه معجزة من المعجزات وأن أفضله لا ينبت بمكان ما على الأرض

(١) ابن إياس ، نزهة الأمم ، ص ١١٢.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٣ ، ص ٩٢٦- ٩٢٧؛ المقفى الكبير جـ٢ ، ص ٥٤٠؛السيوطى، حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٨ ، ص ٢٠٢؛ السخاوى، التبر المسبوك، جـ١ ، ص ٥٢.

(٣) أعاده السلطان الناصر محمد بن قلاوون لسبب غريب، وهو أن اثنين من أمرائه طلبا الخروج للصيد، ولكن السلطان أمر بإعادة الاحتفال بهذا العيد ليصرفهما عن الخروج للصيد... لشدة غرامه بهما، وتهتكه فى محبتهما..." المقريزى، المواعظ والاعتبار المجلد الأول، ص ١٨٣، ابن إياس ، نزهة الأمم، ص ٩٤ ، ٩٥ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة، ص ١٥٣.

(٤) عبد الباسط بن خليل، نيل الأمل فى ذيل الدول، جـ١ ق١، ص ٢٦٨؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٤٨.

(٥) وترجع القدسية التى اكتسبها نبات البلسم، إلى ما يرويه القصص الدينى المسيحى "أنه عند فرار الأسرة المقدسة إلى مصر نزلت لتستريح بمكان غير بعيد عند بابليون فجلست مريم العذراء على الأرض وفى حجرها سيدنا عيسى عليه السلام، بعد أن أجهدها السير ونال منها العطش مناله وهنا حدثت المعجزة فقد أخذ الطفل يرفس الأرض بقدميه فلامس كعباه الأرض وما إن حدث ذلك حتى تفجرت عين ماء فى الموضع الذي لمسته قدماه، واستطاعت السيدة العذراء أن تروى ظمأها من ذلك الماء وأن تغسل لفائف الطفل بالماء أيضاً حيث تساقطت قطرات الماء المعتصرة من لفائف الطفل فأنبتت شجيرات من البلسان، لا تزال تنبت وتزهر فى ذلك المكان، سونياهو ، فى طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، مصر، ١٩٥٧م، ص ١٦-١٧، قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٢١، شوقى عبد القوى التجارة بين مصر وافريقيا فى عصر المماليك ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ١٠٦ هامش ١.

إلا بالمطرية، وفى رأيهم أن هذا قد يكون لقداسة المكان أو لطين أرضها وصلاحيتها لنمو هذا النوع من الشجر[١] ويشير الرحالة طافور إلى مكان زراعة نبات البلسم بقوله : "... إن هذا المكان من الأماكن المقدسة عندنا نحن المسيحيين..." [٢]، وسرى اعتقاد بين الناس، أن الثيران التى تدير نواعير المياه التى تروى شجيرات البلسان تتوقف تلقائياً عن العمل يوم الأحد من كل أسبوع[٣] بالإضافة إلى ذلك ، فقد أشار الرحالة اليهودى ميشولام بن مناحم قصة تعد ضرباً من الخرافة خلاصتها "... أن للترجمان صديقاً يدعى محمد كان يقوم بقطع الأخشاب وأثناء ذلك سقطت الفأس على قدمه و قطعت الأصبع الأكبر من قدمه اليسرى، وكان الأصبع شبه معلق، ثم وضع على هذا الجرح شىء قليل من هذا البلسم، وتم شفاؤه بعد ثلاثة أيام ولم يعد يظهر أى شىء من ذلك، وأننى لم أرى أكثر عجباً من ذلك فى حياتى...." [٤].

وكان من مقدسات مسيحيى مصر رأس القديس مرقص التى كانت محفوظة بالاسكندرية ولم تكن البطريركية تتم رسمياً إلا بعد أن يضع البطريرك هذه الرأس فى حجرة تبركاً بها[٥]، وسرت خرافة أن جسده ما يزال كما هو على حد قول أحد الرحالة الذى أدعى أنه لمسه وذلك بقوله: "وفى القاهرة حيث يوجد فيها جسد القديس مرقص، والذى ما زال جسده ملفوف بالحرير وقد رأيته ولمسته[٦].

وأيضاً اعتقد نصارى مصر فى "عين مريم" وهو بئر أوعين يقع فى منطقة المطرية، وقد وضعت

---

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣م، ص ٢٠٨ ؛ سماح السلاوى، الجاليات الأجنبية ، ص ٢٩،

Ludoloph von suchem ,Descrption of the holy land and and the way thither ed by stewart. A ,London ,1895 p ,67 .Obadiah Jara Da Bertinoro ,Itinerary of Obadiah1487-1490 AD ,in J.T ed Adler London .1930 P..231.

(٢) نعيم زكى فهمى، طرق التجارة، ص ٢٠٧.

(٣) طافور ، رحلة طافور، ص ٧٠ .

(4) Nicolo ,A voyage Beyond the seas 1350 -1346 Jerusalem ,the franciseen ,Paris ,1945 P. .93

(٥) ميشولام بن مناحم ، رحلة الرابى ميشولام بن مناحم أوف فولتيرا ، ترجمة وتعليق مصطفى وجيه مصطفى، تحت الطبع، ٢٠١٧م ، ص ٨٥ ، ٨٦.

(٦) تذكر المصادر التاريخية قيام تجار البنادقة بسرقة هذه الرأس من الإسكندرية سنة ٨٢٢هـ/، ١٤١٩م مما أغضب الأقباط الذين اعتبروا ذلك ضعفاً فى دينهم وقدموا شكواهم من هذه السرقة إلى السلطان المؤيد شيخ، المقريزى السلوك ، جـ٤ ، ص ٥٠٥ ؛ ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٣ ، ص ٢٠٠ ؛ العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٨١٥- ٨٢٤هـ، تحقيق عبد الرازق الطنطاوى قرموط، ص ٣٦٤- ٣٦٥؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٢١.

هذه العين فى غرفة مغطاة بنبات الصفصاف ويخرج من تلك العين قنوات مائية يغتسل منها الزوار وقيل: "أن ذلك الماء له مزايا علاجية تعالج بعض الأمراض" وعلى يسار البئر بقليل توجد فتحة مربعة الشكل كأنها نافذة مغلقة ومزينة بالأحجار والرخام الأبيض، ويقال أن السيدة مريم كانت تضع فيها ابنها المسيح ولذلك السبب يوقدون فيها مصباحاً يتركونه مضاء باستمرار[١].

ومن مقدسات النصارى " شجرة الجميز" والتى كانت بضاحية المطرية قيل أنها كانت ملجأ اختبأت فيه العذراء بطفلها حين كانت فى خوف من القبض عليها[٢]، وسرى اعتقاد بين الناس أن أغصانها تشفى المصابين بالحمى، إذا غمست فى خمر أو ماء ثم شربوا هذا الخمر أو الماء بعد ذلك[٣].

كذلك خزان "كنيسة أبو سرجة"[٤] إذ يذكر الرحالة فابرى أن مياه الخزان نالت بركة كبيرة حتى أنها اليوم مازالت نقية تماماً وتشفى العديد من العلل، وكذلك نجد أن المسيحيين والمسلمين على حد سواء يحضرون هم وأولادهم ليغطسوا فى مياه هذا الخزان بحثاً عن الشفاء والنقاء من الأمراض[٥].

---

(١) وهذه خرافة فلا يعقل أن يظل جسد إنسان كما هو بعد وفاته بعد مرور سنين عدة للمزيد انظر، سماح السلاوى، الأوضاع الحضارية فى مصر والشام فى العصر المملوك من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين، رسالة دكتوراة جامعة عين شمس ٢٠٠٨م ، ص ٢٤٤.

Frescobaldi ,A visit to the Holy places trans by theophilus Bellorini ,Jerusalen 1948 pp,51 , .103

(٢) شيرين الجندى، آثار مصر المسيحية، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م، ص ٦٧

Geshitele ,voyage en Egupte 1483 -1482 Trans by ,Bauwens preaux ,1975 P.72 .

(٣) طافور، رحلة طافور ، ص ٧٠ ، ٧١

(٤) عبد اللطيف البغدادى، الافادة والاعتبار ، ص ٦٤ ؛ جامعة عبد الله محمد، مصر فى كتابات الرحالة فيلكس فابرى، رسالة دكتوراه جامعة الزقازيق فرع بنها ٢٠٠١م ، ص ١٦٨.س

(٥) تقع كنيسة "أبو سرجة" وسط حصن بابليون وحالياً بحارة بسطو روس وسط المساكن المتجاورة ويفصلها عن الكنائس الأخرى حارات ضيقة من الجهات الغربية والشرقية والشمالية، هذا وقد اختلف المؤرخون فى الزمن الذى تم فيه إنشاؤها، فمنهم من يرجعها إلى القرن الخامس أو السادس الميلادى فى حين يذهب البعض بها إلى القرن الثامن الميلادى، كما تضاربت الأقوال فى اسم القديس سرجيوس الذى تبين على اسمه تلك الكنيسة، المقريزى ،المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ١٠٦٤؛ بتلر، الكنائس القبطية المقدسة فى مصر، ترجمة إبراهيم سلامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، جـ١ ، ص ١٦٤، ١٦٥ ؛ شيرين صادق الجندى، آثار مصر المسيحية ، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م ، ص ٧٤، فايز نجيب اسكندر، مصر فى كتابات الحجاج الروس، ص ٤٠.

أضف إلى تلك المقدسات التى يتبرك بها النصارى "قبر القديسة كاترين"[١] والذى ارتبطت به خرافة عجيبة سيطرت على عقول الناس ردحاً من الزمان ثم انتهت تلك التى ذكرها عدد من الرحالة ومفادها: وجد عدد من المصابيح المشتعلة أمام قبر القديسة كاترين وعددها ثلاثة مصابيح وكانت تضىء بواسطة الزيت الذى يرشح من أعضاء العذراء كاترين ، وقال الرهبان إن الزيت كان يقطر قديماً من هذه الرفات، وكان له خصائص علاجية غريبة، كما أن له رائحة عطرة ذكية، وقد قدم رهبان الدير ذلك البلسم أو الزيت هدايا للحجاج والوافدين[٢]، ويذهب فابرى وجستل أبعد من ذلك بخرافة أغرب من الأولى خلاصتها :"... فى يوم عيد القديسة من كل عام تظهر طيور وعصافير ذات نوع مجهول تحمل فى مناقيرها أغصان زيتون خضراء زاخرة بالزيتون، وتسقط هذه الأغصان على سقف الكنيسة فيجمعها الرهبان ويستخرجون منها زيتاً رائعاً وبكميات كبيرة حتى إنه يكفيهم طوال العام[٣].

ويمكننا القول :أن تلك القصص كان مصدرها رهبان الدير فى وقت كان فيه النصارى لا يناقشون على الإطلاق أقوال الرهبان ويتقبلونها بصدق، ويرجع ذلك إلى ثقتهم فى الرهبان، مما يؤدى إلى انعدام التفكير وقبول المبالغات والخرافات، ومن جانب آخر فقد أوجد الرحالة فابرى سبباً لتوقف هاتين الأسطورتين بقوله: "أن سبب توقف هذه المعجزات إما لعدم استحقاق رهبان اليوم للمعجزات أو أن زمن المعجزات قد ولى..." [٤].

واستكمالا لما ذكرناه ، كان النصارى يعظمون رفات القديسة كاترين ويتمسحون بها، يشير

---

(١) ربما ترجع قدسية هذا الخزان إلى أن السيدة العذراء كانت معتادة أن تغسل فيه ملابس السيد المسيح وفيه ألقى أجساد القديسين الذين تم استشهادهم من أجل الإيمان المسيحى للمزيد انظر، رءوف حبيب، كنائس القاهرة القبطية القديمة القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٢٥؛ حامد عبد الله محمد، مصر فى كتابات الرحالة فيلكس فابرى، ص ١٧٥.

(٢) يوجد قبر القديسة كاترين فى كنيسة اليونايين ، أى الكنيسة الرئيسية التى بناها جستنيان ، حيث تسجى عظامها فى تابوت مصنوع من الرخام الأبيض المصقول، وداخل الكنيسة صندوق به جسد القديسة كاترين وهو عبارة عن صندوق مربع الشكل من الرخام الأبيض وعليه رسوم و أشمال ملونة، والغطاء مصنوع من الرصاص وخشب الأرز، حامد عبد الله محمد، مصر فى كتابات الرحالة، ص ١٠٣.

(3)Fabri ,le voyage en Egypte de felix fabric ,ED ,massan ,s .J ,Paris 1975 I ,P ,257 .III ,P,862
Ghistele ,voyage en Egypte ,1483 -1482 ,L .F A ,1976 ,0 .P.161 ,
Wright ,Early travelers in plestine ,London 1948 P . 158 ,Langnon ,lesaint voyage de Jehrus - lem de seigner de Angleur paris ,1828 ,P.47 ,

(٤)Fabri, op. cit. III, p 867. Ghistele, op. cit, 161.

الرحالة فابرى إلي "... أنه اجتمع هو ورفاقه لمشاهدة رفات القديسة كاترين ، وذلك فى حضور الرهبان ورئيس الدير، ثم نزع الرهبان غطاء التابوت الرخامى، وتلو أناشيد يونانية ثم اقترب رئيس الدير من التابوت وانحنى فى احترام ثم صعد باتجاه التابوت وقبل رفات القديسة كاترين وبعده قبل الرهبان بدورهم الرفات المقدسة بنفس طريقة رئيس الدير، ثم تلاهم الحجاج فى تقديس وتعظيم رفات القديسة كاترين مع وضع جميع ما معهم من حلى سواء الذهبية أو الفضية فوق الجسد المقدس طلباً للبركة، ولم يكن رئيس الدير يتركهم لحظة واحدة بعينه، حتى لا يتم سرقة أى جزء من الجسد المقدس[١].

ومن ناحية أخرى، وجد فى دير القديسة كاترين باب يطلق عليه "باب الاعتراف"[٢] فقد سرى اعتقاد بين النصارى أنه لا يوجد أى يهودى يستطيع المرور من هذا الباب، حيث يتوقفون أمامه متجمدين يملؤهم الخوف وتطردهم معجزة إلهية؛ وبذلك لا يستطيع أى يهودى الصعود على هذا الجبل[٣].

كما كان هناك دير بالقرب من بحيرة البرلس اسمه "دير المغطس" وكان نصارى مصر يحجون إليه من سائر الأنحاء كما يحجون إلى كنيسة القيامة بالقدس وذلك فى عيده من شهر بشنس ويسمونه عيد الظهور، من أجل أنهم يزعمون أن السيدة مريم تظهر لهم فيه ولهم فيه مزاعم[٤]، وقد هُدم هذا الدير سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م[٥].

---

(1)Fabri, op.cit., III, P, 867

(٢) ويشير أيضاً أنه تم سرقة أجزاء من رفات القديسة قبل ذلك كما تم منح أجزاء كثيرة بأمر البطاركة والأباطرة والبابوات والملوك والأمراء، أما اليوم فإنهم لا يعطون شيئاً مما تبقى من الجسد المقدس والواضح أن هذه الأجزاء كانت تستخدم للتبرك بها، حيث كانت هذه الاعتقادات شائعة فى العصور الوسطى، حامد محمد عبد الله، مصر فى كتابات الرحالة فليكس فابرى، ص ١٠٤.

(٣) وهو عبارة عن قوس من الحجاز يمتد من صخرة إلى أخرى ومنثن على شكل باب، ويعتبر من الآيات القديمة المصنوعة من الحجارة الضخمة، وهذا الباب ليس له مصرعان ويعتبر طريق الصعود الوحيد، نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ص ٢٢٤.

(٤) وربما يرجع هذا الاعتقاد إلى الأسطورة القائلة: "بأن أحد اليهود تفكر وانضم إلى مجموعة من الحجاج المسيحيين وعندما وصل الجميع لهذا الباب أمر الحجاج عبر الباب فيما عدا اليهودى الذى لم يستطع التقدم، ووقف يبكى لأنه يرى المسيح المصلوب تحت هذا الباب يمنعه من المرور واعترف لهم بأنه يهودى وأنه منذ تلك اللحظة تحول إلى المسيحية، حامد عبد الله محمد، مصر فى كتابات الرحالة فليكس فابرى، ص ٨٩.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار،المجلد الرابع القسم الثانى، ص٤٩٠١،ابن حجر،إنباء الغمر،جـ٤،ص ٣٩.

ومن أديرة النصارى التى كانوا يتبركون بها "دير أتريب" وسرى اعتقاد بين النصارى أن حمامة بيضاء تأتى إلى هذا الدير فى يوم حادى عشرين بؤونه، فتدخل المذبح ، ولا يدرون من أين جاءت ولا يرونها إلا في يوم مثله، وقد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبق به إلا ثلاثة من الرهبان، لكنهم يجتمعون فى عيده وهو على شاطىء النيل قريب من بنها[١].

"ودير سرياقوس" وهو دير يذهب إليه خلق كثير من النصارى بحجة أن الذهاب إليه يبرئ العلل وهو ما حكاه المقريزى بقوله: "... أن من كان به مرض، أخذه رئيس الدير، وجاءه بخنزير فلحس موضع الوجع، وإذا تنظف الموضع ذر عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا العمل من قبل، ودهنه بزيت قنديل البيعة، فإنه يبرأ، ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذى لحس المرض، فيذبح ويحرق ويعد رماده لمثل هذه الحالة، فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة، وفيه خلق من النصارى"[٢].

وكذلك "كنيسة القديسة بربارة" والتي تقع فى حارة الروم فى منطقة بابليون وتحوى جسد تلك القديسة[٣] ويوجد فى الكنيسة صندوق به جسد القديسة بربارة ، حيث كان يسمح للزوار بلمس جسدها تبركاً بها[٤].

ولم يقتصر الأمر على النصارى، بل كان لليهود مقدسات يتبركون بها، فقد ذكر بنيامين التطيلى، أنه كان يوجد بالقرب من أهرام الجيزة كنيس كبير لليهود يعتقدون أنه بنى فى المكان الذى كان موسى عليه السلام يأوى إليه حين كان يبلغ فرعون رسالة ربه، وبالقرب منه كانت توجد شجرة مورقة بصفة دائمة، وكانت غاية فى الحسن والفخامة وكان اليهود يعتقدون أنها نبتت فى المكان الذى غرس فيه موسى عصاة[٥]، وقد أصبحت هذه الشجرة جافة عقيمة بشعة المنظر أيام المقريزى، إلا أن اليهود كانوا يحجون إلى هذه الكنيسة فى عيد الأسابيع[٦].

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٤ ق٢، ص ١٠٣٤؛ ابن حجر؛ إنباء الغمر، جـ٤ ، ص ٧١ ؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٢١- ١٢٢.

(٢) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع، القسم الثانى، ص ١٠٤٩.

(٣) المقريزى، نفسه، ص ١٠٤٩.

(٤) المقريزى، نفسه، ص ١٠٦٤.

(5)Frescobaldi ,A visit to the Holy places trans by thephilus Bellorini ,Jerusalem ,1948 ,pp,51 103Schefer ,Le voyage de saincte de Hierusalem ,par ,1882 P .51 ,Dopp ,Le caire vu par les voyageurs occident du moyen ages tome ,24-26 Le caire .1951 P.118 .

(٦) بنيامين التطيلى، رحلة بنيامين التطيلى ٥٦١ – ٥٦٩هـ ترجمة وتعليق عزرا حداد، بغداد سنة ١٣٨٤م، ص ١٧٥ ؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٢٢.

بالإضافة لما سبق، ذكر الرحالة اليهودى ميشولام خرافة قد ارتبطت بمعبد خاص لليهود بالاسكندرية مفاداها: "... كان لليهود معبدان أحدهما كبير والآخر صغير، ويشير اليهود إلى أن المعبد الصغير بني بواسطة إلياس الرسول الذى استخدمه للصلاة هناك... والمعبد له شماسان، هما يوسف بن باروخ والآخر هليفة وقالوا: إنه فى عام ١٤٥٥م عشية عيد التكفير تركوا لكى يناموا فى المعبد هما وأثنان آخران ورأوا فى منتصف الليل ما يشبه الرجل العجوز جالساً على كرسى فقرروا الذهاب أمامه بتواضع وانحنينا في طلب المسألة منه، وعندما تقدمنا منه بحثنا عنه ولم يعد موجوداً..."[١].

د -موالد أهل الذمة:

لم يكن المسلمون وحدهم هم الذين يحتفلون بالموالد، فلقد كان لأهل الذمة موالد خاصة بهم[٢] فالنصارى يبجلون العذراء مريم ومارجرجس وبرسوم العريان وغيرهم ويقيمون الأعياد التذكارية تمجيداً لهم ويعتقدون فى قدرة القديسين؛ إذ آمن الناس بهم فى شفاء المرض وقضاء الحاجات ،ويقيمون لهم الأعياد والمواسم ويحتشد الناس من كل حدب وصوب، وهم يتلون الصلوات والتضرعات ويقدمون النذور والضحايا ويعتقدون أنهم حماة كل بلدة يعنون بها ويرعونها.

وعلي أية حال ، يوجد تشابه كبير بين المعتقدات الإسلامية، والمعتقدات المسيحية بالنسبة للأولياء والقديسين والكرامات التى تنسب لكل فريق، ومظاهر التقديس والاحتفالات الدينية تضرب بجذورها فى الإرث الحضارى المصرى القديم لكل من الأقباط والمسلمين[٣]، وتنحصر مرتبة "القداسة لدى الكنيسة المصرية فى الشهداء والرهبان[٤]، وتطور الاعتقاد فى الشهداء والاهتمام برفاتهم ومراقبة الأعياد السنوية لهم باعتبارهم أبطالاً ناضلوا وبذلوا دماءهم فى عهود الوثنية، وأصبح لكل قرية مزار لشهيد يحوى عظاماً لبعض الموتى المجهولين، أخرجت من القبور ومنحت كل التبجيل والاحترام وخلع على هذه الرفات أسماء وألقاب لائقة، وفى حالات كثيرة كان المرجع

---

(١) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٩٦٢.

(٢) ميشولام بن مناحم، رحلة الرابى ميشولام بن مناحم، ص ٤٦.

(٣) بعد النظر والاطلاع على المصادر تلك الفترة على حد أطلاعى- لم أجد ما يفيد بوجود موالد خاصة باليهود.

(٤) عرفة عبده على ، موالد مصر المحروسة، دراعين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص ٧١.

الوحيد فى هذا الشأن "حلم" أو "رؤية" لكاهن أو راهب[١].

وفيما نُلقى الضوء على عدد من أشهر الموالد المسيحية[٢]

مولد برسوم العريان:

ولد برسوم سنة ١٢٥٧م فى مصر[٣]، وكان والده يسمى الوجيه مفضل كاتب الملكة شجر الدر وأمه من عائلة التبان، ولما توفى أبواه استولى خاله على كل ما تركاه له ، فلم ينازعه، بل ترك له كل شيء، وعاش عيشة الأبرار السواح، وكان يسير عرياناً، وحبس نفسه فى كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس بمصر القديمة[٤]، داخل مغارة مظلمة ورطبة تحت الأرض وحبس نفسه هناك وأقام حوالي عشرين سنة ملازماً الصلوات ليل ونهار بلا فتور[٥]، وكان طعامه الفول المبلل بماء البحر الردئ الطعم، وكان شرابه أيضاً من ماء البحر وكان رجلاً تقياً جداً، وعندما خرج من المغارة مضى

---

(١) يذكر نيكولاس بيخمان ، انه لايوجد قديسون جدد ،لان القداسة تكتسب في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية نتيجة لحالتين فقط الشهادة أو الرهبنة بالإضافة لوجود سلطة مركزية فى الكنيسة، هو البابا القبطى فهو يوافق أو لا يوافق على إعلان قديس جديد، فالقديس لا يمكنه أن يسجل فى القائمة الرسمية للقديسين، إلا إذا انقضت خمسون سنة على وفاته، وفى هذه الحالة إذا ما أعلنت قدسيته فهى تكون دائمة، يذكر اسمه فى القداس، فى جميع أنحاء البلاد وتوضع بقاياه داخل قبر فى الكنيسة، ليتمكن المؤمنون من لمسها والتبرك بها، لكن هناك استثناءات بالنسبة للباباوات فإذا ما أعلنت قداسته راهب ما بواسطة الدير الذى كان يقيم فيه حينئذ يعطى البابا موافقته، لكن دون وضع بقاياه عظامه فى الكنيسة ذاتها، ويذكر اسمه فى قداس الدير، نيكولاس بيخمان، الموالد والتصوف فى مصر، ترجمة وتقديم رءوف مسعد، المركز القومى للترجمةالقاهرة٢٠٠٩م، ص١٠٣-١٠٤؛ عرفه عبده على،موالد مصر المحروسة،ص٧٢.

(٢) ولقد انتقد الراهب المصلح شنودة أهمية الاعتقاد فى الشهداء وتقديسهم وكان ذلك إبان القرن الخامس الميلادى، وكان هذا البابا تحت يده ستة آلاف راهب يتقون هو وإياهم من عمل الخوص... للمزيد انظر المقريزى، المواعظ والاعتبار المجلد الرابع القسم الثانى، ص ١٠٦٣؛ عرفة عبده علي، موالد مصر المحروسة، ص٧١، نيكولاس بيخمان، الموالد، ص ١٠٧.

(٣) تشير عدد من المراجع إلى أن عدد الموالد المسيحية يقترب من اثنين وستين مولداً، عرفة عبده على، موالد مصر المحروسة ، ص ٧٤؛ عصام ستاتى، مقدمة فى الفولكلور القبطي ،الهيئة المصرية للكتاب القاهرة٢٠١٤م، ص٢٦.

(٤) وكلمة برسوم كلمة من مقطعين كلمة بار سريانية نقلت إلى القبطية بمعنى ابن، وكلمة سومى قبطية وتعنى الصوم، أى أن برسوم تعنى ابن الصوم، وكلمة عريان العربية تعنى الزهد ، والاسم فى مجمله يوحى إلى روحانية وصوفية ورهبانية... للمزيد انظر، عصام ستاتي، مقدمة فى الفولكلور القبطى، ص ٦٥.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ١٠٢٦.

إلى سطح الكنيسة وأقام هناك صابراً على الحر والبرد فى الصيف والشتاء، وكان يعذب نفسه دائماً بالبقاء فى الشمس كل أيام الصيف حتى صار جلده أسود اللون وقد أحتمل ذلك تقشفاً وتعبداً وتعذيباً للطبيعة التى كان يعانى منها دائماً، ولبث على سطح الكنيسة نحو خمس عشرة سنة، ولم يستطع أحد أن يتفوق عليه فى تقواه وتعبده وزهده ومعاناة قسوة الطبيعة الا بمعونة الله، وكان طعامه من الزواحف، إذ كان يواجه الزواحف السامة ويأكلها متلذذاً بنعمة الله ؛ وذلك حسب ما قاله القديس اسحاق السريانى، ولم ينم هذا القديس طيلة حياته على الأرض إلا وهو عارى الجسد، وكان يغذى من يلجأ إليه سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن وله القدرة على التنبؤ ، وشفاء الابدان والنفوس[1].

وكان من بين كرامات برسوم العريان، أنه تنبأ بما سيحدث للنصارى من اضطهاد من جانب السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، كما أنه لم يسر عليه قيود كما سرت على غيره من النصارى فيقول، بتلر: "... وقد لبث فى سطح الكنيسة نحو خمس عشرة سنة، وفى ذلك الوقت نشب اضطهاد عظيم أغلقت خلاله كافة كنائس القبط، والزم المسيحيون بلبس العمائم الزرقاء، كما تغيرت ملابسهم الأخرى أيضاً وطردوا من وظائفهم وأجبروا على ركوب الدواب بالوضع العكسي وارتدوا حذاء أطلق عليه اسم "تسوما"[2] وكلما دخلوا الحمام كانوا يلزمون بتعليق أجراس صغيرة حول أعناقهم... ولكن القديس برسوم كان يصلى ويتضرع إلى الله دائماً بقلب متحمس من أجل الأخوة، وقد صام أربعين يوماً متصلة حتى رفع الله غضبه عن شعبه، ولكن برسوم كان قد تنبأ بذلك قبل حدوثه، وعندما كان فى السجن لم يأكل أو يشرب وأعطى كل ما أحضره إليه مريدوه وزملاؤه... ولما تنبأ له أحدهم: "متى سنتخلص من السجن" أجاب قائلاً "اليوم" وكان كذلك فأخرجوه من السجن ونفوه إلى دير شهران.... ولكن الرب حفظه من كافة خصومة، وكان معظم حكام ذلك الوقت والامراء والقضاة يزورونه ويرون عمامته البيضاء ،ولكن الرب حفظه من

---

(١) شاعت خرافة بين الناس أن المغارة التى كان يعيش فيها وجد فيها ثعبان هائل فعند دخوله رأي هذا الثعبان فصرخ قائلاً " يا ربى يا إلهى أنت الذى أعطيتنا السلطان أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوات العدو أنت الذى وهبت الشفاء لشعب إسرئيل الذين لسعتهم الحيات... ثم رسم ذاته بعلامة الصليب وتقدم نحو الثعبان قائلاً تطأ الأفاعي والحيات وتدوس الأسد والتنين" وتمضى الأسطورة إلى أن الثعبان أصبح أليفا، وأظهر الثعبان علامة الخضوع والطاعة وصار مع القديس برسوم للمزيد نظر، عصام ستاتى، مقدمة فى الفولكلور ص ٦٥-٦٦.

(٢) الفريد بتلر، الكنائس القبطية فى مصر، ترجمة إبراهيم سلامة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ،٢٠١٢م، جـ٢ ، ص ٢٨٦- ٢٨٧.

عدائهم،فلم يجرؤ أحد منهم علي إلزامه بلبس العمامة الزرقاء..." [١]، وقد توفى عن عمر ناهز الستين عاماً ودفن جسده بدير شهران المعروف باسم "مرقوته"[٢].

هذا هو القديس برسوم العريان، أما بخصوص مولده فيقام الاحتفال به والذى يقام فى دير القديس برسوم العريان بالمعصرة قرب "حلوان" ويقام فى منتصف الشهر الأول من توت سبتمبر[٣].

هذا المولد المسيحى له من الشعبية عند المسلمين ما له عند الأقباط، فيشير المسلمون إليه بسيدى محمد البرسومى أو بسيدى البرسومى أو "بسيدى العريان" وربط عدد من المسلمين بين كرامات الأولياء المسلمين وبين كرامات العريان خاصة فى مسألة التعامل والتعايش مع الأفاعى ، حيث تجد الهتاف المكرر عم يا عريان يا طى التعبان و " يا عم يا رفاعى يا طى الأفاعى" وبذلك أعطوا العريان والرفاعى المقدرة على خروج الثعابين، كما تم الربط بين العريان والسيد البدوى، حيث أن كلاً منهما أقام على السطوح ، فهناك زعم بأن العريان عاش عشرين سنة على سطح الكنيسة وهناك زعم بأن البدوى عاش على سطح المنزل فى خلوته كما أن لكل منهما دوراً فى إنقاذ أتباعه فكما يقال الله الله يا سيد جاب اليسرى أى جاب الأسرى، فإن العريان كان يدافع عن شعبه من ظلم واضطهاد الحكام فى عصره[٤]وما إلي ذلك من خرافات.

مولد العذراء مريم :

ويعقد هذا المولد القبطى للاحتفال بصعود السيدة العذراء قرب موعد هذا العيد[٥]، ولعل سبب إقبال العديد من الناس إلى مولد السيدة العذراء هو إيمانهم فى قدرتها على علاج أمراض

(١) ربما يقصد ذلك المرسوم الشهير سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م الذى أصدره السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطنته الثانية فقد أجبر النصارى على لبس اللون الأزرق واليهود الأصفر، كما فرض عليهم أن يميزوا أنفسهم بصليب من الحديد أو الرصاص أو النحاس فى رقابهم عند دخولهم الحمامات كذلك حرم عليهم ركوب الخيل والبغال النفيسة وحمل السلاح، للمزيد انظر القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣ ، ص ٣٧٨- ٣٨٧ ؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص٧١؛ أ. س ترتون، أهل الذمة فى الاسلام، ترجمة، حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة الطبعة الثانية ١٩٩٤م ، ص ٦١ ، ١٣٥.

(٢) بتلر، الكنائس، جـ٢ ، ص٢٨٦؛ عصام ستأتى، مقدمة فى الفولكلور القبطى، ص ٦٧.

(٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ١٠٢٦.

(٤) مكفرسون، الموالد فى مصر، ص ٣٦٠؛ عصام ستأتى مقدمة فى الفولكلور، ص ٦٧.

(٥) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى، ص ١٦٠؛ مكفرسون، الموالد فى مصر، ص ٣٦٣؛ عصام ستاتى، مقدمة فى الفولكلور ، ص ٦٥ ، ٧٠ ؛ نيكولاس بيخمان، الموالد ، ص ١١٤.

العيون والبصر، وهم ينادون " يا أم النور نورى لنا الأمور" و جاى لك يا أم النور" فقد شاع بينهم أن أم النور لديها قدرة هائلة على إعادة البصر، ومن لا يعود له بصره سيرى ببصيرته أى تنير له الطريق[١].

ويعتقد الناس في ظهور السيدة العذراء وتجليها وأنها تفرج عن النفس التى تعانى من حالة الضيق، وأنها تظهر لهم ظهور العين وليس مجرد حلم نائم، وعند حكايتهم عن قدرات الشفاء والمعجزات لا يحكونها من باب السماع بل يحكونها على أنها أحداث وقعت بالفعل، ويذكر ساويرس بن المقفع ذلك بقوله : " إن أبا إيليا أسقف طموه [مركز الجيزة] رأى نوراً عظيماً على صورة السيدة مريم العذراء الطاهرة التى فى أعلى الهيكل وثبت النور عليها طويلاً وشاهده جميع الشعب الحضور فى العيد وحدثنى القس يونس ريس دير نهيا أنه كان حاضراً ذلك اليوم وابصر النور فمضيت أنا الخاطى وتباركت من الصورة المقدسة"[٢].

مولد مارجرجس [٣]:

يقام هذا المولد المسيحى الذى يحتفل به الأقباط واليونان الأرثوذكس فى الفترة من ٢٢- ٣٠ أغسطس ويقام فى ميت دمسيس إحدى قرى محافظة الدقهلية ويوجد مولد بجبل الرزيقات بمركز أرمنت جنوب محافظة قنا فى الفترة ١٠-١٧ نوفمبر، ويذهب النصارى لهذا المولد لأنهم يشعرون بالراحة ويخرجون من حالة الضيق والاكتئاب، والبعض يذهب طلباً للشفاء ويتمسح النصارى بصورة مارى جرجس وهو ما يشبه ما يقوم به بعض المسلمين فى ضريح الحسين والسيدة زينب ووقوفهم أمام السياج الحديدى يمسحون يدهم به ثم يمسحون أجسادهم[٤].

وتدور معظم المعجزات المنسوبة لمار جرجس حول فكرة الحماية والحراسة لهم وللمدينة التى يقام

---

(١) هناك أكثر من مولد فى أوقات متعددة فهناك يعقد مولد للعذراء بمسطرد فترة ١٦ مسرى، ومولد العذراء بالزيتون من ١٧- ٢١ أغسطس، ومولد العذراء بجبل الطير بالمنيا فى نهاية شهر مايو ، ومولد العذراء بدير درنكة بأسيوط فى النصف الثانى من أغسطس، للمزيد انظر مكفرسون، الموالد فى مصر، ص٣٦٧.

(٢) عصام ستاتى، المقدمة، ص ٤٩.

(٣) ساويرس ابن المقفع، تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١٢م جـ٦ ، ص ١١١ – ١١٣ ؛ نيكولاس بيخمان، الموالد فى مصر، ص ٣٦.

(٤) مارى جرجس أو مار كلمة سريانية تعنى السيد أو القديس وكلمة جرجس مشتقة من اليونانية جوجريوس ومعناها من يفلح الأرض عصام ستاتى، مقدمة فى الفولكلور القبطى، ص٣١.

بها المولد، كما يذهب الناس لمولد مار جرجس طلباً للشفاء، ويذهب البعض الذين قد مسهم الجن حتى يتم معالجتهم[١].

ومن الأشعار التى تقال فى مديح مارجرجس :

- طوبا لدا المغبوط لكتــر تزهــده	زهد مشى العالم وما يعناه
- طوبا لدا القديس لكتـــر تنسكـــه	بالنسك فى الساعات يزيد صلاه
- طوبا لدا البطل فى العذاب والمجاهد	لم يبطل التسابيح من قــول فاه
- وقـال لـه لك عندى كرامات واليهـــا	وسبعـة أكاليل زايدة الوصفاه[٢]
-التأثيرات المسيحية واليهوديــة فــى	عادات وتقاليد المجتمع المصرى:

التأثيرات المسيحية واليهودية في عادات وتقاليد المجتمع المصري

وعلى أية حال، ظهر تأثير أهل الذمة واضحاً فى عادات وتقاليد المجتمع المصرى آنذاك فيما أشارت إليه المصادر العربية من أن بعض نساء المسلمين اعتدن عدم شراء السمك أو أكله أو إدخاله بيوتهن يوم السبت ، ومن المعروف أن اليهود قد حرموا صيد السمك أو أكله يوم السبت، كما أن بعض النسوة تعودن عدم دخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب فى يوم السبت متأثرات فى ذلك ببعض العادات اليهودية المتعلقة بحرمة يوم السبت لِدى اليهود[٣]، كما ظهر تأثرهن بالعادات المسيحية ، وفي ذلك يشير ابن الحاج: "ثم انتقلن من خصلة اليهود إلى خصلة من خصال النصارى فى كونهن لا يعملن فى ليلة الأحد ولا فى يومه شغلا، وأما يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فعندهن أنه مباح لهن فيهما جميع ما يخترنه، ويوم الأربعاء لا يشترين فيه اللبن ولا يدخلنه بيوتهن ولا يأكلنه ويوم الخميس للأشغال والحوائج التى لهن كما تقدم فى يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الجمعة لا يعملن فيه شيئاً من غزل كتاب ولا محره ولا تسريحة وغير ذلك ، وكذلك منعهن خروج النار أو شيء من ماعون البيت عشية كل يوم ويبالغن فى منع ذلك حتى أن من كان منهن يتعشى فى ضوء السراج، ثم جاء أحد يسرج منه فلا يتركنه، فإن اضطر إلى ذلك أذن له بشرط أن يسرجه ثم يطفئه يفعل ذلك ثلاثاً قبل أن يذهب به ويوقده فى الرابعة وحينئذ يذهب

---

(١) سليم كتشنر ، سيرة مارجرجس، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ، ص ١٥.

(٢) عصام ستاتى ، مقدمة فى الفولكلور القبطى، ص ٤١ .

(٣) سليم كتشنر ، سيرة مارجرجس ، ص ١٩٧- ١٩٨.

به، ومن عادات النصارى إن اضطر أحد أخذ الغربال جعلت فيه حجراً أو ملحاً أو غيرهما، وهذا من باب الطيرة"[١].

ومن بين العادات التى تأثر بها المسلمون بالمسيحيين، أنه إذا دخل الإنسان الحمام أربعين أربعاء متوالية فإنه يفتح عليه بالدنيا[٢] كما شاع بين المسلمين فى بداية كل سنة أن يقوموا بشراء الفقاع ويفتحون فمه فى البيت فيصعد ناحية السقف ويزعمون أن الرزق يفور لهم فى تلك السنة ويوسع عليهم فيها، متأثرين فى ذلك بالنصارى[٣].

وفى الصدد نفسه، أثارت بعض العادات الاجتماعية حفيظة ابن الحاج، باعتبارها ذات أصل غير إسلامى[٤]*، وهى أنه إذا نزلت الشمس فى برج الحمل فيخرجون فى صبيحة يومهم ذلك رجالاً ونساء وشباباً أقارب يجمعون شيئاً من نبات الأرض يسمونه بالكركيس فيقطعون ذلك من موضعه بالذهب والفضة والخواتم النفيسة والأساور وغير ذلك ويتكلمون بكلام أعجمى يحتمل أن يكون كفرا، ويجعلون ما يقطعون من تلك الحشيشة فى خرائط اعتقادا أن ذلك ما دام فى البيت يكون سبباً لإكثار الرزق عليهم[٥].

ولم يقف الأمر عند مشاركة المسلمين لأهل الذمة فى الأخذ بعاداتهم، بل تعداه إلى المشاركة فى أعيادهم وما يتعلق بها من معتقدات[٦]*، ففى "عيد الميلاد" والذى كان المصريون يصنعون فيه نوعاً من العصيدة ويزعمون أن من يأكلها يتقى البرد طوال العام[٧]، وأيضاً فى "عيد الغطاس" كان بعض المسلمين يشاركون المسيحيين عادة غمس أولادهم فى الماء رغم شدة البرودة بسبب ما اعتقدوه أن ذلك يقيهم المرض طوال حياتهم[٨]، كذلك فى عيد "خميس العهد" ، اعتادت

---

(١) ابن الحاج، المدخل، جـ١، ص٢٧١؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٤٣؛ عصر سلاطين المماليك، ص ٢٧٠ ؛ اليهود فى مصر، ص ١١٠- ١١١.

(٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ١ ، ص ٢٧١.

(٣) ابن الحاج، المصدرنفسه، جـ١ ص ٢٧٤.

(٤) ابن الحاج، المصدر نفسه، جـ١ ص ٢٧٤.

(٥) لم يحدد ابن الحاج هذه العادة بأنها مسيحية أو يهودية .

(٦) ابن الحاج، المدخل، جـ١ ص ٢٧٣، قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٢٣.

(٧) قد يرى البعض وجود تكرار فى بعض الأفكار الواردة فى هذا الفصل ولكن هذا التكرار – إن وجد- فهو فى حقيقته يعالج فكرة أخرى، مع الأخذ فى الاعتبار أن كل نقطة فى البحث تهدف لتوضح عدد من الخرافات الشائعة فى المجتمع.

(٨) ابن الحاج ، المدخل، جـ٢ ، ص٥٦ ؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٥٥.

المسلمات أن يخرجن لشراء البخور والخواتم حتى أصبح عددهن فى الأسواق أكثر من عدد الرجال، ولابد من البخور فى ذلك اليوم حتى يصرف عنهن العين والكسل والوعكة من الجسد[١].

وفى عيد "سبت النور" شارك المسلمون الأقباط الاحتفال بهذا العيد، فكانوا يقومون بشراء الريحان وورق الشجر فيبيتونه فى إناء به ماء ويغتسلون به، ثم يأخذون ما اجتمع من غسلهم ويلقونه فى الطريق حتى تذهب عنهم الأمراض والأسقام[٢]. بالاضافة إلى "عيد النيروز" والذى شارك فيه المسلمون جيرانهم الأقباط ويغلب على الظن إن عادة الاحتفال بهذا العيد قد انتقلت إلى ألأقباط من قدماء المصريين ؛ وكما ذكرنا سابقاً فإن المسلمين تأثروا بالمسيحيين فى كيفية تجهيز العصيدة ويزعمون أن من يأكلها يتقى البرد طوال العام[٣].

وثمة عيد آخر، شارك مسلمو مصر اقباطها فى الاحتفال به ، فكما ذكرنا سابقاً، أن النصارى اعتقدوا أن عليهم أن يلقوا أصبع أحد أسلافهم من الحواريين فى النيل، وإن لم يفعلوا فإن النيل لن يزيد، وشاركهم المسلمون فى هذا الاعتقاد، فيتجمع المصريون بناحية شبرا، ويخرج عامة القاهرة ومصر على أختلاف طبقاتهم فينصبون الخيام على شاطىء النيل ويركبون الخيول ويلعبون عليها، بحيث لا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو، ولا محدث ولا ماجن ولا خليع الا ويخرج لهذا العيد[٤].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تأثر المسلمون بالأقباط وشاركوهم فى زياراتهم لمقدساتهم الدينية، فيحكى ابن حجر، أن هناك دير "المغطس" يحج إليه النصارى فى كل سنة، فحاكاهم المسلمون فى ذلك حتى صار يجتمع عند ذلك الدير فى الموسم المحدد لزيارته ما لا يحصى من المسلمين والنصارى[٥]، وكما رأينا آنفاً تقديس النصارى لنبات البلسم، فقد حظى كذلك بنفس القدسية عند بعض المسلمين، والشاهد على ذلك ما قاله ابن الحاج: "إن النصارى يفدون فى عيد الزيتونة الشعانين إلى المطرية حيث يغتسلون فى بئراً لبلسم تبركاً به وجاراهم بعض المسلمين فى ذلك[٦].

---

(١) ابن الحاج ، نفسه، جـ٢ ، ص٥٦ ؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٥٦.

(٢) ابن الحاج، نفسه، جـ٢ ، ص ٥٢ ؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٥ ؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٥٦.

(٣) ابن الحاج ، نفسه، جـ٢ ، ص ٥٤؛ سعيد عاشور المجتمع المصرى، ص ٢٢٥.

(٤) ابن الحاج، نفسه، جـ٢ ، ص ٤٨؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ١٥٣.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، المجلد الأول، ص١٨٣؛ ابن إياس، نزهة الأمم، ص ١١٢؛ السخاوى ، التير المسبوك، جـ١ ، ص١٥٢ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة، ص ١٥٣.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، جـ٤ ، ص ٣٩-٤٠؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص ٢٢٦.

ولا يغيب عن الذهن زيارة أعداد غفيرة من المسلمين إلى موالد النصارى[١] نذكر على سبيل المثال مولد برسوم العريان وذلك طلباً للبركة، بل وينعتونه بسيدى العريان[٢] وهكذا كثر التخليط على بعض الناس فى هذا الزمان لمجاورتهم ومخالطتهم القبط النصارى، فأنست نفوسهم بعوائد من خالطوه ووضعوا تلك العوائد موضع السنن[٣].

وفى نهاية المطاف لم يبق إلا ذكر ما قاله المستشرق لين: "وهناك ظاهرة غريبة فى خلق المصريين وغيرهم من الشرقيين، وهى أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتخذون خرافات بعضهم بعضاً ،بينما يمقتون العقائد الأصلية وقد يستخدم المسلمون عند المرض قسس النصاري واليهود للدعاء لهم، وكذلك النصارى واليهود يدعون أولياء المسلمين للغرض نفسه، ومن المألوف أن ترى المسيحيين يترددون على الأولياء فيقبلون أياديهم و يسألونهم الدعاء والنصح ويجزلون لهم المال والعطايا"[٤].

ولعلنا بذلك نكون قد رسمنا صورة شبه واضحة عن الخرافة والشعوذة في المجتمع المصري، وبقي أن نشير إلي "صدي الخرافة والشعوذة في الأدب الشعبي " وهذا هو موضوع الفصل الاخير

---

(١) ابن الحاج، المدخل ، جـ٢ ، ص ٥٩-٦٠ ، قاسم عبده قاسم ، أهل الأمة ، ص ١٢١.

(٢) لم نعثر فيما بين أيدينا من مصادر على حد اطلاعى - عن موالد خاصة باليهود حتى يقوم المسلمون بزيارتها، كذلك اتسمت أخبار اليهود بالقلة خاصة عاداتهم وتقاليدهم ولعل سبب ذلك راجع لقلة أعدادهم قياساً بالنصارى، أو أنهم أرادوا أن لا تعرف عاداتهم لبقية الناس، أوانهم قد شاركوا العامة فى كثير من العادات والتقاليد التى عرفت لذا لم يتميزوا بعادات خاصة بهم.

(٣) مكفرسون، الموالد، ص ٣٦٣

(٤) ابن الحاج، المدخل ، جـ٣ ، ص ٦٥

الفصل الخامس

صدي الخرافة والشعوذة في الأدب الشعبي

أولاً : قطز من المملوك للسلطان - ثانياً: الظاهر بيبرس بين التاريخ والسيرة -ثالثاً: ألف ليلة وليلة

قطز من المملوك للسلطان

من الجدير بالذكر، أنه لا غنى للباحث فى ميدان التاريخ الاجتماعى عن الاستعانة بالتراث الشعبى عامة والسيرة الشعبية جزء من هذا التراث بطبيعة الحال، إذ أن الفن الذى ينتجه الشعب فى حقبة تاريخية بعينها مصدر مهم من مصادر المعرفة التاريخية، لاسيما فى مجال التاريخ الاجتماعى وتكمن أهمية هذا النوع من الأدب الشعبى فى أنه يفى بالحاجات الاجتماعية والثقافية للجماعة، كما يحقق بعض الصياغات النفسية التعويضية للحوادث التاريخية وأبطالها بغض النظر عن التفاصيل التى تتعلق بالزمان والمكان أو الأفراد، ويحدث هذا كله بأسلوب مفعم بالخيال ويجمع بين البساطة والتلقائية التى تميز الابداع الشعبى عادة[1].

والسيرة الشعبية تدور عادة حول بطل تاريخي حقيقي، وأحداث تاريخية حقيقية ولكن السيرة مثل غيرها من المأثورات الشفاهية- مجهولة المصدر دائماً، ويتم تناقلها على ألسن الرواة الذين يضيفون إليها ويعدلون فى أحداثها وبناء شخصياتها بحيث تلبى حاجة السامعين الثقافية والاجتماعية. ولما كانت السيرة الشعبية تدور حول بطل تاريخي حقيقي وتتناول أحداثاً تاريخية حقيقية، فإن هذا لا يعنى أننا سوف نقرأ فيها تاريخاً بالمعنى التقليدى أو أننا سنجد فيها صيغة للأحداث التاريخية ولكننا سوف نقرأ فيها "صورة وجدانية وعاطفية مليئة بالدلالات الاجتماعية للعصر - أو العصور التى تتحدث عنها" فالسيرة، مثل غيرها من فنون الأدب الشعبى، لا

---

(١) وليم لين، المصريون، المحدثون ، جـ١، ص ٢٦٥، نيكولاس بيخمان، الموالد والتصوف فى مصر، ص ١١٢؛ مكفرسون الموالد فى مصر، ص ٣٦٣.

تهتم برصد الأحداث والوقائع التاريخية وإنما ترصد لنا رأى الناس فى هذه الأحداث والشخصيات أيضاً. كما أنها تحمل ما يمكن أن نسمية التفسير النفسى والشعبى للحوادث التاريخية ، وهذا التفسير النفسى الشعبى للحوادث التاريخية أو "القراءة الشعبية للتاريخ" فى حقيقته تعويض نفسى يلجأ إليه الفنان الشعبى لكى يتجاوز الواقع بحدوده الزمانية والمكانية صوب اللامحدود زماناً ومكاناً ليطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض. وهكذا يختار الفن الشعبى حادثاً تاريخياً أو بطلاً من أبطال التاريخ ويعيد صياغته بشكل تعويضى، ولأن التاريخ تصنعه الشعوب ويسرقه الحكام ، فإن الشعوب تعيد صياغة هذا التاريخ من خلال مأثوراتها الشفاهية ومنها السيرة الشعبية[1].

السلطان المظفر سيف الدين قطز[2] دخل إلى رحاب التاريخ من باب الرق والعبودية الضيق، وسرعان ما فتحت أمامه أبواب تاريخ المسلمين الواسعة مرحبة، عندما كرس مواهبه العسكرية والسياسية لخدمة الدفاع عن المقدسات والأرض، وطالت قامته التاريخية على كثيرين من الحكام عندما تجسدت فى شخصه إرادة أمة الإسلام فى معركة عين جالوت، التى كسرت الموجة المغولية الطاغية والتى كانت بداية سلسلة من التغيرات؛ كان أهمها: تحول المغول إلى الدين الإسلامى"[3].

وكما هو معروف فإن المصادر التاريخية لا تُلقى بالاً إلى طفل خطفه تجار النخاسة على حين تسارع هذه المصادر نفسها إلى الاحتفاء به عندما صار سلطانا وبطلاً ملء العين والقلب، وهكذا تبدو السيرة الباكرة لسيف الدين قطز غامضة وضبابية، وربما أحس المؤرخون بعد فوات الأوان – بتلك الحلقات المفقودة فى حياة البطل الذى يؤرخون له، فراحوا ينسجون القصص الخيالى حول نشأة ذلك البطل، وتدور روايات مختلفة حول أصل ذلك المملوك الذى انتقل من إسار الرق إلى عرش سلطنة المماليك فى مصر والشام والذى خرج من صفوف المقاتلين ضد التتار فى عين جالوت.

---

(١) قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور ص ١٠٢، ١٤٦.

(٢) قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور ص ٤٩، ١٤٦؛ بين الأدب والتاريخ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩.

(٣) قطز كلمة تركية معناها الكلب الشرس، عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر فى عصرى المماليك والعثمانين ، ص٥٢.

وسنحاول أن نعرض أكثر من رواية عن أصل المملوك قطز، وكذلك النبوءات التي حيكت عن توليه السلطنة.

بداية نلقى نظرة عن الروايات التي تحدثت عن أصله، قال العدل أمين الدين محمد بن أبى الفوارس الجوزى: حكى لى والدى عن بروز شأن الملك المظفر قطز رحمه الله، قال: لما كان فى رق ابن العديم، أو قال ابن الزعيم بدمشق بالقصاعين والصحيح أنه ابن الزعيم، اتفق أن أستاذه غضب عليه يوماً لشيء جرا منه فلطمه على وجهه ولعن والديه وأبوه وجده، ثم أنه جلس يبكى وانتحب، وزاد فى بكائه عن حد القياس، وحضر الطعام، فامتنع عن الأكل، وظل يومه يبكى، قال: ثم إن أستاذه ركب إلى وظيفته، وكان قطز عنده عزيزاً بخلاف غيره من مماليكه، فأوصى عليه الحاج على الفراش، وكان الحاج على كبيراً فى بيت ابن الزعيم: فقال :يا حاج استوصى بهذا المملوك ولاطفه ، وخذ بخاطره وأطعمه واسقيه، قال الحاج على :فأتيته وهو يبكى بعد ركوب أستاذه، فقلت له: ما هذا البكاء العظيم من لطشة تعمل هذه العمايل، فلو وقع فيك جرح سيف أو نشاب كيف كنت تصنع؛ فقال والله يا حاج ما بكائى وغيظى من لطشة فإن السيوف والله ما تعمل فى، وإنما غيظى على لعنته لوالدى وأبى وجدى، وهم خير من آبائه وجدوده، فقلت له: "ومن هو أبوك أنت، ومن جدك ، وأنت مملوك تركي كافر بن كافر" فقال "لا تقل هكذا يا حاج، والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ابن مسلم إلى عشر جدود ، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه السلجوقى من أولاد ملوك الشرق وإنما أخذونى من جملة سبايا التتر لما وقعت الكسرة عليهم، ولابد ما أملك مصر وأكسر التتار، قال الحاج على: فضحكت من قوله وطايبته وتقلبت الأحوال إلى أن ملك مصر وكسر التتار، ودخل قطز دمشق وطلبنى وأحضرنى وأعطانى خمس مايه دينار، ورتب لى راتب جيد، رحمه الله"[١].

ويتضح من هذه الراوية عدة أمور:-

أولها: أنها تنسب قطز إلى أسرة إسلامية حاكمة هى أسرة السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذى استطاع التصدى للمغول، واسترد منهم مدن "قم" وقاشان" "وحمدان" فى بلاد فارس، وكان الوحيد القادر على التصدى للتتار آنذاك، لولا أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله ت ٦٢٢هـ استعان بالتتار ضده، وارتكب ذلك الخطأ القاتل الذى يرتكبه عادة الحكام الذين تعميهم أحقادهم وأطماعهم الصغيرة عن رؤية الواقع السياسى، فقد قضى التتار سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م على

(١) قاسم عبده قاسم، السلطان المظفر سيف الدين قطز، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١٥م، ص١٠.

مملكة جلال الدين خوارزم شاه التى كانت تقع فى إقليم كرمان الحالى فى جنوب جمهورية إيران الإسلامية، واختفى السلطان هرباً من سيوف التتار[١].

وثانى الأمور التى تشير إليه الرواية سالفة الذكر: أن قطز اسمه الحقيقى محمود بن ممدود، وأن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأن أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبى عند غلبة التتار فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة[٢].

ثالثاً، ما ذكره ابن إياس فى بدائعه، وربما نقل ذلك عن عدة مؤرخين سابقين له[٣]، قال: "إن قطز لم يكن مرقوقاً، وإنما أخذ من سبايا التتر، وقدم إلى الملك المعز فرقى حتى صار أتابك العساكر بمصر ثم بقى سلطاناً لمصر، ولعل سبب قول ابن إياس أنه لم يكن مرقوقاً فعندما لطمه أستاذه بكى بكاءً شديداً، فقال له: "من لطمة واحدة تبكى هذا البكاء، فقال:" إنما أبكى من لعنته لأبى وجدى، وهما أفضل منه" فقيل له: "ومن أبوك وجدك وأنت مملوك تركى كافر ابن كافر... قال: بلى أنا مسلم بن مسلم، أنا كان اسمى محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد ملوك الشرق، وإنما أخذونى من جملة سبايا التتر لما وقعت الكسرة عليهم، فعلى هذا الحكم تبنى ابن إياس أنه لم يكن مرقوقاً"[٤] ولا يعنى هذا أنه كان خارج سلك المماليك بل إنه مر بالمراحل التى كان يمر بها أى مملوك فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ الدولة المملوكية، وقد ترقى فى الخدمة حتى صار أكبر مماليك المعز أيبك.

والآن ننتقل للحديث عن النبوءات التى حيكت عن تولية السلطنة:

---

(١) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٨ ، الدركة الذكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، المعهد الالمانى للاثار القاهرة ١٩٧١م ، ص ٣٩-٤٠؛ النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٢٩، ص ٣٠٦؛ ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات والذيل عليها، المجلد الثالث، ص٢٠١؛ العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، جـ١ ، ص ٢٥٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٧ ، ص ٨٥.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١ ، ص١٨٥؛ ابن واصل مفرج الكروب، جـ٤ ص ٣١٤، ٣٢٩؛ قاسم عبده قاسم، السلطان قطز ، ص ٥٠

(٣) المقريزى، السلوك، جـ١ ، ٤١٧؛ هامش ٢

(٤) ذكر الذهبى والبكرى: كان قطز من أنبل مماليك المعز، ويقال أنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين، وأنه حر واسمه محمود بن ممدود، الذهبى ، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، محيى هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشر، ١٩٩٦م، جـ٢٣، ص٢٠٠؛ البكرى، النزهة الذهبية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، تحقيق عبد الرازق عيسى، العربى للنشر القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ١٠٥.

الرواية الأولي :

حكى العدل أمين الدين محمد بن إبراهيم المذكور أيضاً، قال حدثنى والدى قال حدثنى الحاج أبو بكر الاسعردى والحاج زكى الدين إبراهيم الجذرى المعروف بالحنبلى أستاذ الفارس اقطاى قالا: كنا عند قطز فى أول دولة أستاذه المعز، وقد حضر عنده منجم قد ورد من بلاد المغرب موصوف بحذاقة ومعرفة فى علم الرمل، قال: فأمر "قطز" لأكثر من عنده من الحاشية بالانصراف وكنا نحن من كبار أصحابه فأمرنا بالقعود ثم قال له "اضرب وانظر من يملك مصر بعد أستاذى المعز ومن يكسر هؤلاء التتار ويردهم عن مقعدهم" قال: فضرب وحسب زماناً، وعاد يعد على اصابعه فقال "قطز" له "قول ما عندك" فقال يا خوند بيطلع لى خمس حروف بلا نقط وأبوه أيضاً كذلك، وقد تحيرت فى ذلك، واسمك أنت تلت حروف ، اثنين منهما منقوطة: قال :فتبسم [قطز] وقال: لما لا تقول محمود بن ممدود ؟ فقال المنجم "ولا يقع والله غير هذا الاسم فقال: "أنا هو محمود بن ممدود ، وأنا الذى أكسر التتار وآخذ تار خالى منهم خوارزم شاه" قالوا فتعجبنا من كلامه وخرجنا وقلنا: إن شاء الله تعالى يكون هذا يا خوند، ثم إننا استكملنا هذا الأمر وأعطى المنجم ثلاث مائة درهم وصرفه، ثم قدر الله تعالى تملكه وكسره للتتر خذلهم الله تعالى[1].

يتضح من ذلك أن السمة الغالبة على المجتمع المملوكى سلطان ورعية هو الإيمان بتلك الخرافات التى كانت سائدة خاصة خرافة التنجيم، كما أن هذه الرواية تحمل بين طياتها تأكيد نسب قطز إلى بيت خوارزم شاه .

وثمة رواية أخرى: يذكر اليونينى قائلاً :حكى لى الأمير عز الدين محمد بن الهيجاء، ما معناه أن الأمير سيف بلغاق حدثه أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكى حكى له قال أنا والملك المظفر والملك الظاهر بيبرس فى حال الصبا ، كثيراً ما نكون مجتمعين فى ركوبنا وغير ذلك، فاتفق أن رأينا منجماً فى بعض الطرق بالديار المصرية، فقال له الملك المظفر أبصر نجمى فضرب الرمل وحسب وقال له: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار فشرعنا نهزأ به ثم قال الملك الظاهر: فأبصر نجمى فضرب الرمل وحسب وقال له أنت تملك الديار المصرية وغيرها فزاد الاستهزاء به قالا له لابد أن تبصر نجمك فقلت له أبصر لى فضرب وحسب وقال له: وأنت يحصل لك إمرة مائة فارس يعطيك هذا وأشار إلى الملك الظاهر. فاتفق أن وقع الأمر كما قال، ولم يخرم منه شيء وهذا من

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص ٣٠٣

عجيب الاتفاق[١].

وبالإضافة لما سبق، فقد ذكر اليونينى أنه فى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩ حكى النجم النحاس المنجم بدمشق، قال كنت بالقاهرة، لما أراد الملك المظفر الخروج إلى لقاء التتر قال: فجمعونا فكنا خمسة عشرة منجماً قال : فبقينا فى قلعة الجبل ثمانية أيام والراتب يجيئنا وقالوا لنا أبصروا طالع سعيد لسلامة السلطان ورجوعه سالماً، قال: فاتفقنا جميعاً على ان، نأخذ طالعاً يكون فيه سلامة المسلمين والنصر على العدو المخذول ولم نفكر بسلامة الملك المظفر ولا رجوعه فكان من إمره ما كان[٢].

الرواية الثالثة: وهذه الرواية تتحدث عن بشارة النبى صلى الله عليه وسلم لقطز بأنه سيتولى حكم مصر ويهزم التتار، فيقول قطب الدين اليونينى: "... عن علاء الدين على بن غانم حرسه الله ، قال: حكى فى غرة شوال سنة إحدى وتسعين وست مائة ببعلبك، قال حدثنى المولى تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبى ما معناه أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف لما كان مقيماً على برزة فى أواخر سنة سبع وخمسين وست مائة وصله قصاد من مصر بكتب يخبرونه فيها أن قطز يتسلطن بالديار المصرية وقبض على ابن أستاذة، قال: تاج الدين فطلبنى السلطان فقرأت عليه الكتب وقال لى: خذ هذه الكتب وروح بها إلى الأمير ناصر الدين القيمرى والأمير جمال الدين ابن يغمور واوقف كلا منهما عليها، قال: فأخذتها فخرجت فلما بعدت عن الدهليز لقينى "حسام الدين البركة خان" فسلم على وقال :جاءكم بريد أو قصاد من الديار المصرية فوريت عنه فقلت ما عندى علم بشىء من هذا قال قطز تسلطن وتملك الديار المصرية ويكسر التتار، قال المولى تاج الدين: فبقيت متعجباً من حديثه فقلت ايش هذا القول ومن أين كل هذا قال: والله هذا قطز هو خشداشى كنت أنا واياه عند الهيجاوى من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كثير فكنت أسرح رأسه على أننى كلما أخذت منه قملة أخذ منه فلساً أو صفعته، فلما كان فى بعض الأيام أخذت عنه قملاً كثيراً وشرعت أصفعه ثم قلت فى غضون ذلك والله ما اشتهى إلا أن الله يرزقنى إمرة خمسين فارساً فقال: طيب قلبك أنا أعطيك إمرة خمسين فارساً قال فصفعته وقلت مالك أنت

---

(١) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص ٣٦٩؛ ابن أيبك الدواداري كنزر الدرر، جـ٨ ، ص٤١؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص٣٠٧ ؛ ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات والذيل عليها ، المجلد الثالث، ص٢٠١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ٧ ، ص٨٦؛ المنهل الصافى، جـ٩ ، ص٧٦.

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص٣٨٣-٣٨٤؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٩ ، ص٣٠٩، ابن العينى ، عقد الجمان، جـ١ ، ص ٢٥٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص ٨٩.

تعطيني إمرة خمسين قال: نعم فصفعته فقال لي والك عله ايش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارساً أنا والله أعطيك قلت :والك كيف تعطيني قال :أنا املك الديار المصرية فأني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتر وقوله صلى الله عليه وسلم لاشك فيه وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب..." [١].

وبعد أن ألقينا نظرة فاحصة على الروايات التي تتحدث عن أصل المملوك قطز والنبوءات التي حيكت حوله تسلطنه، نجد أن هذه النبوءات قد كتبت بأثر رجعي أي بعد الأحداث وليس قبلها وكانت تقصد إلى هدفين أولهما: الإيحاء بأن وصول الشخص الذي تدور حوله النبوءة، كان محكوماً بإرادة القدر، وثانيهما: إضفاء قدر من المهابة على هذا الشخص وتزكيته لدى الناس، كما أن هذا النوع من النبوءة بأثر رجعي كان من سمات الكتابة التاريخية العربية في ذلك الحين[٢].

هذه هي بداية المملوك محمود الذي سمي قطز، ولا يتسع المجال لذكر سيرته حتى جلوسه على عرش مصر[٣]، لكن سنذكر ما قاله أحد المنجمين على مقتله على يد بيبرس، وهذا ما أشار إليه ابن أيبك وابن العيني :"فقال له الملك المظفر أبصر نجمي فضرب الرمل وحسب وقال له أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار.... وأشار المنجم إلي بيبرس البندقداري ويقتل هذا وأشار إلي قطز، فوالله ما أخرم من قوله كلمة واحدة"[٤].

ولا يهمنا كثيراً في هذه الدراسة ذكر الأسباب التي دفعت بيبرس للانتقام من قطز وقتله[٥]، بقدر الاهتمام بما انفرد به ابن تغري بردي دون غيره من المؤرخين فذكر رواية مفادها "أنه لما قتل قطز بقي ملقى أياماً حتى دفنه بعض غلمانه بالقُصير وصار يقصد بالزيارة ويترحم عليه ويسب من قتله وشاع ذكره بذلك، وكثر فبعث الملك الظاهر بيبرس من نبشه ونقله إلى قبر لا يعرف، وعفى قدره وأثره"[٦].

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص٣٨٠؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٨ ، ص٤٣

(٢) اليونيني، المصدر نفسه، جـ١ ، ص ٣٨٣ ؛ ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ٧، ص٥٠٧ ؛ ابن إيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٨ ، ص٤١ – ٤٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص٨٨.

(٣) قاسم عبده قاسم، السلطان المظفر سيف الدين قطز، ص ٥٣.

(٤) للمزيد انظر قاسم عبده قاسم، السلطان المظفر سيف الدين قطز.

(٥) ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر، جـ٨ ، ص ٤٣، ابن العيني، عقد الجمان، جـ١ ، ص٢٥٧

(٦) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٨ ، ص٦٠؛ المقريزي، السلوك جـ١ ، ص٣٤٣ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ٧ ، ص ٨٢.

ويتضح من هذه الرواية مدى شدة غيرة الظاهر بيبرس والتى كانت سمة من سمات شخصيته، وربما خوفه من أن يصبح للمظفر قطز ضريحاً يقصده الناس للزيارة والتبرك به وذلك على حد قول ابن تغرى بردى :"وصار يقصد بالزيارة" مما حذا به إلى نبش قبره ونقله لمكان آخر.

بيد أن السيرة الظاهرية اتجهت لنفى مقتل قطز على يد بيبرس وراحت تبرىء ساحة بيبرس من قتله، وتظهره بأنه قد فضل قطز على نفسه فى ملك مصر، وأنه لا يرضى بأن يكون سلطاناً إلا بعد موت الملك المظفر قطز، ومن ثم يقتل قطز من قبل بطريق تابع لجوان اللعين ليحدث بذلك فتنة فى مصر، وذلك عندما وصل أولاد إسماعيل على مصر وسألوا بيبرس عن الحكم ، فأخبرهم بأن الملك المظفر قطز حكم مصر والشام فغضبوا لذلك، إلا أنه راح يثنى على قطز وأفعاله ، فلم يرض المقدم سليمان الجاموسى عن هذا القول ، وبدأ يدبر مكيدة لقتل قطز، فوشى لابنه "فهد" أن يقتل قطز، ولما ذهب فهد لتنفيذ ذلك وجد قطز مقتولاً ، فقد أوعز جوان لأحد البطارقة بقتل ملك مصر وكان يقصد بذلك بيبرس؛ لذا أخطأ البطريق وقتل قطز، لكن القوى الخفية تظل عادلة تقتص من القاتل، فقد هب الولى ضائع الاسم ليقتل ذلك البطريق، وقد جعلت السيرة، قطز ولياً صوفياً يطلب من ضائع الاسم أن يثأر له من قاتله، فهذا النسق الوظيفى للحدث تضافرت فيه كل القوى لتبرئة بيبرس من قتل قطز عبر مجموعة عبارات سردية أفضت بالمنطق والإقناع أن البطل خال من الخيانة ووضع الدسائس ، فإذا كان بطلاً فى خيال العامة قد أبطل كل الفتن والدسائس فكيف يمكن له أن يقتل ملكاً مظفراً.

ومن ثم تنفى السيرة التهمة عن بيبرس بقتل قطز، ثم تذهب بعيداً عن المماليك، وثبتت التهمة على العدو الوحيد للإسلام جوان وأعوانه[1]: يقول الراوى: "وأما ما كان من أمر بيبرس فإنه اجتمع بالرجال أولاد إسماعيل فسلم عليهم وسلموا عليه وسألوه عن السلطنة، فأخبرهم بالملك المظفر وجعل يشكر لهم فى أفعاله وأحكامه ويثنى عليه الثناء الجميل فعند ذلك تغيرت وجوه الرجال وجعلوا يلومونه على التأخير ثم أن المقدم سليمان قال له إلى كم تؤخر نفسك عن السلطنة يا أخينا، فقال: يا رجال والاسم الأعظم أنى أتسلطن بعد موت هذا الملك إن شاء الله تعالى وما سفه قولكم أبداً فلما أقسم عليهم قالوا: يكون خير أن شاء الله تعالى ثم أن المقدم سليمان الجاموسى صبر إلى الليل وصاح بولده الفهد فاقبل إليه فساروه فى أذنه، وقال له يا فهد :سير من هاهنا إلى هذا الرجل الكردى اقتله وأرحنا منه والسلام وبل لى هذه القطنة من دمه وهاتها إلى عندى، فقال: سمعاً وطاعاً ثم إن الفهد سار وهو يتأسف على تلك الفعال، وعلم أن الذى حمله

(١) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى ، جـ٩ ، ص ٧٦

على ذلك حبه فى الأمير بيبرس، فسار يفتكر فى نفسه ويقول كيف أقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق... وعندما وصل الفهد إلى صوان الملك قطز وجده مشقوقاً من ظهره فعبر وتأمل وإذا بالملك قد فارق الدنيا وهو غارق فى دمه ... فلما رآه قد قتل أخرج القطنة ولونها بدمه وعاد من وقته وساعته... وأصبح الصباح دخل الوزير وكل من بالدولة على الملك المظفر فوجدوا تذكره وخط وختم بيبرس لذلك قالوا لبيبرس لأى شيء قتلت الملك ونحن عزمنا عليك بالسلطنة من قبل فما رضيت بذلك فقال يا وزير الزمان وحق مكون الأكوان وخالق الإنسان وعلمه البيان ما عندى خبر لذلك... يا رجال والإسم الأعظم كذب من قال هذا المقال، ثم أخذ يخرج ما معه فإذا هما برأسين وقال خذوا رأس ملككم وها هى رأس اللعين الذى قتله ها هى الأخرى، وأخرج الرأسين من كلاليب حمدانه، و لما عاينوا ذلك شخصوا إليه وقالوا له حدثنا يا مقدم عن هذا الابرام قال: إن البطريق الذى أرسله جوان أقبل إلى السلطان فلما وجده نائماً قتله وزاح رأسه عن بدنه والأستاذ قطز يقول الله، واللعين يتعجب من ذلك ويقول كيف يتكلم بعد القتل وسار بالرأس إلى جوان، أما قطز فقد جاءنى بالمنام ووضع يده على صدرى وقال يا مقدم قم على حيلك خذلى بالثأر وأجلى عن نفسى العار، فنهض ضايع الاسم من وقته وساعته وفى أثناء الطريق رأس الأستاذ قطز تذكر الله ،فأقبل ضايع الاسم وقتل حامل الرأس الملعون وضربه على عاتقه... وأخبروا الناس أن سبب مقتل السلطان من مكايد جوان..." [١].

*الظاهر بيبرس بين التاريخ والسيرة:

التاريخ مليء بالأبطال والبطولات، ولكن قل أن نجد عصراً فى تاريخ أمة من الأمم فاض بروح البطولة وتميز بعدد ضخم من الأبطال كما نجد ذلك فى عصر سلاطين المماليك فى مصر[٢]، والمثال الجيد على ما ذهبنا إليه يتمثل فى السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس الصالحى النجمى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك التى ظلت قائمة طوال فترة تزيد على قرنين من الزمان، وقد كان نصيب الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى من كتابات المؤرخين الرسميين كبيراً[٣].

---

(١) إبراهيم عبد العليم حنفى، البنية الأسطورية فى سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٣م ، ص ٦٣.

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٦م المجلد الثانى، جـ١٥ ، ص ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١.

(٣) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١م ، ص١١.

والجدير بالذكر، أن هناك ظاهرة أساسية فى التاريخ ، وهي أن كثيراً من الأبطال والحكام الذين لم ينحدروا من بيوت ملك وحكم ولم يصلوا إلى ما وصلوا إليه عن طريق الوراثة، امتاز تاريخهم فى أدواره الأولى بالغموض والإبهام وتضاربت الروايات حول أصلهم ونشأتهم، فراح المؤرخون ينسجون القصص الخيالية حول نشأة ذلك البطل، بل وينسبون إليه مزيداً من الأعمال الخارقة فى طفولته ليثبتوا أن أمارات البطولة والشجاعة والنجابة كانت ملازمة له منذ ولادته، فإذا ولد طفل فى قصر اهتم به المؤرخون منذ مولده- بل ربما قبل مولده وأفاضوا فى نسبه وحسبه وعظيم مواهبه، أما إذا كان مغموراً، فإن إنساناً لا يشعر به ولا يتعرض له كاتب أو مؤرخ ، حتى إذا ما أصاب نصيباً من الدنيا حاول المؤرخون عندئذ أن يسدوا الثغرة التى أحاطت بنشأته، فإذا أعوزتهم الحقائق لجأوا إلى الخيال والأساطير[١].

وعلى الرغم من أن "بيبرس" الفارس والأمير والسلطان، كان شخصية ملء العين والقلب على مسرح التاريخ، فإن بيبرس الطفل والصبى يتوه بين ضبابية الغموض وأستار الحكايات الأسطورية، ذلك أنه كان من آحاد الناس، ولد لأن فقيراً بذات مساء أراد أن يطفىء نار أيامه القاسية فى حضن فقيرة، ولم يكن المؤرخون فى ذلك الزمان يهتمون بالفقراء أو البسطاء، وكان معظم المؤرخين فى معية الحكام والسلاطين يرصدون منهم الحركة والسكون، أما آحاد الناس صناع التاريخ الحقيقيون، فقد أهملتهم أقلام المؤرخين، كما أن الناس يصنعون التاريخ ويسرقه الحكام، ومن ثم لم يكن غريباً أن يهمل التاريخ شأن مولد طفل فقير يخطفه تجار الرقيق ليباع فى أسواق النخاسة، ولكنه حين يكبر ينتزع لنفسه دوراً على مسرح التاريخ يجعله محور اهتمام التاريخ والمؤرخين زمناً يطول[٢].

وعلى أية حال فقد تضاربت الروايات عن تاريخ مولده، ففى الرواية الأولى يقول شمس الدين

---

(١) استرعت شخصية الظاهر بيبرس اهتمام المؤرخين المسلمين فأفرد له بعضهم سيراً فقد كتب سيرته القاضى محى الدين بن عبد الظاهر ٦٢٠- ٦٩٢هم ١٢٢٣-١٢٩٢م. وأسماها "الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر"، كما أن عز الدين من شداد كتب له سيرة أخرى سماها "تاريخ الملك الظاهر" ، وكتب شافع بن على مختصراً للسيرة التى كتبها ابن عبد الظاهر جعل عنوانها "حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" ، كما أن المصادر الأخرى أفردت صفحات طويلة للحديث عن بيبرس وعصره، قاسم عبده قاسم، بين التاريخ الفولكلور، ص٩٥؛ أحمد حطيط، قضايا من تاريخ المماليك السياسى والحضارى، الفرات لبنان الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، ص ٢٤٧.

(٢) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس ، ص ٢١

الذهبى: "إنه توفى بعد حكم استمر سبع عشرة سنة وهو فى السابعة الخمسين من عمره" فيتضح من ذلك أن بيبرس قد ولد فى سنة ٦١٧هـ ١٢٢١م[١].

الرواية الثانية، أوردها ابن تغرى بردى قائلاً: "بأنه ولد فى حدود العشرين وستمائه تخميناً بصحراء القفجاق[٢].

أما الرواية الثالثة: فيشير ابن شدادْ فيها إلى أنه ولد فى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م ، مستعيناً برواية أحد معاصرى بيبرس وهو الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى، فيقول أخبرنى الأمير بدر الدين بيسرى أن مولد السلطان الظاهر بيبرس بأرض القفجاق، وكانت العيارة قد أغارت على القفجاق فأسروا جماعة وكنت أنا والظاهر فيمن أسر، فبيع وحمل إلى سيواس..." [٣].

وكيفما كان الأمر؛ فإن أغلب الروايات اتفقت على أمر واحد، هو أنه تركى الجنس من مواليد القفجاق- فى جنوب روسيا- وأنه قضى فى تلك البلاد الدور الأول من طفولته ، حتى أغار عليها التتار حوالى سنة ١٢٤٢م، وعندئذ كان بيبرس من جملة الأسرى فاشتراه أحد تجار الرقيق فى سيواس، ويبدو أن بيبرس تنقل بعد ذلك فى صحبة تجار الرقيق حتى وصل إلى حماه وبرفقته زميله بدر الدين بيسرى، حيث عرفهما التاجر على صاحبها الملك المنصور، ويروى كل من ابن واصل وابن تغرى بردى رواية طريفة[٤]* خلاصتها:" أن الملك المنصور صاحب حماة كان صغير السن عندئذ، وأنه اعتاد عندما يشترى رقيقاً أن يستشير والدته، فلا يشترى من الرقيق إلا من أشارت إليه، فقام الملك المنصور بعرض الغلامين بيبرس وزميله على أمه لأخذ رأيها، فرأتهما من وراء ستار، وعندئذ سمحت بشراء زميل بيبرس فقط، أما بيبرس نفسه، فقد أشارت إليه وقالت لابنها: "هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة، فإن فى عينيه شر لائحاً" [٥]، وكان أن انتهى

(١) قاسم عبده قاسم،عصر سلاطين المماليك، ص ٨٥؛ تاريخ الأيوبيين المماليك، ص٢١٢، بين التاريخ والفولكلور، ص ١٢٤.

(٢) شمس الدين الذهبى، دول الإسلام، ج؛ بيتر ثوراو، أسد مصر السلطان الظاهر بيبرس والشرق الأدنى، ترجمة قاسم عبده قاسم،عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية،القاهرة٢٠١٥م، ص٥٣؛ عماد الدين غانم، الملك الظاهر بيبرس، الهيئة العامة السورية للكتاب سوريا ٢٠١١م ، ص ٩ ، ١٠.

(٣) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٣، ص ٤٤٧

(٤) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، ص ، ابن عبد الظاهر تشريف لأيام والعصور، ص ٢٦٢، ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، المجلد الأول، ص ٢٣٥-٢٣٨؛ بيتر ثوراو، أسد مصر، ص٥٣.

(٥) * أردت ذكر هذه الرواية دون غيرها لربط وصف بيبرس فى المدونات التاريخية والسيرة الظاهرية.

الأمر بأن عدل الملك المنصور صاحب حماة عن شراء بيبرس ورفيقه، فحملاً إلى دمشق حيث بيع بيبرس بثمانمائة درهم، ولكن الذى اشتراه لم يلبث أن أعاده إلى التاجر لأنه اكتشف بياضاً فى إحدى عينية، ويبدو أن بيبرس انتقل مرة أخرى، ومعه زميله إلى حماة، حيث كان الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، وهو أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر معتقلاً، فلما سمع ذلك اشتراهما وهو فى معتقله، وقد ظل بيبرس ملازماً لسيده بقية مدة اعتقاله فى حماة، حتى إذا ما أفرج عن الأمير علاء الدين البندقدار انتقل بيبرس معه إلى مصر[١].

ودون الخوض فى تفاصيل[٢]، انتقل بيبرس إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وسرعان ما ظهرت مواهبه حتى فى حياة الملك الصالح نفسه، وظل يتدرج فى المناصب حتى أصبح قائد فرقة المماليك التى كان لها الفضل الأكبر فى حملة لويس التاسع على مصر، ولما توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، أسخط ابنه توران شاه على المماليك فقتلوه[٣] واشترك بيبرس فى هذه المؤامرة والتحق بخدمة السلطان الجديد أيبك وأمر أيبك بشنق أحد المتآمرين فاضطر بيبرس إلى الفرار إلى الشام وظل بها مدة مع أمراء الأيوبية متنقلاً بين دمشق والكرك[٤] ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد اغتيال أيبك، فعهد إليه السلطان قطز بقيادة طليعة الجيش المسير لقتال المغل، وكان يطمع فى حكم حلب فغاظه ذلك ودفعه إلى التآمر مع بعض المماليك وقتل السلطان ، وهو ذاهب إلى الصيد فى طريقه إلى مصر، وأعلن نفسه سلطاناً[٥].

وكما ذكرنا سابقاً فى الفصل الثالث، فقد اعتقد المماليك سلاطين وأمراء فى أولياء العصر ومشايخه بصفة عامة، السوى منهم والمجذوب ،الحى والميت، اعتقاداً راسخاً فى ولايتهم، كذلك اعتقد الظاهر بيبرس فى هؤلاء الأولياء وأخذ يتقرب لهم ويتودد إليهم ثقة منه بأن جارهم لا يضام

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب، جـ٢ ، ص ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٩٤، ٩٥.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص٩٥؛ مورد اللطافة، المجلد الثانى، ص٣٣ ؛ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص ٢٣.

(٣) لمعرفة المزيد عن سيرة الظاهر بيبرس، انظر، سعيد عاشور، الظاهر بيبرس؛ بيتر ثوراو، أسد مصر السلطان الظاهر بيبرس.

(٤) المقريزى، السلوك جـ١ق٢، ص ٤٣٦؛ الذهب المسبوك ، ص ١٤٥؛ ابن تغرى بروى، النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص ٣٧١.

(٥) المقريزى، السلوك جـ١ق٢، ص ٣٩٢

وأن حرم حمايتهم لا يرام، بل وصل به الأمر إلى التذلل لهم[١]، ففى سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م، ركب السلطان الظاهر بيبرس لزيارة الشيخ المعتقد محمد بن منصور بن يحيى أبى القاسم القبارى ، فلم يمكنه من الطلوع إليه ولم يكلمه، وآخر ما رضى به أن ينظر إليه من الأعلى، فنطر إليه، ودعا له ، ووصاه بالمسلمين[٢].

ويلغ مدى شغف الظاهر بيبرس بهؤلاء الأولياء كثرة زيارته لهم وتردده عليهم، فيقول ابن شداد: "كان كثير التردد على الشيخ يوسف الخزاعى، والشيخ على المجنون التركمانى والشيخ إبراهيم الأرمنى بالجبل والشيخ عبد الصمد بدمشق والشيخ يوسف الفقاعى بنابلس ولما ملك مصر كان كثير الإحسان إلى مشايخ القرافتين والبر بهم، وقصد الشيخ مرزوق بالبرلس، والشيخ القبارى بالإسكندرية حياً وميتاً والشيخ أبا عبد الله الشاطبي بها أيضاً ، وزار قبر الشيخ أبى العباس المرسى، وبنى ضريحه واعتنى به" [٣] وزار قبر الشيخ الصالح على بن عليم المدفون إلى جانب أرسوف[٤].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قام الظاهر بيبرس بمصاحبة الأولياء أثناء ترحاله وفتوحاته، وذلك على سبيل التبرك بهم وتيمناً بهم، ففى أثناء حصار أرسوف سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ، قام الجند بنصب المجانيق وردم الخندق وحفر السرابات، وصار الفرنج كلما عُمل شيئاً بالخندق والسرابات أحرقوه، وظل الحصار على القلعة مدة أربعين يوماً وليلة، فظهرت كرامات أحد الأولياء المصاحبين للحملة وهو الشيخ الصالح على المجنون، فصار يرفع صوته ويشير إلى القلعة وستره الناس بالطوارق ولم يزل على هذه الحالة حتى سير الأمير شجاع الدين وعرف السلطان أن الباشورة انشقت، فلما ثنى الشيخ رأس فرسه ورجع إلى باب السرب، وقع سور الباشورة..." [٥].

---

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص٨٥

(٢) عرف عن سلاطين المماليك بوجه عام احترامهم للفقراء "الصوفية" ورجال الدين أو على الأقل تظاهرهم بذلك الاحترام - كسباً للرأى العام فى البلاد بغية الحصول على محبة الجماهير، ولا يخفى علينا أن سلاطين المماليك كانوا يشعرون دائماً بعقدة نفسيه مرجعها أصلهم غير الحر من ناحية وكونهم أغراب دخلاء على البلاد وأهلها من ناحية أخرى لذلك حرص سلاطين المماليك دائماً على أن يبدو فى صورة حماة الدين .... سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى شيخ وطريقه ، ص ١١٢.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ص ١٧٥ ؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص٤٩٩؛ شافع ابن عباس، حسن المناقب، ص٣٠٤

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ؛ ابن عبد الظاهر تشريف لأيام والعصور، ص ٢٦٢، ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق أحمد حطيط ، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرةد.ت، ص ٢٧١.

(٥) ابن عبد الظاهر، سيرة الملك الظاهر، ص ٢٣٩.

علاوة على ذلك، لقد برزت شخصية لبست عباءة المتصوفة وقربها الظاهر بيبرس ومنحها سلطات واسعة بشكل غير رسمي، هذه الشخصية هي الشيخ خضر المهراني[١]، وكانت البدايات الأولى لتوطيد أواصر العلاقة بن بيبرس والشيخ خضر تمثلت في سيف الدين قشتمر العجمي، أحد كبار المماليك البحرية صديق بيبرس، الذي كان يتردد كثيراً على الشيخ خضر في معتكفه في جبل المزة، وكثيراً ما تنبأ بأخبار لبيبرس منها أنه سوف يكون سلطاناً[٢].

وعلى أية حال، لما تولى الظاهر بيبرس السلطنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م كانت العلاقة قد توثقت بين الشيخ خضر وقشتمر العجمي الذي استغل الظروف أثناء زيارة الظاهر لدمشق فذكره بالشيخ خضر وبما تنبأ به من قبل للسلطان من خير تحقق، فسأل السلطان عن خبره فأعلمه أن الشيخ خضر معتكف في مغارة قرب قبر أبي هريرة رضي الله عنه فتوجه إليه السلطان بنفسه[٣].

ونتيجة لثقة الظاهر بيبرس في الشيخ خضر، صار الظاهر يتردد عليه ويستشيره في عدد من الأمور ويطلعه على غوامض الأسرار، فيقول اليونيني :"فصار له فيه عقيدة عظيمة ، وكان ينزل إلى زيارته في الأسبوع مرة أو مرتين أو ثلاثا على قدر ما يتفق، لكنه لم يكن يغب زيارته

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص ٢٤١، شافع بن عباس، حسن المناقب السرية المنتزعة، ص ١٨٣.

(٢) الشيخ خضر هو الخضر بن أبي بكر بن موسى أبو العباس المهراني العدوي والمهرانية إحدى القبائل الكردية وأصله من قرية يقال لها المحمدية من بلاد جزيرة ابن عمر عند النهاية الشمالية لدولة سوريا الحالية أو الأطراف الغربية بكردستان، اكتنف حياته قبل اتصاله بالظاهر بيبرس كثير من الغموض بشكل يثير الجدل فقد بدأ حياته في خدمة أحد أعيان الجزيرة والذي يدعى نور الدين علي، ثم انتقل إلى خدمة الشيخ شمس الدين محمد الذي كان أحد المقربين من الملك المعظم صاحب الجزيرة العمرية، وكان عمله هو نقل زبايل الدور السلطانية والقلعة مقابل أجر، غير أنه تمكن من إغواء عدد من جواري الشيخ فتقرر عقابه بالخصي فهرب إلى حلب وخدم ابن قرطاي، فكرر فعله المخالف للشرع، ولما فشى سره هرب إلى دمشق ودخل في جوار الأمير ضياء الدين القيمري وفي رعايته أقام في إحدى مغارات جبل المزة قرب دمشق وهناك تقوت من مهنة الاحتطاب حيث كان يحتطب من أشجار الجبل ويبيع ما جمع، وهناك التقى بأحد المتصوفة المنقطعين فتلقى أصول التصوف عنه وتعمق في هذا الطريق حتى صار صاحب حدس صوفي مكنه فيما قيل من التنبؤ بكثير من احداث المستقبل؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ص٢٦٤- ٢٦٥؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٨ ، ص ٢٢٠؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع القسم الثاني، ص ٨٠٦-٨٠٧؛ بيتر ثوراو، أسد مصر السلطان الظاهر بيبرس، ص ٢٧٧؛ محمد رحيل ، عناق السيف والعمامة الشيخ خضر والظاهر بيبرس، مجلة التربية قطر العدد ١٨٣م، مارس ٢٠١٤م ، ص٢٤٩.

(٣) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، المجلد الأول ص ٤٠٤؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، جـ٥٠ ، ص ١٤٠.

والاجتماع به ويطلعه على غوامض أسراره ويستشيره فى أموره ولا يخرج عن رأيه..." [١].

ولكثرة غزوات وفتوحات الظاهر بيبرس طلب من الشيخ خضر أن يكون مصاحباً له فى حله وترحاله ، فكان يخبر السلطان بأمور تقع منها أنه لما حاصر أرسوف قال له: متى نأخذ هذه المدينة، فعين له يوماً يأخذها فيه، فأخذها فى ذلك اليوم بعينه، واتفق له ذلك فى فتح قيسارية وصفد،؛فلذلك كثر اعتقاده فيه[٢] وهنا يشير المقريزى بأبيات شعر تدل على ملازمته للسلطان فى أسفاره ، فيقول الشريف شرف الدين محمد بن رضوان الناسخ [٣] فيقول:

ما الظاهر السلطان إلا ملك الدنيا بذلك لنا الملاحم تخبر

ولنا دليل واضح كالشمس فى وسط السماء بكل عين تنظر

لما رأينا الخضر يقدم جيشه أبداً علماً أنــه الاسكنــدر

ويعلق بيتر ثوراو بأن هذه النبوءات الناجمة ليست سوى مجرد مصادفات وليست بالضرورة برهاناً على موهبة التنبؤ عند الشيخ خضر، وبالنظر إلى مهارة السلطان العسكرية وتفوق الجيش المملوكى على الصليبيين الضعاف، لم يكن الأمر يتطلب مواهب العراف للتنبؤ بمثل هذه الانتصارات، وربما كان لمثل هذه النبوءات تأثير كبير على بيبرس الذى كان واقعاً فى هوى التنجيم[٤]، وربما كان لتنبوءات الشيخ خضر عامل نفسى على الجنود المشاركين فى عمليات الحصار وهو ما كان يشد من عزم الجميع ويشحذ هممهم ،ومن هنا يبذل الجميع قصارى جهده لتحقيق الانتصار على الاعداء فغالباً ما كانت تصدق توقعات الشيخ خضر كما حدث فى فتح أرسوف وقيسارية وصفد. وكذلك لما قصد "بيبرس" حصن الأكراد سألوه عن أخذ هذا الحصن، فقال :يأخذه السلطان فى أربعين يوماً فوافق ذلك[٥].

أضف إلى ذلك، عندما حاول "الظاهر بيبرس" مخالفة مشورة الشيخ خضر تعرض الظاهر

---

(١) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٢؛ ابن إيبك الدوادارى، كنز الدرر ، جـ٨ ، ص ٢٢٠؛ محمد فوزى رحيل، عناق السيف مع العمامة، ص ٢٥٢.

(٢) اليونينى، ذيل مرآة الزمان ، جـ٣ ، ص ٢٦٤؛ المقريزى، المواعظ والاعتبار المجلد الرابع القسم الثانى، ص٨٠٦-٨٠٧ ؛ ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة جـ٧ ، ص١٦٢؛ المنهل الصافى، جـ٥ ، ص ٢١٨.

(٣) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص ٢٧٢.

(٤) المقريزى، المواعظ والاعتبار ، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٨٠٧ .

(٥) بيتر ثوراو ، أسد مصر، ص ٢٧٨ .

لمكروه كاد أن ينهى حياته، ففى سنة ١٢٦٦/٦٦٥م قصد السلطان أن يتوجه إلى الكرك واستشاره فى ذلك، فقال له: "ليس لك في ذلك خيراً، بل اقصد مصر"[١]، فخالفه بيبرس وتوجه إلى الكرك، فانكسرت فخذه ببركة زيزا قبل وصوله[٢]

ولا يهمنا ذكر الصدام الذى وقع بين بيبرس والشيخ خضر[٣] بقدر اهتمامنا بنبوءات الشيخ خضر قبل وفاته، حيث يشير قطب الدين اليونينى إلى رواية مهمة عن نبوءة الشيخ خضر لوفاة الظاهر بيبرس فيقول: "اسمع ما أقول لك إن أجلى قريب من أجلك وبينى وبينك مدة يسيرة من مات منا لحقه صاحبه عن قريب، فلما سمع الملك الظاهر ذلك وجم وقال للأمراء ما ترون فى هذا؟ فلم يقل أحد شيئاً، فقال السلطان: هذا يحبس فى مكان لا يسمع فيه حديث فيكون مثل من قبر وهو حى..." [٤].

---

(١) الذهبى، تاريخ الإسلام، جـ٥ ، ص ١٤١؛ ابن شاكر الكتبى فوات الوفيات، المجلد الأول، ص ٤٠٥.
(٢) أيبك الدواداري، كنزر الدرر ، جـ٨ ، ص٢٢٠.
(٣) النويرى، نهاية الأرب، جـ٣٠ ، ص ٢٤٢ .
(٤) توترات عدة روايات عن صدام الشيخ خضر مع بيبرس، الرواية الأولى تقول إن "بيبرس" قد طلب الشيخ إلى القلعة وواجهة بعدد من أصحابه الذين نسبوا إليه عدداً من القبائح وارتكاب المحرمات من الزنا واللواط وغيرها من المخالفات الشرعية فرد الشيخ بأن حاله واضح للجميع وهم من شهروا بعلاجه ، فرأى الامراء بضرورة التخلص منه، وهناك رواية ثانية: تشير إلى أن الشيخ قد تسلط على عدد من أعيان الدولة منهم الأمير بدر الدين الخازندار والوزير الصاحب بهاء الدين وتعمد إحراجهم أمام السلطان ومن أمثلة ذلك أنه فى أحدى الجلسات راجع الخازندار السلطان فى شأن هبه للشيخ خضر فرد خضر قائلاً "كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده مثلما فعل قطز بأولاد أستاذه المعز فتوجس الخازندار منه فدبر بالتعاون مع الصاحب بهاء الدين ومع نائب الشام أمر الخلاص منه، وهناك رواية ثالثة: هو قيام الشيخ خضر بتقديم هدية أهداها له السلطان من وارد اليمن فأعطاها إلى أحد المردان، فاستغلها الأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة فرصة للتخلص منه فى ظل أعمال الشيخ المستفزة للأمير ومن بينها تعريضه بإمكانية غدر الأمير بأبناء الظاهر إذا مات السلطان، وثمة رواية رابعة: أن الشيخ كان جريئاً طويل اللسان على كبار رجال الدولة وهو ما آثار عليه حفيظة الوزير بهاء الدين على بن حنا، فسعى للتخلص منه فنصب له فخاً عن طريق امرأة دمشقية حسناء تعرف ببنت نظيف وكانت تحب الخير والصالحين، فلما زار الشيخ خضر دمشق أحبت أن ينالها بعض من بركته التى اشتهر بها فاستضافته فى دار ضيافتها أياماً، فاستغل الوزير هذا بأن أمر ابن تاج الدولة بالزواج من المرأة وبقيت فى عصمته على كره منه بسبب سوء معاملته لها، وكان شرطه لطلاقها أن تفترى على الشيخ خضر، فلما فعلت طلقها سراً، ثم تولى تاج الدولة الباقى وهو الزعم بأن خضر يفسد النساء ويرتكب المحارم، ثم استقدم المرأة واعترفت أمام السلطان بذلك فكتب محضراً بذلك، للمزيد انظر، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ص٢٦٤؛ ابن إيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ ٨ ، ٢٢٣- ٢٢٤؛ البرزالى المقتفى على كتاب الروضتين لمعروف بتاريخ البرزالى، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٦م ، جـ١ ق١، ص٢٧٩؛ الدلجى ،الفلاكة والمفلوكون، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، ص ٧٨؛ محمد فوزى رحيل، عناق السيف مع العمامة ، ص ٢٥٦.

ويتضح من الرواية السالفة الذكر تصديقاً لكلام الشيخ خضر لعدة أسباب:

[أ] لم يكن حبسه له بالمهين فقد أمر بيبرس بالإحسان إليه فى سجنه وأمر له بفاخر الثياب والطعام والفواكه[١] [ب] عدول الظاهر بيبرس عن إعدام الشيخ خضر بعد أن حاول الأمير فارس الدين أتابك والأمير سيف الدين قلاوون وقشتمر العجمى، وبدر الدين الخازندار اعدامه، استناداً إلى أنه مطلع على أسرار الدولة وبواطن أحوالها ولا يجب إبقاؤه فى الوجود [٢] [ج] إرسال "بيبرس" برسالة لإطلاق سراحه عقب انتصاره على سلاجقة الروم [٣] [د] أن طبيعة ذلك العصر قد سادت فيه العديد من الخرافات خاصة خرافة الإيمان بالأولياء والمشايخ.

وفى نهاية المطاف لما سافر السلطان إلى بلاد الروم قال خضر لبعض أصحابه: إن السلطان يظهر على الروم ويرجع إلى دمشق فيموت بها بعد أن أموت أنا بعشرين يوماً، فكان كذلك ومات خضر فى محبسه بقلعة الجبل فى سادس أو سابع محرم سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م[٤].

ولم يبق لنا إلا ذكر الروايات الخيالية عن وفاة الظاهر بيبرس، والتي قد تواترات منها روايتان حول موت بيبرس وإن كانت الروايتان مرتبطتان بعضهم ببعض.

الرواية الأولى: أن "بيبرس" لما عاد من انطاكية إلى دمشق فى تلك السنة، وكان فى حالة غير عادية من السرور والفرح "تناهى سعده" فأكثر من شرب القمز، فلما انقضي المجلس أحس بتوعك شديد فى جسمه وأصبح يتقيأ ويشكو حرارة فى بطنه، واستعمل دواء لم يكن عند رأى طبيب فلم ينجح وتزايد ألمه، حتى وصل الأطباء فأنكروا عليه استعمال ذلك الدواء ،على أن علاج الأطباء لم يفلح هو الآخر، فتزايد به الإسهال والقيىء وتضاعفت الحمى ورمى دماً ، يقال أنه كبده، فعولج بجواهر ومات[٥].

وثمة رواية أخرى: ذكرها اليونينى ونقلها عنه عدة مؤرخين مفادها": حكى تاج الدين نوح بن إسحاق بن شيخ السلامية حكاية غريبة، معناها أن الأمير علاء الدين أزدمر العلائى رحمه الله، قال : كان الملك الظاهر مولعاً بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم كثير البحث عن ذلك ،

---

(١) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ٣ ، ص ٢٦٧ ، بيتر ثوراو، أسد مصر، ص ٢٧٨.
(٢) ابن عماد الحنبلى، شذرات الذهب، مجلد ٧ ، ص ٦١٣.
(٣) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، جـ٨ ، ص ٢٨٤
(٤) المقريزى، المواعظ والاعتبار ، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٨٠٧
(٥) المقريزى،المصدر نفسه ، المجلد الرابع القسم الثانى، ص ٨٠٧ ؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٣.

فأخبروه أنه يموت فى سنة سبع وسبعين ملك بالسم فحصل عنده من ذلك أثر كبير، وكان عنده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعة أو يذكر بذكر جميل فى معناه، واتفق أن الملك القاهر لما دخل مع الملك الظاهر إلى الروم وكان يوم المصاف ورآه الملك الظاهر فتأثر منه، وحصل للملك الظاهر فتور على خلاف العادة، فظهر عليه الخوف والندم على تورطه فى بلاد الروم، فحدثه الملك القاهر فى ذلك بما فيه الإنكار عليه والتقبيح لفعاله، فأثر عنده أثر آخر، فلما عاد من غزواته وسمع الناس يلهجون بما فعله الملك القاهر زاد تأثره منه وحنق عليه، فخيل فى ذهنه أنه إذا سمه كان هو الذى ذكره أرباب النجوم لأنه يطلق عليه اسم ملك، وله ذكر فأحضر عنده ليشرب القمز وجعل الذى قد أعد له ورقة فى جيبه من غير أن يطلع على ذلك أحد من خلق الله تعالى وللسلطان هنابات كأس مختصة ثلاثة مع ثلاثة من السقاه الذين لا يشرب إلا بها ،ومن يكرمه بأن يناوله ذلك الهناب من يده، واتفق قيام الملك القاهر إلى البزال، فجعل الملك الظاهر ما فى الورقة فى هناب وأمسكه بيده، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه فقبل الأرض وشربه وقام الظاهر لينزل فأخذ الساقى الكأس من يد الملك القاهر وملأه على العادة وأمسكه، ووقف مع السقاة رفاقه، فجاء الملك الظاهر من البزال وتناول ذلك الكأس وشربه وهو لا يشعر، فلما فرغ من شربه، استشعر وعلم أنه شرب من ذلك الكأس الذى فيه آثار السم وبقاياه، فقام لوقته وحصل له ألم واشتد به المرض أياماً، ومات..." [1].

ويتضح مما سبق أن السلطان الظاهر بيبرس قتل نفسه بالسم من غير قصد، وأن كنت أرجح الرواية الثانية لعدة أسباب:

(١) أن اليونينى معلوماته مستقاة بشكل غير مباشر من الأمير علاء الدين أزدمر العلائى الذى كان والى السلطان على حضر، وإن هذه الرواية جاءت من الوسط المحيط بالسلطان ومن شخص نستبعد الشك فى معلوماته.

(٢) إيمان "بيبرس" بالنجوم والمنجمين خاصة فى عصر سادت فيه الخرافات.

---

(١) مفضل ابن أبى الفضائل، النهج السديد، ص ٢٧٧؛ بيبرس المنصورى، مختار الأخبار، ص ٦٢؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ، ص٦٥؛ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص٢٠٣ ؛ بيتر ثوراو، أسد مصر، ص ٢٩٤-٢٩٥؛ محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره، دار الفكر العربى،القاهرة ١٩٥٤م ، ص٢٨-٢٩.

(٣) ربما كانت صفة الغيرة التى يتسم بها الظاهر بيبرس هي ما جعلته يحاول أن يتخلص من القاهر الأيوبى[١].

هذه قصة "الظاهر بيبرس" كما ترويها المصادر التاريخية المعاصرة، فكيف صوره الوجدان الشعبى العام فى السيرة الظاهرية؟

أما عن سيرة الملك الظاهر بيبرس[٢]، فهى تنتمى إلى التاريخ الشفاهى والحكى الشعبى أو بالأحرى القراءة الشعبية للتاريخ، وهى فى حقيقتها قراءة شعبية لفترة مهمة من تاريخ مصر والمنطقة العربية، كما أنها تحمل ما يمكن أن نسميه التفسير النفسى والشعبى للحوادث التاريخية، وهذا التفسير النفسى الشعبى للحوادث التاريخية فى حقيقته تعويض نفسى يلجأ إليه الفنان الشعبى لكى يتجاوز الواقع بحدوده الزمانية والمكانية صوب اللامحدود زماناً ومكاناً ليطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض، وهكذا يختار الفن الشعبى حادثاً تاريخياً أو بطلاً من أبطال التاريخ، ويعيد صياغته بشكل تعويضى، ولا يلبث الحدث التاريخى الحقيقى أن يتواري خلف تراكمات الخيال التي تضع متنفساً حقيقياً للمشاعر الشعبية الحقيقية من ناحية أخري ، ولتبرر مشاعر الإحباط والحيرة فى أوقات الأزمات من ناحية أخرى[٣].

ومما يثير الانتباه أن هذه السيرة التى تناولت أحداث وأشخاصاً فى شتى أرجاء المنطقة العربية وفى فترة تسبق ظهور صلاح الدين، وبغض النظر عن الخلط فى الأحداث التاريخية والمواقع

---

(١) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، جـ٣ ، ص٢٧٤؛ بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ص ١٥٩؛ أبى الفدا، المختصر فى أخبار البشر، جـ٤ ص ١٧ ، ١٨؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٣ ، ص ٢٤٥- ٢٤٦؛ الذهبى، تاريخ الاسلام، جـ٥ ، ص ٢٣٢؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ، ص ٦٣٥-٦٣٦، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٧، ص ٣٦٤؛ ابن الشحنة، روض الناظر فى علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد محمد مهنى، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص ٢٦٧؛ ابن سباط ، صدق الأخبار، تار؛ عماد الدين غانم، الملك الظاهر بيبرس ، ص ١١٦.

(٢) فقد وصفة ابن تغرى بردى بأنه "كان عنده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعه، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧، ص ١٧٨ ؛ سعيد عاشور، الظاهر بيبرس ، ص ١٨٥.

(٣) تتكون سيرة الظاهر بيبرس من خمسة مجلدات تحوى خمسين جزءاً ، تحكى تاريخ السلطان محمود الظاهر بيبرس ملك مصر والشام وقواده وعساكره ومشاهير أبطاله مثل جمال الدين شيخه وأولاده إسماعيل وغيرهم من الفرسان، وما جرى لهم من الأهوال والحيل، وتبدأ السيرة بالحمد والتسبيح والاستغفار، يقول الراوى: أنه لم يجد أصدق قولاً ولا أقوى برهاناً ولا أفصح بيانا من سيرة الملك الظاهر بيبرس أبى الفتوحات الموعود من الله بالنصر والتأييد من ابتدائها إلى انتهائها... ، سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٦م مجلد الأول جـ١ ، ص١٠.

الجغرافية، فإن الأبطال يتخطون حدود التاريخ والجغرافيا[١]، واستطاع القصاص تحويل الشخصية التاريخية إلى مادة لعب فيها الخيال دوراً بارز، حيث أوجد أسباب وبراهين فى كل حدث يقوم به الظاهر فهو يمحى عنه الخطأ ويعلل له النجاح، ووضعته السيرة فى صورة البطل كما ينبغى فى أذهان الشعب وقتذاك، كما أرجعت السيرة اسمه والقابه إلى تصورات وخيال القاص، وزعم أن اسمه محمود، ووصل نسبه إلى بيت ملكى، وجعلت الإسلام دين آبائه وأجداده، وجعلته نتاج ثقافة غربية إسلامية. يقول الراوى: "أعلم أن هذا المكان لا سبيل لأحد عليه من جميع الأنام الاغلام يقال له محمود العجمى الخوارزمى بن القان شاه جمك أحمد بن محمد بن مصطفى بن أدهم الدمشقى، فهو الذى معدود له الدخول، وحصول المأمول، فلما سمع بيبرس ذلك صاح أنا صاحب هذا الحسب والنسب..." [٢].

وعلى أية حال لم يغفل الرواة صفاته الجسمانية فهو: فهيم وفطين يحفظ القرآن ضعيف ووجهه حسن وإذا غضب يكون وجهه جدريات تملكه من الطارقة اليمنى إلى الطارقة اليسرى ويكون بين عينيه شعرة أسد وبين حاجبيه سبع من اللحم، هذا من الغضب وإذا راق لم يكن لذلك أثر[٣].

ومما هو جدير بالذكر؛ أن مرحلة الصبا دخلت عالم السيرة بغتة دون أن نعرف شيئاً عن مرحلة الطفولة والنشأة وبذلك تتفق رواية القصاص فى نشأته مع الدعاية التاريخية بصفة عامة وتختلف معها فى التفاصيل، فهى تذهب إلى أنه أسمه محمود بن الملك خوارزم شاه، وأنه قد اختطف وبيع التجار الرقيق، حتى إذا أصبح يافعاً تربى فى حياة الرق بين من اختطفوا مثله وأصبح ينتقل من مدينة بورصا ثم إلى حلب ثم إلى دمشق، ولعل حلم الصالح أيوب يعد النواة الحقيقية للتعرف على شخصية البطل، عندما أمر الصالح "على بن الوراقة" أن يشترى له الغلام الذى بين عينيه شعره أسد، والذى رآه فى المنام، وعندما ذهب "على من الوراقة" لشراء المماليك، وجد صاحب تلك العلامات مريضاً ورائحته كريهة، وكان على بن الوراقة مصراً على أن يشترى المماليك جملة من مسعود بك عثمان، لكن مسعود رفض ذلك فيأتيه الأمر بالبيع عبر حلم يراه الملك الصالح فيعدل مسعود عن رأيه ثم يأتى الملك الصالح فى المنام لمسعود بك عثمان، ويقبل بيع المماليك ولو بثمن بخس خشية غضب الملك الصالح عليه ويقول الراوى: "... ورأى القائل يقول له فتح عينيك واسمع باذنيك أنا الملك الصالح الفقير إلى الله وعز الربوبية إن لم تعطى على المماليك بالكلية

---

(١) قاسم عبده قاسم، بين الأدب والتاريخ ، ص ١٨٧ ؛ بين التاريخ والفولكلور ، ص ٩٣

(٢) قاسم عبده قاسم، بين الأدب والتاريخ ، ص ١٨٧

(٣) سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٦م ، مجلد الأول، جـ٢ ، ص ١٦٨

والا نفذت هذه الحربة من ظهرك وصار بيدى أخذ عمرك.... وعند دخول المماليك إلى الحمام كرفوا رائحة كريهة قد أطبقت ذلك المكان فتأملوه الغلمان وإذا به غلام مريض قد ألمه المرض الشديد ومضى عليه ثلاثة أيام وهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام من شدة المرض والأسقام..." (١).

وهنا يبحث "على بن الوراقة" عن الصبى المراد شراؤه، وبعد عناء يجد ضالته، فإذا به صبى مريض لا يأكل ولا يشرب منذ ثلاثة أيام، لذلك عندما ذهبت المماليك إلى الحمام لتستعد للذهاب إلى مرحلتهم الجديدة (٢) مع على بن الوراقة" وجدوا ذلك الغلام مريضاً ويخرج منه ريحاً كريهاً، بل بدا كل واحد من المماليك يبصق على وجهه ومنهم من ركله بقدميه داعياً عليه بالموت مثل علاء الدين، وعندما سأل على بن الوراقة عن هذا الصبى قالوا أنه مملوك لمحمود المصارع، وعندما اقترب منه "على بن الوراقة" بادره بأسئلة تغضبه حتى إذا غضب ظهرت علامات أخرى وهى السبع جدريات التى فى وجهة، يقول الراوى: "..... فلما رآوه المماليك سدوا أنوفهم وسألوا الحمامية عن ذلك ، فقال أنه ولد مملوك مريض وهو لرجل أعجمى يقال له محمود العجمى وصناعته مسارع .. ولما سمعت المماليك بذلك تنافروا عنه ومنهم من بصق عليه... ثم أن على قال له قد طال بك المرض وكان موتك أولى فلما سمع منه ذلك محمود تغير كيانه وامتزج بالغضب وقال له أنت تعاند ربى وقدرته وهو الذى خلق الخلق وقهرهم حتى ظهر بين عينيه سبع جدريات ملكته من الطارقة اليمنى إلى اليسرى شعرة من الأسد بين عينيه سبع من اللحم بين حاجبيه، فقال فى نفسه هذه علامة ثالثة أخرى..." (٣).

وعندما تيقن "على بن الوراقة" بأنه الصبى المطلوب إحضاره عندئذ طلب شراؤه من محمود المصارع، والذى لم يتردد فى بيعه حتى ولو بثمن بخس(٤)* ، ومن ثم تذكر على بن الوراقة قطعة القماش التى أعطاها له الملك الصالح وأمره بأن لا يفتحها، فظن على أنها تحمل سراً ، فقد جاء وقت وظيفتها فما كانت إلا ثمناً لشراء ذلك المملوك، ولذا فرح بها محمود المصارع كثيراً وباع المملوك لعلى بن الوراقة يقول الراوى "... فلما رآه قال له هذا غلامك قال نعم قال تبيعنى أياه

---

(١) السيرة م١ جـ٢، ص ١٢٨؛ عبد الحميد يونس، الاعمال الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٠م، المجلد الثالث، ص ٤٩.

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ، م١ جـ٢ ، ص ١١٢ ، ١٢٥

(٣) وكما هو معروف أن تربية المملوك تمر بعدة مراحل ففى البداية يعهد إلى من يعلمهم اللغة العربية ويلقنهم مبادىء الدين الاسلامى، ثم يعهد إلى من يتولى تدريبهم على فنون القتال والفروسية، للمزيد انظر قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٥.

(٤) السيرة ، م١ جـ٢، ص ١٢٦ ، ١٢٨

قال أبيعه لك ولو بسرة من التراب فقال فى نفسه والله أنها لكرامة عظيمة، ثم قال له معى سرة مسرورة ولم أدرى ما فيها وأنها مجهولة فهل لك أن تبعني اياه بها فقال له :بعته لك ياسيدي فعند ذلك ناوله السرة..." [١].

وعلى أية حال تبدأ مرحلة جديدة من حياة المملوك محمود، ففى الطريق إلى مصر يظهر عدة أبطال مساعدين له وهم أولاد إسماعيل الذين تحولوا من قاطعى طريق إلى أبطال مدافعين عن قافله على بن الوراقة إلى حماه، وذلك بناءاً على أوامر من الصالح نجم الدين أيوب الذى أتى إليهم فى منامهم[٢] يوصيهم بحماية على بن الوراقة والمملوك الصغير، يقول الراوى: "... ولما أعاقوا على ومنعوه عن السير وتقرر الأمر بينهما على نهب الكبير والصغير وقد هجم عليهم الليل بالمساء فأخذهم المنام فرأوا فى منامهم الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب وهو يقول لهم يا أولاد إسماعيل وحق الملك الجليل إن لم تكرموا على لأجل خاطرى ولأجل هذا الضعيف لاشتتكم فى جميع البلاد بالتعنيف وإنى أعلمكم إن هذا الغلام هو الذى شاع ذكره عندكم فى حفظ الزمام وهو الذى يصير ملكاً وسلطان على مر الليالى..." [٣].

ومن ثم تتحول السيرة إلى طور جديد، عندما يتم علاج محمود المريض فى المرستان، وهنا تظهر شخصية حسنة الدمشقية التى تتبنى محمود، يقول الراوى "... وإذا بالمرض قد زاد عليه، ثم أخذه على وصار إلى المرستان الذى بأرض الشام وكان ذلك المرستان فيه الضعفاء والعيانين وكان به رجل يقال له دحروج المرستانى، فدخل عليه على وقال له خذ هذا الغلام المريض وألقى بالك منه.... وكان لدحروج زوجة يقال لها السيدة حسنة الدمشقية تتفقد الضعفاء فرأت هذا الغلام .... وأما ما كان من أمر محمود فإنه انتعش من المرض وقد عافاه الله من السقم ودفع عنه ذلك الألم، فحمد الله واثنى عليه ونهض محمود من عند امه السيدة حسنة ونزل بتبديله خفيفة نقية وهو يتوكأ على السردست العجمى..." [٤].

---

(١) * ربما أراد الراوى أن يربط بين قصة سيدنا يوسف الذى بيع بدراهم معدودة وأصبح يملك خزائن الأرض وكيف تحول من حالة الضعف إلى القوة، وبين الظاهر بيبرس الذى يتحول من ضعف إلى قوة ومن ذليل إلى عزيز.

(٢) السيرة م١، جـ٢، ص ١٣٠ س

(٣) قام الخيال الشعبى بإعادة إنتاج صورة الملك الصالح فى السيرة وجعلها فى ذلك القالب الذى يحظى بقبول شعبى واسع، بحيث يعفيه من مسئولية الممارسات الخاطئة للإدارة الحكومية، وبحيث يجعله مجذوباً من أهل الكرامات .. وينكشف عنه الحجاب ويأتى بالخوارق والمعجزات، وتصدر عنه الكرامات، ثم تقدمه السيرة على أنه "الملك الصالح والزناد القادح والبحر المليان السايح والصالح أيوب ولى الله المجذوب..، قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، ص١٣٨.

(٤) السيرة م١ جـ٢ ، ص١٣٤ .

ودون الخوض فى تفاصيل كثيرة، شرع على بن الوراقة فى محاولة السفر بمحمود إلى مصر، لكنه وجد عائقاً يحد من سيره إلى مصر وهو على بن الاقواسي والذى كان له ديناً على "على بن الوراقة" وهنا يصر على أخذ محمود مقابل هذا الدين، ويذهب الأقواسى بمحمود إلى منزله ليعمل خادماً له، ثم يتعرض محمود لظلم الأقواس وزوجته، فيقرر الهروب، ثم تدور الأحداث ويظهر الأبطال المساعدون لمحمود فتظهر فاطمة الأقواسية أخت على الأقواسى، فتقوم بسداد دين "على بن الوراقة"، وليس هذا فحسب بل تهدى ما لها كله لهذا الغلام وطلبت من العلماء أن يكتبوا ذلك فى حجة شرعية يقول الراوى: "... فلما توسطت المكان وجدت هذا الغلام وهو يستغيث ولا يغاث، فلما رآها محمود صاح بعلو صوته وأنا فى جيرتك يا سيدتى فقال له يا ولدى لا تخاف وحق رب الالطاف... قالت له يا على هذا الغلام إليك وقد اشتريته بملك فقال لا ولكنه مرهون عندى على مائة من الذهب... ثم أنها أخرجت له المائه دينار فأخذهم على بن الأقواسى... ثم قالت للعلماء اكتبوا حجة شرعية متممة بأن جميع مالى ونوالى وما تملكه يدى ملكاً لهذا الغلام..." [(١)].

ولم يكن الضعف الذى وصفه به القصاص عندما صوره لنا لأول مرة إلا صفة عارضة تشفى منها، بل إن القصاص زاد من قوته بأن زودة باللست الدمشقى حديد مكببة تشبه الفأس الذى لم يفارقه طوال حياته وجعله الراوى مثلاً من أمثلة الشجاعة والاقدام يتغلب على كل من يقف فى سبيله من اللصوص وقطاع الطرق ولما طلب منه قطاع الطرق العفو، سامحهم وأعطاهم الأمان، وعندئذ تحول العدو إلى صديق، فاصطحب هؤلاء إلى السيدة حسنة الدمشقية وأقاموا عندها واتخذهم عتادة يقول الراوى: "... وضرب الأمير بيبرس هذا الخيال فارماه على الأرض كالمجدول ونزل عن جواده وأوثقه كتاف وقوى منه السواعد، وقد وضع رجليه بين كتفيه، ثم أقبل ثلاثة آخرين فقام الأمير بيبرس بهزيمتهم... فلما سمع الأمير بيبرس من الأربعة قال لهم تريدون أن تخدموا عندى وتأخذوا ما بكم من الأموال من يده قالوا نعم ما رأيت وأننا رضينا.."[(٢)].

وعلى أية حال، ينتقل بيبرس إلى مصر، حيث تتبناه شجرة الدر ويتخذه الملك الصالح ابنا له، وفى الحارة المصرية يهرع الناس البسطاء إلى الاحتماء به فيزود عنهم، ويتصدى لأغا الوشاقية الذى سلب طعامهم و أموالهم، وكان يضرب غلاماً صغيراً فطلب الغلام شفاعة بيبرس فيشفع له ولكن الوشاقى رفض شفاعته، مما أثار غضب بيبرس فهجم على الوشاقى فقتله ويأخذ الوشاقية

---

(١) السيرة م١ جـ٢ ، ص١٣٩ ، ١٤٥
(٢) السيرة م١ جـ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٤

قتيلهم إلى الملك الصالح، فيأمر الملك الصالح بحضور بيبرس، فيرفض بيبرس الحضور إلا بحجة شرعية من قاضى الاسلام، ونلاحظ أن بيبرس لم يعد فتى صغيراً بل شاباً يافعاً بطلاً يدرك معنى الحجة الشرعية، وتكمن لديه القوى التى تؤهله لأن يرفض حكم الملك الصالح إلا بحجة شرعية، لذلك أمر الملك الصالح الشيخ العز بن عبد السلام أن يكتب له تذكرة شرعية بالحضور، يقول الراوى "بسم الله الرحمن الرحيم خطاب من قاضى قضات الاسلام التى بين أيادى بيبرس الهمام المقصود حضورك صحبة نائب الشرع والأحكام حتى تقوم عليك الحقوق الشرعية وتنظر ما يكون فى أمر هذه القضية والحذر من المخالفة..." [١].

واتضح للملك الصالح أن "بيبرس" سيكون نصير المظلومين وأنه سيدافع عنهم، مما يؤهله ذلك للدفاع عن مصر والشام والتصدى للعدو الخارجى مما حذا بالملك الصالح أن يرقيه فى المناصب فقد ولاه منصب الوشاقية بعد قتله أغا الوشاقية، يقول الراوى: "قد تبين براءة هذا الغلام فإن هؤلاء كانوا مؤذين لكل الأنام والمؤذى طبعاً يقتل شرعاً، وماله من دية، فقال الملك من الآن الوشاقية معزولون وما يلبس أغا وشاقية إلا هذا الغلام الذى صار فيه حمية لدين الاسلام فألبسه يا حاج شاهين ليكون أغة الوشاقية، فألبسه الوزير القفطان وقال أوليتك الاغوية"[٢].

ثم يتدرج بيبرس فى المناصب ، حيث يتولى عدة مناصب مثل منصب السلاح دار، ثم "أمير قصص" أى رفع مظالم الشعب للسلطان الملك الصالح، ثم كاشفاً للجيزة، وكذلك كاشفاً للغربية، ثم يتولى منصب سنجق سلطان، حتى أن ولاه الملك الصالح واليا على مصر، يقول الراوى "فقام الوزير وخلع على بيبرس خلعة وألبسه سلاح دار... وقال الوزير يا مولانا أزال الله عنك الغصص نلبسه الآن أمير قصص يعنى معناه كل من كان له دعوى أو قصة معروضة للديوان أن يأخذها منه يقدمها للسلطان... وقال السلطان ذات مرة للاغا شاهين إذا أردنا أن نرسل كاشف للجيزة فلابد أن يكون رجلاً حربياً لأن هذا البدوى سطا عليها وإذا راح واحد من هنا قتله كما قتل شعبان الكردى... أن الذى يصلح شأن الجيزة ويطهرها من الفساد إلا ابنك بيبرس، فأمر بيبرس بذلك والبسه شاهين قفطان الكشوفية... قال السلطان تعال يا سيدى بيبرس أعلم يا ولدى أن الأمر قد احتاج لنصرة الإسلام فإنه قد ظهر رجل خارجى وقتل كاشف الغربية ثم قال الملك يا شاهين البسه كاشف الغربية... ولما قرأ القاضى الكتاب وعرف ما فيه نهض على الاقدام ونفض الأحكام وقال

---

(١) السيرة م١ جـ٢ ، ص١٧٠ – ١٧١

(٢) السيرة م١ جـ٣ ، ص ٢٧٦ ؛ إبراهيم عبد العليم حنفى، البنية الأسطورية فى سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٣م ، ص٥٢.

إيش إيش إن هذا لا يكون أبداً وما يكون النوبة التركى والمزمار الملكى الا لمن يكون فى صنجقية كاملة وبيبرس لا يستحق ذلك لأنه كاشف والكاشف لا يقدم مقام الصنجقية فقال الملك يا قاضى والصنجقية كثير على ولدى بيبرس وعزة الله لا يلبس الصنجقية إلا ولدى وقال يا وزير شاهين ألبسه الصنجقية فقال سمعاً وطاعة..."[١].

وربما أرادت السيرة الإشارة إلى قيام الملك الصالح بتولية بيبرس فى المناصب لترسيخ شخصية "بيبرس" بين المصريين[٢]، وأصحاب المناصب حتى إنه كان يقول للخدام "فلا تمنعوا أى جواد طلبه وأعطوه، وكلما أمركم بشىء فلا تخالفوه ، فإن شورته شورتى وكلمته مثل كلمتى"[٣].

وثمة أمر آخر مهم، وهو تدرج لقب "بيبرس" بمراحل عديدة ،ففى صدر السيرة عرف باسم محمود، ثم سرعان ما أطلقت عليه السيرة لقب "بيبرس" عندما يكون مقيماً عند السيدة حسنة الدمشقية التى تبنته ولقبته بيبرس، حيث كان لها ولد يدعى "بيبرس" وكان يشبه محمود المملوك الذى اتخذته ولداً لها، ومن ثم لقبت محمود باسم "بيبرس" تيمناً باسم ولدها، يقول الراوى: "حيث كان للسيدة حسنة الدمشقية ولد يقال له بيبرس وكان عزيز عليها، وقد توفاه الله فانكسر لأجله خاطرها وحمدت ربها على ذلك فمن الله عليها بهذا الغلام وجبرها وحن قلبه عليها ورحمها وكان محموداً أشبه البرايا بولدها بيبرس فاتخذته ولداً لها وكتبت بذلك حجة أشهدت العلماء عليها فقالوا ماذا تقول يا محمود فقال أنا خادم مواطىء أقدامها ثم أنه قام وقبل يد السيدة ورأسها وأدخلته فى طوقها وسمته على اسم ولدها من وقتها وساعتها"[٤].

ثم مرت السيرة بطور جديد ولقبته "الظاهر" وكان ذلك على يد الملك الصالح وذلك عندما قتل بيبرس أغا الوشاقية لظلمه، ودافع بيبرس عن نفسه أمام قاضى القضاة العز بن عبد السلام، فرح الملك الصالح لفصاحة بيبرس وحجة لسانه ونفيه تهمة القتل عن نفسه، مما حذا بالصالح أيوب يعجب به ويطمئن له قائلاً: اظهر يا ظاهر واقصد حماهم، يقول الراوى: "وعندما فرغ بيبرس من

---

(١) السيرة م١ جـ٢ ، ص ٧٢٩

(٢) السيرة، م١، ص ٤٣٨ ، ٤٦٦ ، ٦٥٦-٦٥٧ ، ٦٩٢ ، ٧٢٦-٧٢٨

(٣) الناظر فى السيرة، سوف يكتشف دون عناء شديد أن البطل الحقيقى فى هذه السيرة هو الشعب المصرى فمثلاً فى الشخصيات الشعبية التى تلتف حول الظاهر بيبرس منذ البداية وهو بعد فى ميعة الصبا وعلى أعتاب مرحلة الشباب، وهذه الشخصيات الشعبية هى التى تتولى بيبرس بالرعاية، وتحدد له معالم الطريق، وتحميه من غائلة المكايد والدسائس التى يتعرض لها باستمرار، قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور ، ص١٢٤.

(٤) السيرة م١ ، جـ٣ ، ص ٢٨٧.

كلامه وإنشاده وما قال من مقاله ونظامه حماهم... تعالى يا ولدى يا محمود يا بيبرس يا دمشقى يا ابن القان شاه جمك يا ابن السيدة انت اسمك إيش فقال له وقد تعجبت يا سيدى اسمى بيبرس فقال له اسمك الأصلى هذا أم لك غيره فقال اسمى الأصلى محمود"[١].

أما سلطة بيبرس فى السيرة فجاءت من قبل الفنان الشعبى الذى رفض أن يكون البطل خائناً لوليه فقد جاءت السلطة لبيبرس عبر اهتمام الملك الصالح به وتفضيله على سائر المماليك وإعتاقه مرتين بحجة من علماء الاسلام ليخلعه من العبودية، وإذا كان التاريخ يقص علينا بسخط الناس وتزمرهم من تمليك من مسه الرق عليهم، فإن السيرة أكدت هذا المعنى عندما جعلت الصالح أيوب يعتق بيبرس مرتين ويشهد على إعتاقه ويكتب الوثائق بذلك[٢].

وطلب الصالح أيوب من العز بن عبد السلام أن يكتب وثيقة رسمية وشرعية ويوقع عليها الملك، والأكراد تفيد بأن بيبرس سيتولى ملك مصر والشام بعد وفاة الصالح أيوب وتعطى الحجة لبيبرس، أما الحجة الثانية فهى تأكيد للحجة الأولى، وقد جاءت تكريماً لمآثر بيبرس فقد أبلى بلاء حسناً فى محاربة الاعداء فأمر الملك الصالح أيوب بكتابة حجة ثانية تأكيداً للحجة الأولى[٣]، يقول الراوى : "فقال الملك اعطو كل ما كان على الأمير بيبرس من الديون واكتبوا له حجة شرعية متممة لا يكون ملكاً بعد حياتى الا هو والحق لك على أن طاوعت هؤلاء الرجال..." [٤].

وكما ذكرنا سابقاً ، بأن السيرة تنفى تهمة قتل قطز على يد بيبرس، وتذهب قتله على يد جوان عدو الإسلام، ويتولى بيبرس السلطنة إلا أنه لم يفلت من ضغائن أيبك الذى استقدم "توران شاه" ابن الملك الصالح ليتولى الحكم خلفاً لأبيه، لكن عندما جاء توران شاه" أتى بأفعال يرفضها معظم عامة الشعب المصرى فكان منكباً على احتساء الخمر ودائم السكر، مما جعل بيبرس يؤدبه على أفعاله، وهنا تتفق السيرة مع التاريخ[٥]، يقول الراوى: ولم يزل عثمان حتى أقبل عليه، فإذا به جالس تحت شجرة وبين يديه الكأس والخمر... وإذا بالأمير بيبرس قد هجم وأمسكها فقال الملك : ماذا يا بيبرس الآن ظهر الحق وأشهر هذا هو خمر مسكر فقال له الأمير والله لقد صدق

---

(١) السيرة م١ ، جـ٢ ، ص ١٦٤.

(٢) السيرة، م١ جـ٣ ، ص٢٧٧ ؛ إبراهيم عبد العليم حنفى، البينة الأسطورية ، ص ٥٥.

(٣) عبد الحميد يونس، الأعمال الكاملة، جـ٣، ص ٢٢؛ إبراهيم عبد العليم حنفى، البنية الأسطورية فى سيرة الظاهر بيبرس، ص ٦٢.

(٤) قاسم عبده قاسم ، بين التاريخ الفولكلور ، ص ١٢٤؛إبراهيم عبد العليم حنفى، المرجع السابق ، ص ٦٢

(٥) السيرة م٢ ، جـ١٤ ، ص ٩٨١.

اليهودى... ولا أقول شيئاً أبدا فعند ذلك أخذه من بين الرجال وأدخله إلى قاعة الجلوس وضربه الحد...." [١].

ومن الملاحظ أن السيرة احتفلت ببيبرس وهو فى طريقه إلى الملك أكثر مما احتفلت به وهو متربع عليه، ولم يغفل أصحاب السيرة " التفويض الإلهى" فى حكم بيبرس وتمليكه فقد جعلوا الحكام الشرعيين يوصون له بالملك واحد بعد واحد وهو ينتظر زمانه المرتقب لا يستقدم عليه ساعة ولا يتأخر ،وكأنما كانوا بذلك من الدعاة إلى حكم المماليك يبررون قيام دولتهم ويدعون إلى نصرتهم، فلما ذهب الأمر عنهم وتناقل الرواة السيرة الظاهرية، بقى شارة على الدعوة لهم أو لعله مجرد تبرير فنى لقتال بيبرس، وهو البطل الذى يمجده القصاص ويجعلونه حرباً على الاغتصاب والظلم، فلا ينبغى أن يحكم هو عن اغتصاب وظلم، يقول الراوى: "وقال الملك الصالح لا يكون ملكاً وسلطاناً بعد حياتى إلا ولدى بيبرس فانكتبت الحجة ... أما ما كان من أبيك اجتمع به رفاقه فجعلوه يلوموه ويقولوا له أنت عقلك راح فين أمرك إن تكتب حجة لبيبرس بالسلطنة قال لهم يعنى أنا مت أنا عمرى طويل وأولادى موجودين أنا لابد أن أقتل بيبرس..." [٢].

وثمة أمر جدير بالذكر، أن السيرة قد أشارت إلى عدة نبوءات عن تولى "بيبرس" سدة السلطنة، فقد رأت السيدة "غزية الحبلى" أم عثمان السايس، السيدة نفيسة وهى تصطحب بيبرس فى يدها اليمنى وعثمان ابنها فى يدها اليسرى، وأخبرتها بسعادة ولدها إذا لزم محمود العجمى "بيبرس" ، والذى سيصبح ملكاً على مصر والشام، وهنا يقول الفنان الشعبى: "هل لك يا ولدى أن تصبر حتى أقص عليك ما رأيته فى المنام بالأمس وما فسرته ولا لأحد حكيته فقال بيبرس قولي يا أمى فقالت: رأيت فى منامى الست أم القناع الطاهرة بنت النبى المختار المبرقعة الأنوار وهى سيدة السيدات نفيسة رضى الله عنها ونقصنا بها وهى تقول لى: حبلة طيبى نفسا وقرى عينا وافرحى فرحاً شديداً بخدمة ولدك عثمان عن هذا الملك السعيد فإن سعد ولدك أقبل وذهب عنه الشقاء وتحول ورأيت أنت فى يدها اليمنى وولدى فى يدها الشمال ونور وجهها أضوى من الهلال فقلت لى هذا الغلام الذى عبر يمينك بيبرس العجمى سوف يكون ملكاً وسلطاناً ويبقى له كلمة تسمع وحرمة ترفع وهو صاحب العز والوقار والمجد والافتخار، وينصر دين النبى المختار

---

(١) تتفق السيرة مع التاريخ فقد جاء "توران شاه" إخفاقاً أيوبياً جديد، فقد كان يحيك الدسائس والمؤامرات ضد من حفظوا له العرش بعد وفاة أبيه، حتى يقول ابن تغرى بردى: "كان إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشموع وصفها أمامه ثم أخذ يضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع... وهو يقول هكذا افعل بالبحرية، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ٦ ، ص ٣٧١؛ قاسم عبده قاسم ، بين التاريخ والفلولكلور، ص ١٤٠.

(٢) السيرة، م٢ جـ١٤ ، ص ٩٧٧

ويهلك جيوش الكفار، أما ولدك فإنه يكون له وعلى يده شأن وأى شأن فإذا أقبل إليك فى غداة فأكرميه غايه الإكرام وأقرى له منى السلام..." (١).

ومن هذا المنطلق يظهر دور السيد البدوى ومعه مجموعة من أقطاب الصوفية يتنبأون للظاهر بيبرس بأنه سيكون حاكم مصر والشام، وقد اجتمع هؤلاء الأولياء عند رأس بيبرس وهو مريض عندما كان عند السيدة حسنة الدمشقية، يقول الراوى: "كما أمر قطب الأقطاب سيدى أحمد البدوى العلوى صاحب الإمداد النبوى فعند ذلك أقبلت الرجال كأنهم الأقمار، فقال أحد الأربعة :يا سلطان الرجال وبطلى الأعيان هذا ملك الزمان وفارس العصر والأوان وهو الذى ينصر الإسلام ويقيم الأحكام ويزل جيوش اللئام وقال الثانى: هو الذى يفتح السواحل وينصره النبى الهادي وقال الثالث :أطلبو من الله أن يكشف ضره وبلاه ، وقال السيد البدوى اعلموا أن هذا ولدى ولابد أن يأخذ عهدى ويحفظ ودى وأنى سألت الله أن ينصره على جميع أعدائه، وقال الدسوقى: أسال الله أن يريه ليلة القدر وقال الجيلانى: أسأل الله أن يهدى سره ويطيل حكمه..." (٢).

وكذلك رأى يحيى الشماع وزوجته حلماً وفحوى هذا الحلم أن الذى سيحكم مصر والشام غلام اسمه بيبرس؛ ولذلك قام يحيى الشجاع بقص رؤياه على بيبرس، يقول الراوى :"لابد أن تكون ملكاً وسلطاناً وسيد ملوك الزمان؛ لأنى أنا وزوجتى رأينا لك مناماً ومثل ما رأيت أنا رأت زوجتى ثم حدثه بالمنام من أوله إلى آخره..." (٣).

ومما يسترعى الانتباه أن السيرة تحتفى احتفاء بالغاً بالصوفية، بحيث تجعل للبطل علاقة وثيقة بكبار الصوفية، فعلاقته وطيدة بهم وكراماتهم متكررة فى ثنايا السيرة، بالشكل الذى يكشف لنا عن أن الجو الثقافى السائد كان أريجه الخرافات والشعوذة فى تلك الفترة التى دونت فيها السيرة، وهو أمر تؤكده المصادر التاريخية الأخرى(٤).

فتتحدث السيرة عن وجود علاقة وطيدة بين "بيبرس" والسيد البدوى" ، فيتخذه السيد البدوى ولداً له يقول الراوى:" أنا لحظتك يوم الخلوة وأنت منصور، وقد اتخذتك ولدى ولى معك فقابله سبع مرات أولاً قابلتك يوم طعام الكشك وأنت مريض والثانية يوم الجمعة فى حيل القاف وهذه الثالثة فمد يدك أنت يا ولدى..." (٥).

---

(١) السيرة، م٢ جـ١٤ ، ص ٩٦٤، ١٠٠٢
(٢) السيرة، م١ جـ٤ـ ص ٣٢١ .
(٣) السيرة، م١ جـ٢ ص ١٤٤.
(٤) السيرة، م١ جـ٣ ص ٢٦٨-٢٦٩ .
(٥) قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، ص ٩٩.

ولا يتوقف الأمر على ذلك؛ بل إن السيد البدوى يقف إلي جواره وينصفه على اعداؤه، فهذا رجل المحلة على الفوال كان يهدم القنطرة التى يقوم بيبرس بتشييدها لكى يعبر الناس من بر إلي آخر، وعندئذ يستعين بيبرس بالسيد البدوى يقول الراوى: "فقام الأمير بيبرس وقال أنا رجل مظلوم فقال له :ومن الذى ظلمك فقال : الذى ظلمنى رجل فى المحلة قال : وما ظلومتك فقال: يا سيدى أنا رأيت أن الناس إذا خاضوا فى المياه من البر إلى البر فيرفعوا أذيالهم فتتكشف سوآتهم، فعملت قنطرة فكلما بنيت أساسها جاء صاحب المحلة وهدمها... فقال السيد البدوى: احضروا صاحب المحلة ولما حضر قال أنا فى ذلك لا ذنب لى ولكن أصحاب الأرض وهم الذين يكرهون ذلك وهم الجان.. فقال السيد البدوى: وعزة الله إنه لابد أن يبنى هذا الشاب القنطرة كظماً وكرماً ولا أحد يعارضه وكل من منعه فأنا له خصماً كيف أن الجان يتحكمون فى الأرض والمهاد... "[1].

أضف إلى ذلك، السيرة تحاول إضفاء هالة دينية على العلاقة بين "بيبرس" و "السيد البدوى" عندما كرس الفنان الشعبى فكرة أن بيبرس هو الذى أقام مقام السيد البدوى فى طنطا، وكان يساعده مجموعة من الأولياء ، يقول الفنان الشعبى: "ثم إن السيد البدوى قال للأمير اركب جوادك وسر به على طنطا إلى أن يقف الجواد وحده فأنزل عنه وتأمل فى الأرض تجد غوصه ثابتة فى الأرض مكتوب عليها بقلم القدرة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا رأيت هذه العلامة فهناك يكون مقامى فقال الأمير بيبرس سمعاً وطاعة... وشرع بيبرس فى البنيان وبنى المقامات والجامع والمآذنتين واجتهد فى ذلك... وقد بلغ فى البناء أكثر من نصف سنة، ويقال أن كل الأولياء كانوا يجاملون فى السيد البدوى... وأخذ سيدى إسماعيل قصرية ووضع فيها النصف طين والنصف طوب وقصد بجانب القبة حتى تمت القبة..." [2].

وكما هو معروف فى التاريخ قيام بيبرس بزيارة الأولياء ورجال الصوفية، فإن السيرة تجعله يتردد على الإمام الشافعى، فيقول الراوى: "والله إنى أنا أريد زيارة الإمام الشافعى لأجل عسى الله أن يقبل منى الزيارة..." [3].

---

(١) السيرة، م١ جـ١٠ ، ص ٧٢٩ذكرت بعض الروايات التاريخية أن الملك الظاهر بيبرس ،قد خرج هو وعسكره لاستقبال السيد البدوي عند قدومه لمصر ،لكن استطاع استاذنا الدكتور سعيد عاشور أن يفند تلك الرواية بقوله"أنه عندما قدم السيد البدوي إلي مصر لم يكن الظاهر بيبرس قد ظهر علي مسرحها بعد ،ولم تكن دولة المماليك قد قامت لها قائمة ،لأن السيد البدوي وصل لمصر سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م،للمزيد انظر ابن عماد الحنبلي ،شذرات الذهب ،ج٧،ص٦٠٤؛سعيد عاشور ،السيد البدوي ،ص١٠٧

(٢) السيرة ،م١ جـ١٠ ، ص ٧٢٠ - ٧٢١ .

(٣) السيرة ،م١ ، جـ١٠ ، ص ٧٢٩ - ٧٣٠ .

ويجعله الفنان الشعبى يزور قبر السيدة نفيسة لقضاء حوائجه، فهو يطلب منها أن يهدى الله عتمان بن الحبلى[١]، يقول الراوى: " ثم أن الأمير بيبرس تقدم إلى قدام السيدة وقرأ الفاتحة ووهب ثوابها إلى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ثم إلى روح السيدة نفيسة ودعى الله وطلب قضاء حوائجه... وقال لها يا سيدتى أنتى تعلمى أن هذا الرجل اتهمك فى المعاصى وفى أكل الحرام وضيع كل صباه وجرية فى الضلال، وأنا أطلب منك أن يوفقه وإياى إلى طريق الخير والصلاح ويكون بإذنك يا سيدتى وأطلب منك فى ذلك السماح فأنت صاحبة الثورة ورأيك فيه الصلاح.."[٢].

وتجعله السيرة مستجاب الدعاء، يقول الراوى: "فبينما بيبرس وعتمان كذلك إذا أخذتهم سنة الكرى وغشى عليهم فناموا فى الحضرمى، فرأى الأمير بيبرس السيدة قدامه وهى تقول له هذا تابعى وخديمى وأنا لم أفوته أبداً ، ولكن رضيت أن يكون خديمك على طول المدى ويكون لك سامعاً ومطيعاً وكذلك أنت الأخر تطيع أمره .."[٣].

ولم يتوقف الأمر على لجوء بيبرس إلى السيدة نفيسة ،بل تجعله السيرة يذهب إلى السيدة زينب عندما مر بضائقة مثل، سرقة مال خان السبيل يقول الراوى: "وأما ما كان من الأمير بيبرس فإنه لما رجع من خان السبيل حضر مقلد بين يديه وقال رجل أنت لما انحسبت كان لك أناس من تحت يدك سرقوا مال خان السبيل... وقال يا عتمان أول ما نروح أول المبرقعة ونزورها وساروا إلى أن وصلوا إلى باب السيدة زينب وصار يشتكى إلى السيدة ما هو فيه فأخذته سنة من النوم وأغفلت عينه وإذا بالسيدة قدامه تتبخر فى حلك الجنة، وقال لها أنا من أتباعك وأنت يا سيدتى أوعدتينى بقضاء حوائجى على يدك، فقالت :لا تخاف يا بيبرس فإن عدوك مقهور مكمور وأنت إن شاء الله تعالى مسعود ولكن طاوع عثمان..." [٤].

وهكذا يمكن تفسير موقف الفنان الشعبى فى سيرة الظاهر بيبرس من الأولياء، والتجاء الظاهر بيبرس إليهم فى أموره كى يضفى البعد الدينى على كل أموره، وكما هو معروف أن الصوفية قد باتوا يلقون التقدير العاطفى بعد أن اشتد ساعد الحركة الصوفية بسبب الحروب الصليبية وحركة

---

(١) السيرة م١ ، جـ٣ ، ص ٢٨١ ، ٢٩٠
(٢) من الشخصيات غير التاريخية عتمان بن الحبلى عتمان بن الحبلة للمزيد انظر عبد الحميد يونس، الأعمال الكاملة، جـ٣ ص٥٧؛ محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيارين، ص ٣١٣
(٣) السيرة م١، جـ٤ ، ص ٣٢٢ .
(٤) السيرة م١، جـ٤ ، ص ٣٢٣.

الأحياء السنى التى لازمت حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين، وربما يكون الخيال الشعبى قد اختار هذه الصورة المحببة فى نفوس العامة كى يظهر بيبرس فى صورة حامى الدين والزائد عنه[١].

لو انتقلنا إلى أعمال "بيبرس" العسكرية لوجدنا أن السيرة قد جعلته صاحب الفضل الأول فى انتصارات المسلمين فى صدر القصة[٢]، فيجعله الراوى يقاتل بسيفه ويقتل العديد من الصليبيين الكفار ويهزم قائدهم سرجويل، يقول الراوى: "ولم يزل يقتل واحداً بعد واحد حتى قتل اثنى عشر فارساً من الرجال... ولما نظر سرجويل إلى ذلك خاف من شرب كأس المهالك... وافتقد الأمير بيبرس من رجاله نحو ثلاثين وقتل من الكفار ما لم يقع عليه أحصاه بعدد الرمل والحصى... وسار سرجوس يلطم وجهة بالنعال ويسب اللئام وأهل الضلال ويقول هذا غندار وما معه إلا قليل من الأنفار وقد أهلكوا منكم الكبار والصغار فلا طرح المسيح فيكم بركة ،ولا خفتم منه رحمة ولم يزالوا على ذلك الأحوال حتى طلع النهار..." [٣].

وعلاوة على ما تقدم تجعله الليالى البطل المغوار الذى يدخل البلاد ويوزع الغنائم ويأسر ملوك الأعداء، يقول الراوى: "نزل الأمير بيبرس وجلس على كرسى سرجويل، وقال للمقدام أجمع الأسلاب والأنعام وسلمني هذا اللعين ابن اللئام ففعل ذلك وبعد أن تهيأ الفراغ أمر الأمير بيبرس بسرجويل فأحضره الفدادى بين يديه..." [٤].

وتستمر السيرة فى عرض بطولات بيبرس، فهو يستخدم أسلوب المكر والدهاء لخداع ملوك الإفرنج، عندما خدع فرنجيل وقتل ولده " قمطة" والذى كان يأخذ أتاوة على من يمر ببلاده، فوضع بيبرس أحجاراً فى صندوق وأعطاها لولده قمطة على اعتبار أنها ذهب، ولما علم " قمطة" أنها أحجار عاد لقتال بيبرس لكنه قُتل على يد "بيبرس" يقول الراوى: "وقد أقبل بيبرس ومعه الصندوق فقال بيبرس من الذى يأخذ الغفر منى وعليه يحاسبنى فقال قمطه أنا فقال بيبرس مرحباً بك يا سيدى ولكن اسمع كلامى، وأعلم أن فى أمرى كل سبيل العجلة وليس عندى مهلة حتى أنى أحاسبك وأكاتبك، ولكن أنت عندى صاحب دين وعلم ويقين فخذ هذا الصندوق وادخل به

(١) السيرة م١ جـ٧ ، ص ٥٧٠-٥٧١ .

(٢) قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور ، ص ١٣٠ .

(٣) كما هو معروف فى التاريخ أن الأمور لم تتم للظاهر بيبرس فى سهولة مطلقة ، فقد تعرض للعقبات حتى يتم توطيد أركان دولته، للمزيد انظر سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص ٤٢ وما بعدها، بيتر ثوراو، أسد مصر ، ص ١٢٩ وما بعدها.

(٤) السيرة ،م١ جـ٢ ، ص ١٨٢

إلى بلدك فمثلك يؤتمن على أكثر من... وسار قمطة بالصندوق وهو فرحان حتى وصل إلى البلاد وخرج به أبوه وقال له أنت جئت بالغفر... وتأمل وإذا بالصندوق ملئان من دعر الواد والجبال من خلط صوان وحجر... ولما سمع بيبرس ذلك الكلام تغير لونه واضطرب كونه ذكر عليهم راجعاً و قاتلهم... وكان السابق بالضربة بيبرس فكانت مثل القضاء النازل والبلاء الواصل لأنها نزلت فقطعت البيضة والرقادة والعصابة ونزل السيف إلى أم رأسه ونزل إلى آخر أساسه ووقع قمطة إلى الأرض يخور في دمه..." [١].

وخلافاً لما ذكرناه سابقاً، فإن السيرة تجعله يهزم أكثر من مرة بل ويؤسر حيناً ويخطف أحياناً، وكان ذلك بتدبير كل من جوان المتخفى فى شخصية صلاح الدين القاضى، وأيبك [٢]، يقول الراوى: "انظر يا قاضى كيف دبرنا وما فلحنا وتعبنا وما بلغنا واجتهدنا وضاع تعبنا وبعد هذا كله يعطيه الرجل الصالح السلب والغنيمة ولا يرعى لنا جاهاً ولا قيمة... ثم إن القاضى أرسل رسالة إلى قلعة زهير وهى قريبة منه، .. إلى ولدى زهير سير إلى أرض الشام وادخل على بيبرس واسرقه ثم اقتله ... ثم جاء زهير وقد أقبل ولبس ملابس الاسلام وسأل عن ذلك الصوان فعرفه وعلمه وخرج حتى أقبل الظلام ونام كل إنسان .... ثم اخرج اللعين منديلاً بالبنج التيار وفرده على وجهه... ثم فاق بيبرس وقال أنا فين فرد عليه اللعين وقال عندى يا كناس..." [٣].

وهنا يصور لنا الفنان الشعبى كيف استعان "بيبرس" بالعناصر المساعدة مثل دعوته المستجابة حتى يتخلص من عدوه، يقول الراوى: "وبينما الأمير يبتهل إلى مولاه ويتفرغ إلى الله وإذا بالغبار قد ثار وعلى سلة الأقطار وقد انكشف الغبار عن خيال طويل القامة عريض الهامة ... ويتقاتل مع زهير حتى قتله...." [٤].

وكذلك عندما قُبض على "بيبرس" من قبل الكاهن الأزرق، بفضل مكيدة جوان، طلب شيحة [٥] من بيبرس أن يدعو فإنه مستجاب الدعوة، فلما دعا اختفى بيبرس عن أعين الكهان وهم بسيفه وقتل الكاهن، يقول الراوى: "اطلب الفرج من الله لنا ولك ولنفسك، أنت أطهر من أنفسنا جميعاً، فرفع بيبرس قامته إلى السماء وقال اللهم انى أسالك يا عظيم العظماء يا من

(١) السيرة، م١ جـ٢ ، ص١٩٠

(٢) السيرة م١ ، جـ٣ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧

(٣) يبدو واضحاً أن السيرة اتخذت منه موقفاً عدائياً تماماً، فقط جعلت سبب مجيئه إلى مصر مشوباً بقدر من الانتهازية والعدوانية، للمزيد انظر قاسم عبده قاسم، بين التاريخ الفولكلور ، ص ١٤١ .

(٤) السيرة ، م١ جـ١١ ، ص ٧٩٨-٨٠٠ .

(٥) السيرة ، م١ جـ١١ ، ص ٨٠١.

بسط الأرض على تيار الماء .... أسألك أن تنقذنا من هذا الكافر وتكون لنا ناصراً، فإنك أنت العظيم القادر القاهر"[١].

ومن جهة ثانية، ذكرت السيرة اعتماد "بيبرس" على عناصر اسطورية مساعدة له مثل: البراق الخاطف خاصة البراق الأبيض يقول الراوى: أنا أبنك البرق الخاطف أنا الأبيض الذى قربتنى أنا وأخواتى مرة، ما تعزيت أقمت عندنا أيام قبطاويل حين ملك بلادك، فقال السلطان يا ولدى إذا كنت أنت ابنى خذنى عندكم لأنى صرت كفيف... ثم حمله وأدخله المنار...." [٢].

وبالاضافة لما سبق، تظهر الثعابين فى السيرة كعناصر مساعدة للسلطان بيبرس وذلك على إثر دعوة يدعوها، فهى تنجى السلطان من ضائقة يتعرض لها مثل الحبس، يقول الراوى: "وإذا بقائل ارجعوا يا أخواتى هذا ملك الاسلام فقال وعليكم السلام يا خلق الله أنت من تكون فقال يا مولانا أنا أسمى زعازع من الملك الأبيض، وأنا وأخواتى رصاد على هذا السجن وأخواتى الزمهم الكاهن الاقامة فى هذا المكان كل من نزل فيه يحرقوه بالنيران، ... ونحن نريد أن نحملك ونردك إلى بلادك ونأتى بغيرك نحرقه..." [٣].

وإذا كانت السيرة قد ذكرت عدة نبوءات عن تولى "الظاهر بيبرس" سدة السلطنة، فإنها أوردت نبوءات عن موته، جاءت على لسان السيد البدوى والذى ترأى لبيبرس وأرشده إلى شجرة نبق ليأكل منها، فإذا فرغ بيبرس من أكل الثمرات ووصل إلى آخر ثمرة عرف أن شجرة حياته المليئة بالصراعات قد حان قطفها وأن نجمه قد أفل: يقول الراوى:" فنظر بيبرس إلى تلك الشجرة وإذا هى شجرة نبق فأخذ منها سبع حبات وأكلهم ناعمين فى أكلهم، وقال له الشيخ لك سبعة أخر فأخذ بيبرس سبعة أخر فإذا هم حلوين مبيضين غير أن فى أكلهم شمخين لا فيهم لين، فقال له الشيخ خذ سبعة آخر فأخذهم وأكلهم فإذا فيهم قليلة حلاوتهم ناقصة عن الأولين ولكنهم لينين... فقال له خذ سبعة وسأر يأكل فيهم فوجد كل واحدة على صفة بين حلو وملح وحامض... والسابعة ناشقة ورائحتها كالعنبر الخام وبها حلاوة أكثر من الجميع ولم تقبل نفسه من بعد ذلك من الشجرة شيئاً ... ثم قال له أوصف ما أكلت فقال أكلت سبعة حبات أحل من الشهد فقال له هم الذى أنت

---

(١) تنكر المقدم جمال الدين شيحة فى صورة غلام صغير- جارية- عجوز - بطريق- خادم - عبد أسود- صبى- طباخ- جنا ، للمزيد انظر، عبد الحميد يونس، الأعمال الكاملة، جـ٣، ص ٥٢.

(٢) السيرة ،م٤ ، جـ٣٥ ، ص ٢٣٨٣ وأشارت السيرة فى أكثر من حادثة على دعواته المستجابة منها عندما دعا على الكاهن سمنود يقول الراوى: "يارب اصرف عنى الهم والغم كله وأرسل لى فرحاً... فجاءته النجدة..." السيرة، م١ جـ١٠ ، ص ٧٤٣.

(٣) السيرة، جـ٥ ، جـ٤٢ ، ص ٢٧٨٠ .

فيهم... وأكلت سبع آخر لكن ملصوق لحمهم بنواهم فقال له: هم الذى تأخذ فيهم المملكة فتكون قهراً عن من يكون معه شور فى المجلس... والسابعة يقضى بك شهيداً فى الجهاد كى يشاء رب العباد وتنقل من دار الفناء إلى دار البقاء وتجاور الصالحين.. "[١].

وطاف الخيال الشعبى بنبوءة ثانية عن موت "الملك الظاهر"، عندما جاء الملك الصالح "لبيبرس" فى منامه وطلب منه أن يبنى لنفسه بيتاً فى دار العقيق فى الشام، وهو نفس المكان الذى دفن فيه الملك الصالح أيوب، ولما استيقظ بيبرس من نومه علم أن أجله قد اقترب فشرع فى بناء قبر له، يقول الراوى: "فرأى منام كان الملك الصالح يقول له ابنى لك بيت تأوى إليه إذا رحلت من الفانية إلى الباقية، فلما افاق من نومه أحضر له مهندس باشه وأمر أن يضع له مدفن فى دار العقيق ورحل من الشام..."[٢].

وفى نهاية الأمر، تتفق السيرة مع التاريخ فى وفاة السلطان بيبرس مسموماً، فيقول الراوى: " وأما الملك الظاهر فاشتاق إلى الحج وجهز نفسه فقال له الوزير قلاوون :يا ملك الاسلام وأنا أيضاً مشتاق للحج فقال له جهز نفسك... ولما كان فى أول الحج طلع السلطان وقال لقلوون إذا كان فى الأجل تأخير يكون رجوعنا على الشام فعلم قلوون مضمون السلطان فأرسل إلى الأمير سنقر نايب الشام "حق سم" وأرسل كتاب يقول فيه أن الملك الظاهر عند عودته من مكة نازل حى الشام فاجتهد أن توضع هذا الحق فى مرتبان مربه عسى يأكل منه ويموت فإن صبح ذلك العمل أخذت أنا السلطنة بعده وأعطيك الشام وتكون عليها ملكاً، فاعتمد سنقر على كلام قلوون، وبعد سبعة أيام مات السلطان ودفنوه فى دار العقيق بالشام.. "[٣].

وفى نهاية المطاف، هذه هى الصورة الشعبية للسلطان "بيبرس" على النحو الذى صاغه الوجدان الشعبى متجاهلاً تفاصيل الحقائق التاريخية لصالح الصورة التى تعبر عن رؤية الناس للدور التاريخى للسلطان بيبرس، وكما رأينا كيف رفض الخيال الشعبى أن يجعل بيبرس عبداً ،بل جعله حراً وانتحل له نسباً ملوكياً، ولم يكتف الخيال الشعبى بذلك ،بل جعل معظم انتصارات المسلمين فى صدر السيرة ترجع بفضل قوته وشجاعته ومحاربته للأعداء بسيفه البتار.

---

(١) السيرة ،م٣ ، ج٣٠ ، ص ٢٠٧٨ .
(٢) السيرة ،م١ ، ج١٠ ، ص ٧٢٢-٧٢٣.
(٣) السيرة ،م٥ ، ج٢٧ ، ص ٣٠٤٠؛ إبراهيم عبد العليم حنفى ، البنية الاسطورية، ص٨٠.

الخرافات في ألف ليلة وليلة:

قدمت لنا الليالى صورة عما كان شائعاً من عادات يومية فى المجتمع وما طرأ على المجتمع من خرافات فى جميع جوانب الحياة اليومية، فتشير الليالى كيف كان يتم "رقى" الطفل ويتم التسمية فى أذنه اتقاء للحسد، وليس هذا فحسب ، بل كانوا يتفاءلون بأسماء بعينها ويتشاءمون بغيرها، ففى حكاية علاء الدين أبى الشامات ما يؤكد ذلك: يقول الراوى: "قامت الأفراح فقاست الداية المشقة فى الخلاص ورقته باسمى محمد وعلى، وكبرت وأذنت فى أذنه... ثم رشوا ملحه... وكان أهل ذلك الزمان يسمون أولادهم بالفأل، فبينما هم يتشاورون فى الاسم وإذا بواحد يقول يا سيدى علاء الدين، فقال له سميه بعلاء الدين أبى الشامات... ووكل به المراضع والدايات فشرب اللبن عامين وفطموه فكبروا وانتشى وعلى الأرض مشى، فلما بلغ العمر سبع سنين ادخلوه تحت طابق خوفاً عليه من العين...." [١].

أضف إلى ذلك، زخرت الليالى بذكر قيام أهل المولود بإتيان المنجمين لاستطلاع مستقبل المولود، ففى حكاية حاسب كريم الدين ابن دانيال الحكيم، يقول الراوى: "ثم إن زوجته بعد أيام قلائل وضعت ولداً مليحاً فسمته حاسب كريم الدين، كما أوصاها به، ولما ولدته أحضرت له المنجمين فحسبوا طالعه وناظره من الكواكب ثم قالوا لها: أعلمى أيتها المرأة أن هذا المولود يعيش أياماً كثيرة، ولكن بعد شدة تحصل له فى مبدأ عمره، فإذا نجا منها فإنه يعطى بعد ذلك علم الحكمة..." [٢].

واستكمالاً لحكاية حاسب كريم الدين ابن دانيال، يحاول الراوى التأكيد على صدق ما يتنبأ به المنجمون، يقول الراوى: "ويعمل حاسب كريم الدين حطاباً ، ويحاول أصحابه أن يتخلصوا منه بقتله... وتمر الأيام والسنوات ويعطى الحكمة، حيث استطاع أن يكلم الحيات... ولما سمع حاسب هذا الكلام من الحية أكل حتى اكتفى وحمد الله تعالى، فلما أكتفى من الأكل ورفع السماط من قدامه، ثم بعد ذلك قالت له ملكة الحيات... أخبرنى يا حاسب من أين أنت، ومن اين أتيت إلى هذا المكان وما جرى لك"[٣].

---

(١) السيرة م٥ ، جـ٤٨ ، ص ٣٠٧٨-٣٠٧٩ .

(٢) اعتمدت على طبعة دار الشعب، وهى تقع فى مجلدين، ألف ليلة وليلة، إعداد رشدى صالح، لوحات حسين بيكار، دار مطابع الشعب، المجلد الأول، ص ٥٠١.

(٣) الف ليلة وليلة، المجلد الأول، ص ٧٥٢

وأيضاً تذكر الليالى فى حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال استعانة أهل المولود بالمنجمين عند ميلاد الطفل لكى يحسب نجمه، يقول الفنان الشعبى :"فأمر الملك عاصم بأن يحضر كل من في المدينة من العلماء والفلكية والمنجمين وحضروا وجلسوا ينتظرون فى رمى الخرزة فى الطاقة، وهذه إشارة المنجمين، وأخذوا فى حساب نجمه، وبشروا الملك بأن هذا المولود مبارك وهو سعيد الحركة ولكن فى أول عمره يجرى عليه شىء نخاف أن نذكره للملك قال لهم قولوا وليس عليكم خوف أبداً... فقالوا يا ملك هذا المولود يخرج من هذه الأرض ويسافر فى الغربة ويغرق فى البحر ويقع فى الشدة والأسر والضيق، ثم يعيش بقية عمره فى أطيب عيش ويحكم على العباد والبلاد ويتصرف فى الأرض على رغم الأعادى والحساد..." [١].

وكما هو معهود فى الليالى أن المنجمين تصدق نبوءتهم، فقد حدث لسيف الملوك ما قاله المنجمون :"واتفق أن خرجت عليهم الريح فى يوم من الأيام وجاءهم الموج من كل مكان ونزلت عليهم الأقطار وتغير البحر من شدة الريح... وغرق كل من كان فى المركب عدا سيف الملوك مع جماعة من مماليكه..." [٢].

ولا تكاد تخفى الليالى اعتماد النسوة ولجوئهن إلى المشايخ، خاصة إذا كانت عاقر، ففى قصة أحمد الدنف وحسن شومان مع زينب النصابة قالت لها ما سبب تكديرك فقالت لها يا أمى لم يرزقنى الله بالأولاد وحلف زوجى وقال: لما أرجع من السفر أتزوج عليك، وأنا خائفة، فقالت لها دليلة النصابة يا بنتى هل أنت عمياء عن شيخ أبى الحملات، فكل من كان مديوناً وزاره قضى الله دينه، وإن زارته عقيم فإنها تحبل، وذهبت خاتون مع دليلة النصابة إلى الشيخ أبى الحملات..." [٣].

وكما كثرت أنواع اللهو فى الليالى، تفننت الليالى فى كيفية إظهار الحزن على الأموات، فإذا مات ابن أحد الملوك أقام عليه أيام وليالى خوفاً عليه وما تبعها من عادات شائعة من تمزيق الثياب، ولبس السواد، ونتف اللحية، والتمرغ فى التراب بل واقامة، بيتاً يسميه بيت الأحزان، كما جاء فى حكاية الطائر وقمر الزمان يقول الراوى: "فتفرقت الجيوش والعساكر للبحث عن الأمير قمر الزمان... فلما رأى الملك شهرمان مفرق أربع طرق ووجد أثر أقمشة ممزقة ورأوا اللحم مقطعاً ووجدوا أثر الدم باقية وشاهدوا كل قطعة من الثياب واللحم فى ناحية فلما رأى

---

(١) الف ليلة وليلة، المجلد الأول، ص ٧٥٢

(٢) ألف ليلة وليلة، المجلد الثانى، ص ١١٦٢

(٣) ألف ليلة وليلة، المجلد الثانى، ص ١١٦٤ .

الملك شهرمان ذلك صرخ صرخة عظيمة من صميم القلب وقال: وا ولداه ، ولطم على وجهه ونتف لحيته ومزق أثوابه وايقن بموت ولده وزاد فى البكاء والنحيب وبكت لبكائه العساكر كلهم وأيقنوا بهلاك قمر الزمان وحثوا على رؤوسهم التراب، ودخل عليهم الليل وهم فى بكاء... ونادى الملك شهرمان فى جزائره أن يلبسوا السواد من الأحزان على ولده قمر الزمان، وعمل له بيتاً وسماه بيت الأحزان..." [١].

وكذلك فى حكاية الملك الأمجد والملك الأسعد، يقول الراوى: "لما فتح الملك قمر الزمان البقجتين صار يقلب ثياب ولديه ويبكى وا والداه وا طول حزناه ، وأمر ببناء قبرين فى بيت الأحزان، وكتب على القبرين اسمى ولديه وترامى على قبر الأمجد وبكى وأن واشتكى...." [٢]، وأيضاً فى قصة المدينة المسحورة، التى ذكرت بناء بيت الأحزان، يقول الراوى:" فمكثت فى حزن وبكاء وعديد سنة كاملة من الحول، وبعد هذه السنة قالت لى: أريد أن أبنى لى فى قصرك مدفنا مثل القبة، وأنفرد فيه بالأحزان واسميه بيت الاحزان..." [٣].

ونرى فى الليالى عادات الشعب التى تصور روحه حقاً من تشاؤم وتفاءل وحسد، وهذه الخرافات صبغت بلون مصرى صميم، ولكنها عكست فى بعض الأحيان أشياء عامة عرفت عن المسلمين فى كل قطر من أقطار الدولة الإسلامية[٤]، كالتشاؤم من زرقة العين الذى نجده فى وصف التاجر رشيد الدين فى قصة زمرد الجارية، يقول الراوى : "فقال شيخ يسمى الشيخ رشيد الدين وكان أزرق العين قبيح المنظر..." [٥].

وتشير الليالى إلى أيام يتفاءل بها الناس وأخرى يتشاءمون منها ، فتذكر أحد الليالى وصف تحليلياً لهذا التشاؤم والتفاءل، ففى حكاية أبى الحسن وجاريته تودد[٦]، يقول الراوى "وقالت الجارية للمنجم، إن لكل يوم من الأيام كوكباً يملكه، فإذا كان أول يوم من السنة يوم الأحد فهو للشمس ويدل ذلك "والله أعلم" على الجور من الملوك والسلاطين والولاة وكثرة الوخم وقلة المطر، وأن يكون الناس فى هرج، وأما يوم الثلاثاء هو للمريخ ويدل ذلك على موت كبار الناس وكثرة الفناء وإزهاق لدماء والغلاء، وقلة الأمطار، ويكون السمك قليلاً ويزيد فى أيام وينقص فى أيام

(١) ألف ليلة وليلة ،المجلد الثاني،ص١٠٥٢.
(٢) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول، ص ٤٥٦ .
(٣) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول، ص ٤٧٠
(٤) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول، ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٥) سهير القلماوى، الف ليلة وليلة، الهيئة العام لقصور الثقافة القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠١٠م، ص٣٤٩.
(٦) الف ليلة وليلة، المجلد الاول،ص٥٧٨.

ويرخص العسل، ويكثر الموت بالدم ويكثر موت الحمير، أما يوم الأربعاء وهو عطارد ويدل ذلك على هرج عظيم يقع فى الناس وتكون الأمطار معتدله، وأن يفسد بعض الزرع، وأن يكثر موت الدواب وموت الأطفال، أما يوم الخميس فهو للمشترى وهو يدل على العدل فى الوزارة والصلاح فى القضاة والفقراء وأهل الدين، وأن يكون الخير كثيراً وتكثر الأمطار والثمار والاشجار والحبوب ويرخص الكتان والقطن والعسل والعنب ويكثر السمك، أما يوم الجمعة هو للزهرة ويدل ذلك على التحدث فى الزور والبهتان وأن يكثر الندى ويطيب الخريف فى البلاد ويكون الرخص فى بلاد دون بلاد ويكثر الفساد فى البر والبحر.

أما يوم السبت فهو لزحل، ويدل ذلك على إيثار العبيد والروم ومن لا خير فيه، وأن يكون الغلاء والقحط كثيراً، وأن يكون الضيم كثير ، ويكثر الموت فى بنى آدم والويل لأهل مصر والشام من جور السلطان[(١)*].

وعلى أية حال، ينظر التراث الشعبى إلى الغراب كطائر أسود يتشاءمون منه ومن صوته، فذكرت الليالى أن الغراب والبوم نذير شؤم على الناس فيقول الراوى: "ثم يسار الأمر ولم يزل سائراً وهو خائف جائع عطشان وهو لا يدرى أين يذهب حتى انتصف عليه النهار، وحميت عليه الرمضاء، وإذا هو قد أشرف على مدينة عالية البنيان مشيدة الأركان وهى قفرة خراب، ليس فيها غير البوم والغراب،..." [(٢)].

ولا تتوقف الليالى عن ذكر اقتران الخراب بالبوم والغراب، وتجعله نذير شؤم، ففى قصة المدينة المسحورة، تحكى الأميرة إلى عشيقها بأن زوجها لا تحبه قائلة "أنا اكره النظر فى صورته... ولولا عشيقها بأن زوجها لا تحبه قائلة: أنا أكره النظر فى صورته أنى أخشى على خاطرك لكنت جعلت المدينة خراباً يصيح فيها البوم والغراب..."[(٣)]. وكذلك تجعل الليالى من القرد وجه شؤم أينما حل ففى قصة الحاسد والمحسود، يقول الراوى: "أخرج من هذه الصورة إلى صورة قرد ، فمن ذل الوقت صرت قرد ابن مائه سنة، ... وسرت إلى أن أتيت وسط المركب فقال واحد منهم: أخرجوا هذا المشئوم من المركب وقال واحد منهم: فقتله وقال آخر اقتله بهذا السيف...." [(٤)].

---

(١) الف ليلة وليلة ،المجلد الاول ،ص٧١٢.

(٢) * لم تذكر الليالى يوم الاثنين.

(٣) ألف ليلة وليلة، المجلد الثانى، حكاية الجارية وكيد الرجال، ص ٨٨٢

(٤) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول، ص ٤٤.

وكما هو معروف فقد استخدم البخور فى الموروث الشعبى لمنع الحسد، فإن الليالى أشرت لذلك فى حكاية الحاسد والمحسود عندما استخدم البخور فى علاج ابنة السلطان من الحسد، فيشير الراوى: "عند هذا العابد قط أسود فى ذيله نقطة بيضاء بقدر الدرهم، فلو أخذ منها سبع شعرات من الشعر الأبيض وبخرها بها نجت من المارد ولا يعود إليها أبداً وتبرأ لوقتها..." [١].

كما ذكرت الليالى فى الليلة الثامنة والتسعين عن قدرة البخور فى علاج تعب البطن، يقول الفنان الشعبى: " وقد عولت فى هذه الليلة على تقديسكم بالبخور الأكبر، وكان البطارقة وخواص ملوكهم يجعلون قليلاً منه فى كحل العين ويداوون به المريض المبطون... "[٢].

ولم يقتصر دور البخور فى العلاج بل استخدمته الليالى فى طقوس أخرى مثل السحر، كما فى حكاية جودر بن عمر التاجر مع أخويه، يقول الراوى: "اعلم أنى متى عزمت وألقيت البخور نشف الماء من النهر، وبأن لك باباً من الذهب قدر باب المدينة بحلقتين من المعدن، فانزل إلى لباب واطرقه طرقه خفيفة... ثم أن المغربى عبد الصمد القى البخور وصار يعزم مدة وإذا بالماء قد ذهب وبانت أرض النهر وظهر باب الكنز فنزل إلى الباب وطرقه فسمع...." [٣].

وثمة أمر مهم، تشير إليه الليالى هو خرافة الكنوز المدفونة تحت الأرض، وكانت أرض مصر هى المنبع الوحيد لهذا الخيال حول الكنوز وحول ما تحت الأرض من أشياء فيها الثراء أو قد يكون فيها مغامرات تنتهى إلى الثراء، وتعليل ذلك أن المصريين من قديم كانوا يحفرون فى الأرض ويجدون آثار الفراعنة التى تكون كنوزاً حقة والتى تفتح لهم أبواب الثراء الملموس، بل إننا إلى اليوم نجد هذا الاعتقاد فى الكنوز متفشياً فى جهات مصر التى دلت الحفريات العلمية على وجود كنوز حقه مدفونه فى أرضها[٤].

ويتجلى دور الكنوز فى الليالى فى حكاية الطائر وقمر الزمان حيث يقول الراوى: "بلغنى أيها الملك السعيد أن قمر الزمان لما فتح ذلك الطابق وجد بابا فنزل فيه فلقى قاعة قديمة من عهود ثمود وعاد وتلك القاعة واسعة وهى مملوءة ذهباً أحمر فقال: لقد ذهب التعب وجاء الفرح والسرور..." [٥].

---

(١) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول ، ص ٦٦.
(٢) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول ، ص ٦٤ ؛ سهير القلماوى، ألف ليلة وليلة، ص ٢٢٣ .
(٣) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول ، ص ٢٨٠.
(٤) ألف ليلة وليلة، المجلد الثانى ، ص ٩٢٢ ، ٩٢٣ .
(٥) سهير القلماوى، الف ليلة وليلة ، ص ٢٣٢

وتبرز الليالى دور الكنوز وما تحققه من ثراء فاحش ومدى ابتسام الحظ المفاجىء فى الحياة، ففى قصة جودر بن عمر التاجر مع أخويه له وهذا السر فى حرص عبد الصمد المغربى على أن يسترضى جودر ويهبه ما شاء ليفتح له الكنز، ويمر جودر بامتحان عسير فهناك ثعابين تهدد وطريق محفوف بكل المخاطر الخارقة.... ففتح الباب وادخل تجد ثعبانين أحدهما على الشمال والآخر على اليمين وكل واحد منهما يفتح فاه ويهجمان عليك فى الحال، فمد إليهما يديك فيعض كل واحد منهما فى يد، وإن خالفت قتلاك..." [١].

على الرغم من كل هذه المخاطر فإن جودر يصل إلى مراده ويتحول من حالة الفقر المدقع إلى الثراء الفاحش، عندما وصل إلى كنز الشمرول، يقول الراوى: "فاكشف الستارة فإنك ترى الكهين الشمردل راقداً على سرير من الذهب وعلى رأسه شيء مدور يلمع مثل القمر فهو دائرة الفلك..."[٢].

ولم يقتصر الراوى فى الليالى علي ذكر ارتباط الرؤى بالكنوز، ففى قصة الرجل الطحان مع زوجته ومدى ما لعبته الرؤى والأحلام فى الوصول للكنز ويقول الراوى: "حكى أن رجلاً كان عنده طاحون وله حمار يطحن عليه وكانت له زوجه سوء... فرأى زوجها فى النوم قائلاً يقول له: أحضر فى الموضع الفلانى من مدار الحمار بالطاحون تجد كنز، ولما انتبه من منامه حدث زوجته برؤياه، وأمرها بكتمان السر، فأخبرت بذلك جارها لأجل أن تتقرب إليه... وحفر مدار الطاحون فوجدا كنزاً فاستخرجاه..." [٣].

وشاعت فى الليالى استخدام طرق خرافية لعلاج بعض الأمراض مثل الصرع، ففى قصة البغدادى مع جاريته:" .... وقعت أنا مغشياً علي، فظن القوم أني قد صرعت، فصار بعضهم يقرأ فى أذنى ولم يزالوا يلاطفونها ويطلبون منها الغناء..." [٤].

ومن جهة ثانية دخل السحر فى مسألة شفاء المريض، وهذا ما أشار إليه الفنان الشعبى فى حكاية وزير الملك يونان، فقد استخدم مسحوق رش على ورق الكتاب، ولما لمسة الملك أول مره شفى من البرص الذى شوه بدنه، ثم سرعان ما لمسه ثانية فمات، يقول القاص " فتح الملك فوجده ملصوقاً الكتاب فحط أصبعه فى فمه وبله بريقه ، وفتح أول ورقة والثانية والثالثة والورق ما

---

(١) ألف ليلة وليلة، المجلد الأول، ص ٤٥٨

(٢) ألف ليلة وليلة، المجلد الثانى، ص ٩٢٣

(٣) ألف ليلة وليلة، المجلد الثانى، ص ٩٢٣.

(٤) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٤٦٤ .

ينفتح إلا بجهد ، ففتح الملك ست ورقات ونظر فلم يجد شيئاً ، حتى سرى فيه السم لوقته وساعته حتى مات..." [(١)].

وأفاضت الليالى في ذكر دور الحيات، فلقد لعبت دوراً محورياً فى قصة حاسب كريم الدين، فقد كانت الشفاء الوحيد للملك فى قصة حاسب كريم الدين، واضطر حاسب لقتلها بعد معروفها الذى غمره ليقدمها دواء للملك، وكانت تلك وصية من ملكة الحيات، وألا يأكل ما يقدم له الوزير مما استخرج منها، ولكن يأكل ما أوصته هى به ويعطى الوزير ما أوصت به أيضاً، فإن الوزير يسود ويموت، وإذا بحاسب يفجر الله فى قلبه ينابيع الحكمة فيرى السموات السبع وما فيها إلى سدرة المنتهى، ويرى كيفية دوران الفلك والنجوم والسيارة والثوابت إلى آخر ما شاء الله أن يفتح له من أبواب العلم" [(٢)].

وصورت لنا الليالى استخدام لحم الحيات فى علاج المرأة العاقر، كما فى حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال، حين وصف سيدنا سليمان للوزير أن يطعم زوجة وزوج الملك من لحم حية قد طبخ طبخا معيناً لتلد لهما ما اشتهيا من ولد، يقول الراوى: "... وإذا وصلت إلى الملك عاصم بن صفوان واجتمعت أنت وإياه فاطلعا فوق الشجرة الفلانية وانظر تجد الثعابين يخرجان رأس أحدهما كرأس القرد... فإذا رأيتماهما فأرمياهما بالنشاب وأقتلاهما ثم أرميا من جهة رأسيهما قدر بشر واحد، ومن جهة ذيلهما كذلك فتبقى لحومهما فاطبخاها وأتقنا طبخها وأطعماها زوجتيكما فإنهما تحملان بإذن الله تعالى بأولاد ذكور..." [(٣)].

ولا يخفى على الليالى ذكر التمائم والأحجبة ودورها فى حفظ البشر من الأمراض ، ففى حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان ، يقول الراوى: "إنه وجد فى بعض الفتوحات كنز من قديم الزمان من عهد الإسكندر فنقل منه أمولاً لا تعد ولا تحصى ومن جملة ما وجد فيه ثلاث خرزات منقوش عليها بالقلم اليونانى أمور من الأسرار ولهن منافع وخواص كثيرة ومن خواصهم أن كل مولود علقت عليه خرزة منهن لم يصبه ألم ما دامت الخرزة معلقة عليه ولا يحم ولا يسخن..." [(٤)].

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١٣٣٩.
(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٣٨.
(٣) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ٨٠٦ ، ٨١٤ .
(٤) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١١٦١.

وقدمت لنا الليالى العديد من الرؤى والأحلام، وكان صاحب الرؤيا يلجأ إلى مفسرى الرؤى والأحلام ، وغالباً ما يكون تفسيرهم صادقاً ففى حكاية الملك جليعان وابنه وردخان والوزير شماس، يقول القاص: "... اتفق أن الملك كان مضجعاً فى ليلة من الليالى وهو مشغول الفكر فى عاقبة أمر مملكته ثم غلب عليه النوم، فرأى فى منامه كأنه يصب الماء فى أصل شجرة وحول تلك الشجرة أشجار كثيرة، وإذا بنار قد خرجت من تلك الشجرة وأحرقت جميع ما كان حولها من الأشجار... وعند ذلك دعا الملك بالمنجمين وجميع المعبرين للأحلام الذين فى مملكته فحضروا جميعاً بين يديه وقص عليهم ذلك المنام وقال لهم أريد منكم أن تخبرونى بصحة تفسيره، فأخبروه بأنه سيولد له ولد ،ولكنه سيكون له عاق..." [١].

وهذا ما أخبرتنا به الليالى ،فقد ولد للملك ولد وسماه وردخان وأصبح هذا الولد ملكاً ولكنه ظلوماً جهولاً.

يقول الراوى: " فابتهج الملك عند ذلك، ثم قام شماس وانصرف... ثم بعد مدة وضعت زوجة الملك غلاماً ذكراً، فنهض له الملك وسماه وردخان... ثم اشتد سكرات الموت بالملك جليعان ومات، وتولى من بعده ابنه وردخان... فسار الغلام فيهم بسيرة أبيه من الحلم والعدل والإحسان مدة يسيرة، ثم تعرضت له الدنيا وجذبته بشهواتها، فاغتنم لذاتها وأقبل على زخارف أمورها وترك ما كان قلده أبوه من المواثيق، وأهمل مملكته ومشي فيه هلاكه واشتد فيه حب النساء، فصار لا يسمع بامرأة حسناء إلا ويرسل إليها ويتزوج بها... ولما أصبح الصباح اجتمع الوزراء وأكابر الدولة ووجهاء الناس وحمل كل منهم سلاحه معه وتوجهوا إلى بيت الملك ليهجموا عليه ويقتلوه ويولوا غيره.... وقد قتل وردخان الوزراء والعلماء والصلحاء، واتبع وردخان البغى والجور والظلم حتى سبق من تقدمه من أهل الشر...." [٢].

وكذلك فى حكاية عجيب وغريب وسهيم الليل، يقول الراوى: "رأى عجيب فى حلمه رؤية أفزعته من منامه، حيث دعا بالمعبرين والمنجمين فقال لهم: فسروا لى هذا المنام، فقالوا له، وما المنام الذى رأيته أيها الملك، فقال رأيت كأن والدى قدامى، وخرج منه شيء قدر النحلة، فكبر حتى صار كالسبع العظيم بمخالب مثل الخناجر فشق بطنى، فانتبهت فزعاً مرعوباً... فنظر المعبرون إلى بعضهم وتفكروا فى رد الجواب وقالوا أيها الملك العظيم هذا المنام يدل على مولود لك من أبيك وتقع العداوة بينك وبينه ويظهر عليك فخذ حذرك منه بسبب هذا المنام[٣].

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١٣٤٢.
(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١٣٤٦، ١٣٧٠ ، ١٣٨١.
(٣) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١٣٤٦ ، ١٣٧٠ ، ١٣٨١.

وكما أشرنا بأن تفسير المنجمين ومعبرى الرؤى تكون صادقة، فكان هلاك مُلك عجيب على يد أخيه غريب ، يقول الراوى "... فقد رد عجيب بهذه الكلمات أمض إلى مولاك وقل له، إن صاحب هذه الخيام اسمه غريب من كندمر صاحب الكوفة الذى قتله ابنه، وقد أتى إلى أخذ الثأر من عجيب الكلب الغدار... ولما سمع عجيب هذا الكلام ظن أنه فى المنام..." [١].

وعلى أية حال، ملئت الليالى بذكر الجن والعفاريت[٢]، ويكن جن سيدنا سليمان خاصة احتلوا مكانة ممتازة، فهذه قصة تخصص للجن المسجونين فى القماقم من عهد سيدنا سليمان نجد فيها هذا الاعتقاد رواه المفسرون فى آخر تفسيرهم للآيات الخاصة بهذا الجسد الذى ألقى على كرسى سيدنا سليمان، وانتقم سيدنا سليمان من هذا الشيطان الذى حكم مكانه أربعين يوماً بأن سجنه فى قمقم ورماه فى البحر، والقصة الخاصة بهؤلاء الجن تمثل لنا الصور المختلفة المتكررة فى الليالى التى دارت حول هذه القماقم فمن الدخان العظيم الذى يخرج منها إلى مناداة الجن "التوبة يا نبى الله" أو "سليمان نبى الله" كما فى قصة الصياد مع العفريت[٣].

كما يشير المستشرق الانجليزى إدوارد وليم لين[٤]، أن الجن يتخذون أشكالاً مختلفة كالثعابين أو العقارب أو الأسود أو الذئاب أو غير ذلك، وينقسم الجن إلى ثلاثة أنواع، نوع يسكن الأرض ونوع يسكن البحر ونوع يسكن الهواء، ويظهر خيار الجن فى صورة بشرية جميلة بينما يظهر أشرار الجن فى صورة بشرية مخيفة، وهناك قسم للجن المؤمن وآخر للجن الشرير، وهو ما أشارت إليه الليالى فى قصة الوزير نور الدين وأخيه، يقول الراوى: "وكانت المقبرة عامرة بالجان المؤمنين فخرجت جنية ورأت الحسن البصرى نائماً وتعجبت من حسنه وجماله وقالت: سبحان الله ما هذا الشاب الا من ولدان الجنة، ثم طارت فى الجو تطوف كعادتها فرأت عفريتاً طائر فسلم عليها فقالت له، من أين أنت قادم، فقال من هنا...." [٥]، أما الجن الشريرة فقليل الظهور فى الليالى مثل قصة التاجر مع العفاريت، يقول الراوى: "... وإذا بذلك الجنى وبيده سيف مسلول وعيونه

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ٩٤٢

(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ٩٦٢ .

(٣) تقول الدكتورة سهير القلماوى: لست أظن أن القاص فى الليالى كان من الدقة بحيث فصل الجن عن العفاريت فيما عبر عنهم من ألفاظ، فقد استعار هذه لتلك دون دقة فى التمييز ففى قصة الوزير بدر الدين وشمس الدين يسمى جنية وعفريتاً... ولكن القاص يعود فينسى ويسمى الجنية عفريتاً.. للمزيد انظر سهير القلماوى، ألف ليلة وليلة ، ص ٢١٥.

(٤) سهير القلماوى، ألف ليله وليلة، ص ٢٠٩.

(٥) ادوارد وليم لين، المجتمع العربى فى العصور الوسطى، ترجمة على حسنى الخربوطلى، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ، ص ٣٧ ، ٣٨.

ترمي بالشرور، فأتاهم وجذب ذلك التاجر من بينهم وقال له قم أقتلك مثل ما قتلت ولدى حشاشة كبدى..."[١].

ومن الجدير بالذكر، فقد كان هناك اعتقاد سائد، وهو أن الزوبعة التى تثير الغبار أو الرمل وتكتسح الحقول والصحارى يكون قد أثارها بعض أشرار الجن[٢].وهو ما اكدته الليالي كما في ، حكاية التاجر مع العفريت ،يقول الراوى :"... وبينما هم كذلك إذا بغبرة هاجت وزوبعة عظيمة أقبلت من وسط تلك البرية، فانكشفت الغبرة، وإذا بذلك الجنى..." [٣].

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة وهى أن الجان فى الحكايات لا يكون عدواً" فى كل حين بل يكون خادماً مساعداً للبطل فى الحكاية فى أحيان أخرى، ففى حكاية حاسب كريم الدين، نرى الجن تساعد الملوك فى محاربة أعدائهم يقول الراوى "... ولما رأت السيدة شمسة أبا زوجها فى حال ضيق أمرت الأعوان أن يضربوا العسكر الذين حاصروهم ضرباً شديداً ويقتلوهم وقالت للأعوان لا تبقوا منهم أحداً، ثم إن جانشاه أومأ إلى عون من الأعوان شديد الناس اسمه قراطش وأمران يجيء بالملك كغيدا مقيداً..." [٤].

أو ربما تم تسخير الجان ليحمل البطل إلى مسافات بعيدة أو بلاد لا يستطيع أن يصل إليها إنس ففى حكاية حاسب كريم الدين فى السفرة السابعة، يقول الراوى: "... فسمح بأخذى معه، ولكنه شرط ألا اذكر الله ولا أسبحه على ظهره، ثم حملنى وطار بى... حتى أوصلنى إلى منزلى.." [٥].

وعلاوة على ما تقدم فإن الليالى تحاول أن تظهر العلاقة الحسية بين البشر والجن فيكثر الزواج بين النوعين، ويكون هذا الزواج على غرار الزواج بين النوعين، ويكون هذا الزواج على غرار الزواج البشرى المعروف بالتراضى والتوفيق، أو يتم بالقسر والخطف، ففى حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال، نرى حدوث زواج بين سيف الملوك الانسى من بديعة الجمال وهى من الجان فيقول الراوى: "... ولما خلصوا من كتب الكتاب نثروا الذهب والفضة وأمر أن يزينوا المدينة، ثم أقاموا الفرح ولم يزل سيف الملوك مع بديعة الجمال أربعين يوماً..." [٦].

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٩٧.
(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٢٣
(٣) ولكي يتخلص المرء من الجن عليه أن يصبح "حديد... حديد" أو "حديد يا مشئوم" كما يعتقد بأن صياح الله أكبر يؤدى إلى هلاك الجن، وليم لين، المصريون المحدثون ، ص ١٩٧.
(٤) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٢٣.
(٥) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ٨٠٦ .
(٦) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ٨٥٧.

ومن جهة ثانية تشير الليالى أن الجن يقومون بخطف النساء الجميلات كما فى حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال، فقام ابن الملك الأزرق ملك الجان بخطف بنت ملك الهند وتزوجها، يقول الراوى :" أنا ابن الملك الأزرق ملك الجان وأبى ساكن فى قلعة القلزم وتحت يده ستمائه الف من الجن الطيارة والغواصين، واتفق لى أنى كنت عابراً فى طريقي متوجهاً إلى حال سبيلى فرأيتك ونزلت عليك وخطفتك من بين يدى الجوارى وتزوجتك..." [١].

ولا يقتصر الأمر على ذلك، لكن نرى فى الليالى تنافس بين الجن وبعضهم البعض على الأنس، كما فى حكاية "الملكة بدور ابنة الملك الغيور" وتفاصيل هذه الحكاية تدور على مدى إعجاب الجن للإنس وتمنى الزواج منهم، فهذه العفريتة ميمونة تحاول اقناع العفريت دهنش بأن الأمير قمر الزمان أجمل ما فى الديار وهو الآخر دهنش يحاول اقناع ميمونة بان الأميرة بدور أجمل، وهنا يتوصلان للاتفاق على وجود محكم بينهما وهو العفريت قشقش، فيقول الراوى: "... قالت العفريتة ميمونه للعفريت دهنش لا يوجد لمعشوقى مثيل فى هذه الديار فهل أنت مجنون حتى تقيس معشوقتك بمعشوقى فقال لها بالله عليك يا سيدتى أن تذهبى معى وتنظرى معشوقتى.. وقالت ميمونه "انظر يا ملعون ولا تكن أقبح مجنون فنحن بنات وبه مفتونات.. ثم إنهما لم يزال يعارضان بعضهما فى الكلام حتى صرخت ميمونة على دهنش وأرادت أن تبطش به... وهنا طلبت ميمونة حكم العفريت قشقش، أنى أريد أن تحكم بينى وبين هذا الملعون دهنش..." [٢].

وثمة أمر آخر مهم تذكره الليالى وهو موضوع السحر، وأكثر ما يستخدم هذا الفن فى الليالى فى تغيير حال الإنسان من آدمى إلى حيوان غالباً وإلى جماد قليلاً، وأعجب الراوى بهذا النوع من السحر فكان موضوع قصص كثيرة كهذا الذى نجده من قصص الشيوخ الثلاثة فى قصة التاجر والعفريت فكل هؤلاء أن الجزء المهم فى قصتهم أنهم سحروا إلى حيوان أو كانت الحيوانات التى معهم آدميين مسحورين، يقول الراوى:" ... أيها التاجر إن لى بنتا كانت تعلمت السحر فى صغرها من امرأه عجوز كانت عندنا فلما كنا بالأمس وأعطيتنى العجل ودخلت به عليها، فنظرت إليه بنتى وغطت وجهها وبكت ثم أنها ضحكت، وقالت... إن هذا العجل الذى معك هو ابن سيدى التاجر ولكنه مسحور... ثم أنى أيها الجنى زوجته ابنه الراعى ثم أنها سحرت ابنة عمى هذه الغزالة..." [٣].

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١١٩٤ .

(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١١٨٦.

(٣) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ .

وهنا تجدر الاشارة ، أن السحر فى الليالى قلما يقوم به الرجال وكثير ما يتكرر بأن النسوة هن اللاتي يقمن بالسحر من أجل تيسير وصولها الى عشيقها فهى تسحر زوجها كما فى قصة "المدينة المسحورة" يقول الراوى: "... جعل الله بسحرى نصفك حجراً ونصفك الآخر بشراً، فلما صرت هكذا سحرت المدينة وما فيها من الأسواق والغيطان..." [١].

كما أن الليالى تشير إلى استخدام النساء للسحر والتعاويذ من أجل فك المسحور، ففى حكاية "الحاسد والمحسود" تقوم الأميرة بنت الملك بفك السحر يقول الراوى: "أخذت طاسة الماء وتكلمت بكلام لا نفهمه ثم رشت الرجل بالماء، وقالت أخلص بحق الروح، وبحق اسم الله الأعظم ارجع إلى صورتك الأولى..." [٢] وأيضاً فى حكاية المدينة المسحورة يقول الراوى: "ثم إن المرأة قالت وخرجت من القبة إلى القصر وأخذت الطاسة وملأتها بالماء، ثم تكلمت عليها فصار الماء يغلى كما يغلى القدر ثم رشته وقالت بحق ما تلونه أن تخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى.." [٣].

ومن جهة ثانية، ذكرت الليالى قيام الرجال بالسحر وإن بدا قليلاً، ففى حكاية حاسب كريم الدين قام الوزير شمهور بإطلاق البخور واستعمال التعاويذ للسيطرة على ملكة الحيات، يقول الراوى: "ثم تقدم الوزير وجلس وأطلق البخور وأقسم وتلا العزائم ونفث وهمهم، ولما فرغ من عزيمته الأولى قرأ عزيمة ثانية وعزيمة ثالثة وكلما فرغ البخور وضع غيره على النار ثم قال اخرجى يا ملكة الحيات..." [٤].

وإذا ما انتقلنا إلى دور الأولياء من الصوفية وعن خوارقهم وكراماتهم فإننا نراها قليلة فى الليالى. كذلك الاستعانة بالنذور والصدقات وبركة الصالحين فالسبيل إلى ما يطلبون واضحة، وهى الدعاء والصبر حتى يمن الله بالفرج أو بتحقيق الغاية، أما أثر الصالحين ففى أن يدعوا وتستجاب دعواتهم وفى أن يتقرب منهم أحياء ويزارو أمواتاً لمجرد التبرك ليس غير، ولم يذكر من الأولياء سوى سيدى عبد القادر الجيلانى والسيدة نفيسة وذلك فى حكاية علاء الدين أبى الشامات وعن مولد سيدى عبد القادر الجيلانى يقول الراوى: "توجه بالبغال والغلمان وعملوا فى تلك الليلة ختمة ومولد الشيخ عبد القادر الجيلانى... يا بركتك يا سيدتى نفيسة هذا وقتك..."[٥].

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٢٥ .
(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٤٥.
(٣) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٦٨ .
(٤) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٤٦ .
(٥) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ٨١٤ .

وتبرز الليالى المميزات الخارقة للأولياء، فيقال إنهم قد سخر لأحدهم بأن تسير معه سحابة وتسكب عليه ماء منهمراً، فى أى مكان يذهب ، كما فى قصة الرجل العابد"... حكى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل من العباد المشهورين بالعبادة الموصوفين بالزهادة، وكان إذا دعا ربه أجابه وإذا سأله أعطاه، وكان سياحاً فى الجبال... وكان الله سبحانه وتعالى قد سخر له سحابة تسير معه حيث يسير وتسكب عليه ماء منهمراً فيتوضأ منها ويشرب..." [١]. ولم تقتصر الكرامات على ذلك ،بيد أن الليالى تشير إلى انتقال الأولياء إلى أماكن بعيدة فى لمح البصر، وأنهم يحصلون على حاجتهم من الطعام فى الأماكن المهجورة، وكل هذه المميزات قد توصلوا إليها بتدينهم و تقربهم من الله، ففى قصة أبى الحسن الدراج مع ابى جعفر المجذوم يقول الراوى: " كنت كثيراً ما أتى مكة، وكان الناس يتبعونى لمعرفتى بالطريق وحفظ المناهل، وفى أحدى لأعوام رأيت رجلاً مجذوماً قاعداً فى المحراب ، فلما رآنى قال يا أبا الحسن أسألك الصحبة إلى مكة فقلت فى نفسى، أنى فررت من الأصحاب، وكيف أصحب المجذومين ثم قلت له إنى لا اصطحب أحداً... ولما وصلت العقبة دخلت المسجد فوجدت الرجل المجذوم فى المحراب، فقلت سبحان الله كيف سبقنى إلى هنا... وعندما وصلت إلى عرفات وجدته قد سبقنى... فسألت عنه فقالوا: إنه أبو جعفر المجذوم بحرمته تستقى الأنواء وببركته يستجاب الدعاء...." [٢].

ولم يكن عجيباً أن تتردد أخبار النسوة المتصوفات فى الليالى كما فى حكاية أحمد الدنف وحسن شومان مع زينب النصابة وأمها ،يقول الراوى: "... فرأت الصبية هذه العجوز وهى لابسة من الثياب البيض وما يشبه قبة من نور متهيئة بهيئة الصوفية وهى تقول: "احضروا يا أولياء الله..." [٣].

ويذكر الخيال الشعبى الكرامات للأولياء متمثلة فى "ذات الدواهى" ومن كراماتها أنها تستطيع التخفى بعيداً عن أعين الأعداء كما أنها تنتقل من مكان لآخر فى لمح البصر، ومن شدة الاعتقاد فى ذات الدواهى أن يتم اقتصار أى نصر لهذا العابد الذى يدعوا لهم طيلة الوقت، ويطوف الخيال الشعبى بأن هذا العابد "ذات الدواهي" يشفى المريض ويقول الراوى: "... وقال الوزير دندان والله إن هذه كرامة من الزاهد ولاشك أنه من الخواص، فقال ضوء المكان والله ما أظن الكفار إلا عمياناً؛ لأننا نراهم وهم لا يرونا..." [٤].

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٥٠٦ ، ٥٠٨ .
(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٧٣٩ .
(٣) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ٧٥١.
(٤) ألف ليله وليلة، المجلد الثانى، ص ١٠٥٢ .

ويذهب الخيال الشعبى إلى اعتقاد ضوء المكان ودندان أن سبب أسرهما فى يدى الاعداء، ربما أنه أخطأوا فى حق ذلك الرجل العابد "ذات الدواهى" يقول الراوى: ".... فبينما هما فى الثناء على الزاهد وتعدد كراماته وزهده وعبادته، وإذا بالكفار قد هجموا عليهما واحتاطوا بهما وقبضوا عليهما... فصار يتأسفان ويتولان لبعضهما أن الاعتراض على الصالحين يؤدى إلى أكثر من ذلك وجزاؤنا ما حل بنا...." [1].

ويطوف الخيال الشعبى بعيداً ليجعل شفاء شركان على يد ذلك العابد "ذات الدواهى" يقول الراوى:"... وسهروا عنده تلك الليلة وفى آخر الليل أقبل عليهم الزاهد وهو يبكى، فلما رآه ضوء المكان قام إليه، فلمس بيده على أخيه وتلى شيئاً من القرآن، ... فعند ذلك استفاق شركان وفتح عينيه وأدار لسانه فى فمه وتكلم، ففرح السلطان ضوء المكان وقال: قد حصلت له بركة الزاهد... إننا كلنا فى بركة هذا الزاهد وما انتصرنا إلا بدعائه المستجاب، فإنه لم يزل قاعدا يدعو للمسلمين بالنصر..." [2].

---

(١) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٢٩٦ .

(٢) ألف ليله وليلة، المجلد الأول، ص ٢٩٦.

الخاتمــة

بعد أن انتهينا من دراسة موضوع الخرافة والشعوذة في المجتمع المصري ،من جوانب عدة يحق لنا رصد أهم نتائج الدراسة:

اوضحت الدراسة الفرق بين الخرافة والشعوذة من ناحية والاسطورة من ناحية اخري، فقد كان شائعاً بين الباحثين ان تلك المصطلحات تحمل نفس المعني ،لكننا وضحنا الفرق بينهم، فالخرافة والشعوذة هي الافكار التي تحرك الناس يومياً وتختص بحدث يومي من أحداث الحياة ،بينما الاسطورة تختص بالظواهر الكونية وما وراءها.

وضح جلياً من استقراء النصوص أن الناس في المجتمع المصري في العصر المملوكي قد اعتبروا أن الطبقة الحاكمة هي القدوة وينبغي تقليدها في كل امورها وعاداتها، فنقلوا عنهم عاداتهم وأخذوا عنهم الكثير من سلوكياتهم الخرافية ،واتضح ذلك في إيمان الناس بما يقوله الصوفية نتيجة ثقة المماليك في هؤلاء الصوفية ،فقد توثقت العلاقة بين السلاطين والامراء بمريديهم من الشيوخ وبطرقهم وحظي بعضهم بالقرب من السلاطين ودعوهم إلي اجتماعاتهم للمشورة واستطلاع الامور والتماس البركة, وقد ذكرت المصادر عدد من السلاطين الملهمين بهؤلاء الاولياء نذكر علي سبيل المثال لا الحصر الظاهر بيبرس ـ بيبرس الجاشنكير ـ السلطان لاجين ـ السلطان برقوق... وغيرهم ،وكان لاعتقاد السلاطين والامراء في الاولياء ان شجع المصريين عل الاعتقاد فيهم واللجوء اليهم ومساعدتهم في قضاء حوائجهم.

اوضحت الدراسة كيف تحولت الصوفية من صوفية معتدلة إلي صوفية يشوبها الخرافة وتسيطر عليها الشعوذة، وهو ما أثر بطبيعة الحال علي الناس في المجتمع المملوكي ،فأصبحت الحياة مليئة بالمفاسد والرزائل الخلقية وظهر ذلك جليا في الشطر الثاني من العصر المملوكي ،فقد تطرف الصوفية المجاذيب الدراويش،واتوا افعالا شاذة وغريبة ذاعمين أنها من الدين من بين تلك الافعال ان يحلق راسه ولحيته وحاجبيه ،ويبتلع اشياء غريبة مثل الحيات والاسياخ الحديدية ، فكان كل ذلك في عيون الناس شيئ يدعوا للإنبهار والاعجاب بما يفعلونه مما أدي بالكثير إلي اتباعهم، لكن في المقابل سرعان ما يتصدي لهم عالم واع ومصلح ومرشد ،واستطاع ان يذيح لنا ستائر

اسرار المحتالين، ويحذر الناس منهم ومن افعالهم الشريرة ،ومثل هذا الاتجاه ابن تيمية وغيره من العلماء، وهكذا لم يكن الصوفية وحدهم علي أرض الواقع بل وجد فريق يقف ضد افكارهم بالمرصاد.

أظهرت الدراسة أن عدد شيوخ المعتقد قد زاد عددهم خاصة في العصر المملوكي الثاني ، وأن معظمهم قد أتي من بلاد المغرب العربي ، وقد اصبح لهم باع كبير في مصر.

أتضح لنا أن عادات وتقاليد أهل الذمة تشبه عادات وتقاليد المسلمين ،وأنهم يتناقلون خرافات بعضهم البعض بينما يمقتون العقائد الأصلية.

أوضحت الدراسة أن عقلية الناس في المجتمع المصري تستريح وتميل إلي الاعتقاد في الاولياء وكراماتهم اعتقادا متأصلا وراسخاً في فكرهم منذ أزمان سحيقة ،كما أن هذا لايزال جاريا إلي الآن.

أوضحت الدراسة ،انه نتيجة لوقوع الأزمات والمصائب والكوارث وأزدياد الفقر والمرض والجهل ،لجأ الناس إلي القوي الخفية ومالوا إلي الغيبيات والطلاسم والسحر والتنجيم... وغيرها من الخرافات والشعوذة، وصدقوا ما يعرض عليهم من أردية الباطل المتلبس بمظاهر الحق، ولجأوا إلي عالم الواقع المبطن بالخداع والزيف؛لكي تنقذهم من المحن وتزيل آلمهم وتخفف عن كواهلهم ما تحمله من أثقال الحياة.

أظهرت الدراسة أن الروئ والاحلام التي وجدت في العصر المملوكي سواء كانت كاذبة أم صادقة قد تم توظيفها علي نطاق واسع واستطاع معبري الرؤيا أن يستفيدوا منها اعظم استفادة.

بينت الدراسة زيف وإدعاء الصوفية للكرامات ،وأن هذه الكرامات كانت مجرد لعبة زائفة يتم من خلالها التأثير علي مشاعر الناس، كما أن هذه الكرامات لم تقتصر علي المسلمين وحدهم بل شاركهم أهل الذمة في هذه المزاعم.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات

١- أبو الخير عصام الدين، رسالة الشفا لدواء الوباء، دار الكتب ، ٩٠٠ طب، ميكروفيلم ٣١٢١٢.

٢- الشرنوبي، ت ٩٥٠ هـ، طبقات الشرنوبي، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢١٨٤٦

٣- ابن محسن أبو الصلاح علي الصعيدي الشاذلي تعطير الانفاس بمناقب أبي الحسن وابي العباس ، مخطوط بالدار رقم ٣٥٧ تاريخ تيمور.

٤- ابن يحيي عبد الصمد الصالح ق ٩ هـ، هدية العبد القاصر إلي الملك الناصر أبي السعادات محمد بن قايتباي دار الكتب ، ٢٦٠٢ تاريخ ميكروفيلم ٣٥٩٩٤.

٥- ابن يحيي أحمد بن محمد بني يحي ت ٣٦٠ هـ كتاب تدبير الحبالي والأطفال والصبيان، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٨٣٤ طب

ثانيا: المصادر

٢- القرآن الكريم.

٣- ابن أبى الفضائل، مفضل ابن ابى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه باريس ١٩١٩م.

٤- ابن أجا، محمد بن محمود الحلبى ت ٨٨١هـ ، تاريخ الأمير يشبك الظاهرى، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٣م.

٥- ــ العراك بين المماليك والعثمانيين، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط١، دار الفكر دمشق ١٩٨٦م.

٦- ابن الأخوة ت ٧٢٩هـ ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ن تحقيق محمد محمود شعبان، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٧٦م.

٧- الإدريسى، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله إدريس ت ٥٦٠هـ ، نزهة المشتاق فى أختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة د- ت.

٨- الأدفوى، أبو الفضل جعفر بن ثعلب ت ٧٤٨هـ الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ٢٠٠٠م.

٩- ابن الأزرق، أبى عبد الله ت ٨٩٦هـ بدائع السلك فى طبائع الملك، مكتبة الأسرة القاهرة، ٢٠٠٧م.

١٠-ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد، ت ٩٣٠هـ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية؛ القاهرة، ٢٠٠٨م.

١٠- ـ جواهر السلوك فى أمر الخلفاء والملوك تحقيق محمد زينهم، ط١، الدار الثقافية للنشر- القاهرة ، ٢٠٠٦م.

١١- ـ نزهة الأمم فى العجائب والحكم ، تحقيق محمد زينهم، مكتبة مدبولى القاهرة، ١٩٩٥م.

١٢- ـ نشق الأزهار فى عجائب الأقطار، , Frankfort 1992

١٣- ابن أيبك، أبو بكر عبد الله بن أيبك ت ٧٠٩هـ، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المسمى "الدرة الزكية فى الدولة التركية "تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م؛ الجزء التاسع المسمى "الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر" تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ، ١٩٦٠م.

١٤- البرهانى، طبقات الشرنوبى، المطبعة الشرفيةالقاهرة ١٣٠٥هـ.

١٥- ابن بسام، محمد بن أحمد ت فى النصف الثانى من ق٨ هـ ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق حسان الدين السامرائى بغداد ١٩٦٩م.

١٦- البونى، شمس المعارف ولطائف العوارف، مطبعة المعارف العلمية القاهرة د.ت.

١٧- البقاعى، إبراهيم بن عمر البقاعى ت ٨٨٥هـ إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفى، ط١الرياض ١٩٩٢م.

١٨- ـ عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران، تحقيق حسن حبشى،دار الكتبالقاهرة٢٠٠١م.

١٩- البكرى، التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠٠٥م.

٢٠- بيبرس الدوادار، نائب السلطنة فى مصر - ت ٧٢٥هـ زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد.س ريتشارد. ز، ط١، نشر جمعية المستشرقين الألمانية بيروت ١٩٩٨م.

٢١- ـ مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط١ ،الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ١٩٩٣م.

٢٢- ابن تغرى بردى، أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، ج١ تحقيق فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠م، ج٢،ج٣ تحقيق، وليم بوبر، ١٩٤٢، ١٩٣١.

٢٣- ـ الدليل الشافى على المنهل الصافى، تحقيق فهيم شلتوت، ط٢، دار الكتبالقاهرة١٩٩٨م.

٢٤- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ٢٠١١م.

٢٥- مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة، تحقيق محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٦- النجوم الزاهره فى ملوك مصر. والقاهرة، الأجزاء من ١-١٢ تحقيق القسم الأدبى بدار الكتب، ج١٣ تحقيق فهيم شلتوت القاهرة ١٩٧٠م. ج١٤ تحقيق فهيم شلتوت وجمال محرز القاهرة، ١٩٧١م. ج١٥ تحقيق إبراهيم طرخان، القاهرة ١٩٧١ م.ج١٦ تحقيق جمال الشيال وفهيم شلتوت القاهرة، ١٩٧٢م.

٢٧- ابن تيمية ت ٧٢٨هـ الحسبة فى الاسلام، المطبعة السلفية القاهرة ١٩٩٠م.

٢٨- التلمسانى، سكردان السلطان ، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الخانجى القاهرة الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٢٩- الجزيرى عبد القادر بن محمد بن القادر ت ٩٤٤هـ، الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، نشر حمد الجاسر، ط١ الرياض، ١٤٠٣هـ.

٣٠- ابن الجيعان، يحيى بن القمر ابن الجيعان معاصر للسلطان قايتباى، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشر موريز بولاق، ١٨٩٨م.

٣١- ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن ت٧٧٩هـ تذكرة النبية فى أيام المنصور وبنية، تحقيق محمد محمد أمين الهيئة العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٨٢م.

٣٢- ـ ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك، تحقيق محمد محمد أمين، الدار الكتب القاهرة ٢٠١٤م.

٣٣- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن على بن محمد، ت٨٥٢هـ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة نشر، سالم الكرنكوى، دار الجيل بيروت، ١٩٩٣م.

٣٤- ـ ، بذل الماعون فى فضل الطاعون، أحمد عصام عبد القادر الكاتب، ط١ دار العاصمة الرياض ١٩٨٦م.

٣٥- ـ ،إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة، ٢٠٠٩م.

٣٦- ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى تبويب وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقى، دار المعرفة بيروت د.ت.

٣٧- ابن حجى، أبو العباس أحمد بن حجى السعدى ت٨١٦هـ تاريخ ابن حجى، تحقيق أبو يحيى عبد الله الكندى، ط١، دار بن حزم بيروت ٢٠٠٣م.

٣٨-الحموى، ياقوت، شهاب الدين بن أبى عبد الله ت ٦٢٦هـ، معجم البلدان، ط١ ، دار صادر بيروت، ١٩٥٥م.

٣٩- ابن الحمصى، أحمد بن محمد بن عمر الانصارى ت٩٤هـ حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض، ط١، دار النفائس بيروت ٢٠٠٠م.

٤٠- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ المقدمة، مكتبة الأسرة بيروت ٢٠٠٦م.

٤١- ـ ،التعريف بابن خلدون، ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر القاهرة ٢٠٠٦م.

٤٢- ـ ،العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيم العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٤٣- ابن خليل، عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهرت ٩٢٠هت نيل الأمل فى ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط١، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٢م.

٤٤- ابن دانيال، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، نشر إبراهيم حمادة، قصور الثقافة القاهرة ١٩٦٣م.

٤٥- ابن دقماق، إبراهيم ابن محمد ايدمر العلائى ت ٨٠٨هـ ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار فى تاريخ مصر وجغرافيتها، طبعة مصورة عن طبعة بولاق القاهرة ١٨٩٣م.

٤٦- ـ ،الجوهر الثمين تحقيق محمد كمال عز الدين بيروت ١٩٨٥.

٤٧- الدلجى، الفلاكة والمفلوكون، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ، ٢٠٠٣م.

٤٨- ابن الزيات، فى القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٠٧م

٤٩- ابن الزيات، الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية بمصر القاهرة، ١٩٠٧م

٥٠- ابن زنبل، أحمد ابن زنبل الرمالت ٩٦٠هـ واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة للكتاب،أدب الحرب، القاهرة ، ١٩٩٧م.

٥١- الزهرى، محمد بن أبو بكر الزهرى ت ق٦هـ ، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة د.ت.

٥٢- السبكى، تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على عمر النجار وغيره، ط٣ ، مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٩٦م.

٥٣- ساويرس ابن المقفع، تاريخ البطاركة ، تحقيق عبد العزيز جمال الدين ، قصور الثقافة القاهرة ٢٠١٢م.

٥٤- ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر ت بعد ٩٢٦هـ صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، ط١ ، جروس- بروس بيروت ١٩٩٣م.

٥٥- السحماوى، شمس الدين محمد ت ٨٦٨هـ الثغر الباسم فى صناعة الكاتب والكاتم: المعروف بالمقصد الرفيع للخالدى، تحقيق أشرف محمد أنس، ط١، دار الكتب القاهرة ٢٠١٣م.

٥٦- الاسحاقى المنوفى، أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، الهيئة العام لقصور الثقافة القاهرة ، ١٩٩٨م.

٥٧- السخاوى، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن بكر ت ٩٠٢هـ ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم ونجوى مصطفى، دار الكتب والوثائق، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٥٨- ــ الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر، تحقيق حامد عبد المجيد وغيره، مطابع الأهرام، القاهرة ١٩٩٦م.

٥٩- ــ ،الذيل على رفع الإصر، تحقيق جودة هلال ومحمد صبح، الهيئة العامة للكتاب القاهرة، ٢٠٠٠م.

٦٠- ــ ،الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٦١- ـ ،وجيز الكلام فى الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٥م.

٦٢- ـ تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثانية، ١٣٠٨هـ.

٦٣- السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت٩٠٢ه،حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٨م.

٦٤- ـ ،كوكب الروضة فى تاريخ النيل وجزيرة الروضة، تحقيق محمد الششتاوى، ط٢، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٦٥- ابن سودون البشبغاوى ت ٨٦٨هـ ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبد المجيد القاهرة ٢٠٠٣م.

٦٦- السلمى، طبقات الصوفية، مطابع الشعب القاهرة ١٣٨٠هـ

٦٧-سيرة الظاهر بيبرس، هيئة الكتاب القاهرة ٢٠٠٢م.

٦٨- شافع بن على بن عباس ت ٧٣٠هـ حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط٢ الرياض ١٩٨٩م.

٦٩- شافع بن على بن عباس ، الفضل المأثور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام ترمرى، المكتبة العصرية بيروت ١٩٩٨.

٧٠- ابن شاهين، غرس الدين خليل، ت٨٧٢هـ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس راويش، باريس، ١٨٩٣م.

٧١- ابن الشاطر الدمشقى، النفع العام فى العمل بالربع التام، تحقيق أسامة فتحى إمام، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ، ٢٠١٥م.

٧٢- الشجاعى، شمس الدين، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن ١٩٧٨م.

٧٣- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد ت ٨٩٠هـ البدر الزاهر فى نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباى ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٣م.

٧٤- ابن الشحنة، محب الدين أبو الوليد محمد ت ٨١٥هـ روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد مهنى، ط١، دار الكتب العلمية بيروت د.ت.

٧٥- ابن شداد، محمد بن على بن إبراهيم ت ٦٨٤هـ، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر القاهرة، ٢٠٠٩م.

٧٦- شرف الدين المدنى ت ٩١٠هـ تقريباً مواهب اللطيف فى فضل المقام الشريف فى مناقب السلطان قنصوه الغورى ، تحقيق مديحة الشرقاوى، ط١ مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ٢٠٠١م.

٧٧- الشعرانى، عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى ت ٩٧٣هـ الطبقات، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، توفيق على وهبه، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

٧٨- ـــ ، اليواقيت والجواهر، المطبعة الأزهرية، الطبعة الثانية ١٣٠٨م.

٧٩- ـــ ، إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء إلى شروط صحبة الأمراء، تحقيق محمد صبرى الدالى، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٤م.

٨٠- ـــ ، لطائف المنن والاخلاق فى وجوب التحدث بنعمة الله على الاطلاق، عالم الفكر القاهرة.

٨١- ـــ ، الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية، تحقيق طه عبد الباقى سرور، السيد الشافعى، مكتبة المعارف بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٨.

٨٢- الشيزرى ت ٥٨٩هـ نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العرينىالقاهرة١٩٤٦.

٨٣- شيخ الربوة، شمس الدين محمد أبى عبد الله محمد الانصارى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، الاكاديمية الامبراطورية بطربورغ ١٨٦٥م.

٨٤- ابن صصرى، محمد بن محمد ت ٧٩٩هـ الدرة المضية فى الدولة الظاهرية، تحقيق وليم. م برنير كالفورنيا ١٩٦٣م.

٨٥- الصفدى، الوافى بالوفيات ، ط٢ ، دار صادر بيروت ١٩٦٢م.

٨٦- أبو الصلت، الرسالة المصرية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ضمن نوادر المخطوطات الطبيعة الثانية ١٩٨٢م.

٨٧- ابن الصيرفى على بن داود الجوهرى ت ٩٠٠هـ إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشى، هيئة الكتاب القاهرة ٢٠٠٠م.

٨٨- عبد الصمد، الجواهر السنية والكرامات الأحمدية، سلسلة الألف كتاب القاهرة ١٢٨٧هـ.

٨٩- ابن طاووس، الأمان من أخطار الاسفار والازمات ، تحقيق مؤسسة آل البيت لأحياء التراث إيران الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٩٠- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الحنفي ت ٩٢٣هـ ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور بيروت ١٩٩٨م.

٩١- ابن طولون، أعلام الورى بمن ولى من الاتراك بدمشق والشام الكبرى، تحقيق أحمد محمد دهمان، ط٢ ، دار الفكر العربى دمشق ١٩٨٤م.

٩٢- أبو بكر الطرطوشي، الحوداث والبدع، تحقيق عبد المجيد تركى، دار الغرب الاسلامى بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٩٣- ابن طولون، الحسن بن حسين بن أحمد ت ٩٢٣هـ النزهة السنية فى أخبار الخلفاء والملوك بالديار المصرية، تحقيق محمد كمال عز الدين ط١، عالم الكتب بيروت ١٩٨٨م.

٩٥- ابن ظهيره غير معروف بالتحديد، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، ومحمد كامل المهندس، ط٢، دار الكتب والوثائق القاهرة، ٢٠٠٩م.

٩٦- ابن عبد الظاهر، محيى الدين ت ٦٩٢هـ، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون، تحقيق مراد كامل، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد القاهرة، ١٩٦١م.

٩٧- ــ ،الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط١ الرياض ١٩٧٦م.

٩٨- ــ ، الروض الباهية الزاهرة فى سيرة المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط١ ، الدار العربية للكتاب القاهرة ١٩٩٦م.

٩٩- عبد الله الشرقاوى، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق وتعليق رحاب عبد الحميد القارى، مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٩٦م.

١٠٠-ابن عربى، الفتوحات المكية ، تحقيق عثمان يحيى ، إبراهيم مدكور الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢م.

١٠١- العمرى، شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير الدروبى، منشورات جامعة مؤتة الأردن، ١٩٩٢م.

١٠٢- ـــ ،مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، أشرف على تحقيقها كامل سلمان الجبورى، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١٠م.

١٠٣- ابن العماد، عبد الحى بن أحمد بن محمد العكرى الدمشقى ت ١٠٨٩هـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير بيروت ١٩٨٨م.

١٠٤-ابن عطاء السكندرى ، لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن ومكتبة القاهرة القاهرة ١٩٩٥م.

١٠٥- ابن العماد الأقفهسى، أخبار نيل مصر، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى، نعمان عباس، دار الكتب القاهرة ٢٠١٤م.

١٠٦- العينى بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٠٧- ـــ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق هانس ارسنت، دار أحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٦٢م.

١٠٨ـــ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، حوادث من ٦٤٨-٧٠٧هـ تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق، القاهرة ٢٠١٠م؛ حوادث ٧٨٤-٨٠١هـ تحقيق إيمان عمر ضمن كتاب السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ط١ ، مكتبة مدبولى القاهرة ٢٠٠٢م.

١٠٩- حوادث من ٨١٥- ٨٢٤هـ ، حوادث من ٨٢٤- ٨٥٠هـ، تحقيق عبد الرازق القرموط ، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة ١٩٨٩م.

١١٠- ابن عفان موفق الدين محمد ت ٦١٥ ، مرشد الزوار إلى قبور الابرار المسمى الدر المنظم فى زيارة الجبل المقطم، تحقيق محمد فتحى أبو بكر، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٩٩٥م.

١١٢- فضل الله الصقاعى، تالى كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكلين سويلة المعهد الفرنسى للدراسات العربية دمشق ١٩٧٤م.

١١٣- أبو الفتح الصوفى، الصفوة فى وصف المملكة المصرية، تحقيق هبة محمد ياسين، جامعة النجاح فلسطين ، ٢٠١٤م.

١١٤- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢هـ، المختصر فى أخبار البشر تحقيق محمد زينهم غرب، ويحيى سيد حسين، دار المعارف القاهرة ١٩٩٩م.

١١٥- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على المصرى ت ٨٠٧هـ، تاريخ ابن الفرات، الأجزاء ٧ - ٨ - ٩ ، تحقيق قسطنطين رزيق وغيره، المطبعة الأمريكية بيروت ١٩٤٢م.

١١٦- ابن قاضى شهبة، تقى الدين أبى بكر بن أحمد، تاريخ ابن قاضى شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسى للدراسات العربية دمشق ١٩٩٤م.

١١٧- أبى القاسم اللاكائى، كرامات أولياء الله عز وجل، تحقيق أحمد سعيد حمدان، دار طيبة للنشر السعودية الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

١١٨- القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر القاهرة، ٢٠٠٤م.

١١٩- ـــ ، ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، نشر محمود سلامة مصر ١٩٠٦م.

١٢٠- القدسى، محمد بن خليل ت ٨٨٨هـ دول الاسلام الشريفة البهية وذكر ما ظهر لى من حكم الله الخفية فى جلب طائفة الاتراك إلى الديار المصرية، تحقيق صبحى لبيب وغيره ط١ المعهد الالمانى للابحاث الشرقية بيروت ١٩٩٧م.

١٢١- القزوينى، مفيد العلوم ومبيد الهموم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

١٢٢- ـــ ، آثار البلاد وأخبار العباد، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٣م.

١٢٣- القفطى، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق محمد أمين الخانجى، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٢٦م.

١٢٤- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية الأجزاء ١٧-١٨، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركى، ط١، دار هجر القاهرة ١٩٩٨م.

١٢٥- مجهول تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زيترشتين، لندن ١٩١٩م.

١٢٦- المقدسى، محمد بن أحمد بن البناء البشارى، ت ٣٨٠هـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٩١م.

١٢٧- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت الطبعة السادسة ٢٠٠٨م.

١٢٨- ابن الكوهن الفاسى الشاذلى، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية فى طبقات السادات الشاذلية القاهرة ١٣٤٧م.

١٢٩- المقريزى، تقى الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ٢٠٠٨م.

١٣٠- ـ ،إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٤٠م.

١٣١- ـ ،البيان والإعراب عما بأرض مصر- من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، ط١ عالم الكتب القاهرة ١٩٦١م.

١٣٢- ـ ،درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق عدنان درويش وغيره، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٥م.

١٣٣- ـ ،الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥٥م.

١٣٤- ـ ،السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، ط٣ ، دار الكتب والوثائق القاهرة ٢٠٠٩م.

١٣٥- ـ ،المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان القاهرة ، ٢٠١٣م.

١٣٦- ـ ،المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، ط١، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩١م.

١٣٧- محمد بن منكلى ، أنس الملا بوحش الفلا، تحقيق محمد عيسى صالحية، دار البشير للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٣م.

١٣٨- النبهانى، جامع كرامات الأولياء دار البشير للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٣م.

١٣٩- نجم الدين الغزى، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل سليمان صور، دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٧٩م.

١٤٠- ابن مماتى ت ٦٠٦هـ قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١٠م.

١٤١- النويرى السكندرى، الإلمام أو مرآة العجائب، تحقيق عزيز سوريال عطية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، س الذخائر، القاهرة، ٢٠١٠م.

١٤٢- النويرى، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٣٠، ٣١،

تحقيق نجيب فواز، وغيره، الأجزاء ٣٢ ، ٣٣ تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٤م.

١٤٣- ابن الوردى، زين الدين عمر بن مظفر بن عمر، ت٧٤٩هـ تتمة المختصر فى أخبار البشر،القاهرة ١٢٨٥هـ.

١٤٤ ـ ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، تحقيق أنور محمد زناتى، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ٢٠٠٨م.

١٤٥- الوهراني، منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله، تحقيق ابراهيم شعلان محمد نفش ، دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٨٦م.

١٤٦-اليافعى عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان، ت ٧٦٨هـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط١ ، دائرة المعارف النظامية حيدر آباد، ١٣٣٧هـ.

١٤٧- أبى يعقوب التادلى، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١١م

١٤٨- اليمنى، السناء الباهر بتكميل النور السافر فى أخبار القرن العاشر، تحقيق إبراهيم المقحفى، مكتبة الارشاد القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١٤٩- اليوسفى، موسى بن محمد بن يحيى ت ٧٥٩هـ نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر تحقيق أحمد حطيط، ط١ ، عالم الكتب بيروت ١٩٨٦م.

١٥٠-اليونينى، ذيل مرأة الزمان، حيدر أباد، ١٩٥٤م.

كتابات الرحالة "العربية والمعربة"

(١) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٧٩هـ ، رحلته المعروفة بـ "تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار"، تحقيق محمد السعيد الزينى، المكتبة التوفيقية القاهرة د.ت.

(٢) بوكهارت، العادات والتقاليد المصرية، ترجمة أحمد شعلان مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٧م.

(٣) بوكهارت، رحلات بوكهارت فى بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس، المشروع القومى للترجمة القاهرة ٢٠٠٧م.

(٤) البلوى، خالد بن عيسى، ق٨هـ رحلة البلوى، تحقيق الحسن السابح، مطبعة فضالة المحمدية المغرب د. ت

(٥) التجيبى، القاسم بن يوسف التنجيبى السبتى ت ٧٣٠هـ مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب تونس ١٩٧٥م.

(٦) التطيلى، بنيامين، رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة عزرا حداد ، ط١، المجتمع الثقافى أبو ظبى/ ٢٠٠٢م.

(٧) ابن جبير، أبى الحسن محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ ، رحلة بن جبير، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف القاهرة ٢٠٠٠م.

(٨) ابن الحاج ، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى ت ٧٣٧هـ ، المدخل إلى الشرع الشريف، تحقيق أحمد فريد المزيدى، المكتبة التوفيقية القاهرة د.ت.

(٩) طافور، رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ٢٠٠٢م.

(١٠) عبد اللطيف البغدادى ت ٦٢٩هـ الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط٢ ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٩٨م.

١١ العبدرى، محمد بن محمد بن على بن أحمد ت بعد سنة ٧٠٠هـ رحلة العبدرى، تحقيق على إبراهيم كردى، ط٢ ، دار سعد الدين دمشق ، ٢٠٠٥م.

١٢ فارتيما، لود فيكودى، رحلات فارتيما ، ترجمة وتعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٤م.

١٣ ليون الافريقى، الحسن بن محمد الوزان، وصف أفرقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة، منشورات جامعة الامام محمد بن سعود ١٩٧٩م.

١٤ ناصر خسرو علوى ، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣م.

المراجع الثانوية

(١) إبراهيم طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة القاهرة ١٩٦٠م.

(٢) إبراهيم طرخان النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٨٦م.

(٣) إبراهيم ماضى، زى أمراء المماليك فى مصر، الهيئة العامة للكتابالقاهرة ٢٠١٠م.

(٤) إبراهيم عبد العليم حنفى ,البنية الاسطورية فى سيرة الظاهر بيبرس، هيئة الكتاب القاهرة ٢٠١٣م.

(٥) أبو اليسر فرح، النيل فى المصادر الاغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٢م.

(٦) أحمد تيمور، الأمثال العامية، مركز الاهرام للترجمة القاهرة ١٩٨٦م

(٧) أحمد حطيط، قضايا من تاريخ المماليك السياسى والحضارى لبنان ٢٠٠٣م

(٨) أحمد دراج، المماليك والافرنج فى القرن٩ هـ/ ١٥ م، دار الفكرالقاهرة١٩٦١م.

(٩) أحمد صادق الجمال، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٣م.

(١٠) أحمد صبحى منصور، العقائد الدينية فى مصر المملوكية،هيئة الكتاب القاهرة ٢٠٠٠م.

(١١) أحمد عبد الرازق، المرأة فى مصر المملوكية ، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٩٩م.

(١٢) أحمد عبد الرازق ، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٩٩م.

(١٣) أحمد عبد الرازق محمد، عوامل انهيار دولة سلاطين المماليك, دار عين للدراسات الانسانية الاجتماعية القاهرة ٢٠١٦م.

(١٤) أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية القاهرة ، ٢٠٠٨م.

(١٥) أحمد كمال ذكى، الاساطير دراسة حضارية مقارنة، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠٠م

(١٦) أحمد ممدوح، معدات التجميل الفن الاسلامى القاهرة ١٩٥٩م.

(١٧) أحمد على مرسى، مقدمة فى الفولكلور ، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠٠١م.

(١٨) أحمد مصطفى، الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٠م.

(١٩) إدريس شاه، الصوفيون ، ترجمة بيومى قنديل، المركز القومى للترجمة القاهرة، ٢٠١٦م.

(٢٠) آدم صبرة، الفقر والاحسان فى عصر سلاطين المماليك، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط١، المشروع القومى للترجمة القاهرة ٢٠٠٣م.

(٢١) إميل لو دفيغ ، النيل حياة نهر، ترجمة عادل زعيتر مكتبة الأسرة القاهرة ١٩٩٧م.

(٢٢) انطوان خليل خوامط، الدولة المملوكية، التاريخ السياسى الاقتصادى والعسكرى ، ط٢ ، دار الحداثة بيروت ١٩٨٢م.

(٢٣) آن وولف، كم تبعد القاهرة ؛ ترجمة قاسم عبده قاسم، ط٢، المشروع القومى للترجمة القاهرة ٢٠٠٦م.

(٢٤) أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليله وليلة، ترجمة أحمد حليمه ،هيئة الكتاب القاهرة ١٩٨٦م.

(٢٥) إيمان عمر شكرى، برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ط١، مكتبة مدبولى القاهرة ٢٠٠٢م.

(٢٦) بتلر، الكنائس القبطية المقدسة فى مصر، ترجمة إبراهيم سلامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة٢٠٠٢م.

(٢٧) بوزروث ، السلالات الاسلامية الحاكمة، ترجمة عمرو الملاح، دار الكتب الوطنية أبو ظبى ٢٠١٣م.

(٢٨) بيتر ثوراو، أسد مصر السلطان الظاهر بيبرس والشرق الأونى ، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١٥م.

(٢٩) توفيق الطويل، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٨م.

(٣٠) جيهان المأمون، من سيرة المماليك ، دار نهضة مصر القاهرة ، ٢٠١٥م.

(٣١) جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة مصطفى العبادى، دار عين للدراسات الانسانية القاهرة ٢٠٠٣م.

(٣٢) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، ترجمة سمير مرقس، هيئة الكتاب القاهرة ٢٠١٥م.

(٣٣) حسن أحمد البطاوى، أهل العمامة فى مصر عصر سلاطين المماليك ط١، دار عين القاهرة ٢٠٠٧م.

(٣٤) حسن الشرقاوى، معجم الالفاظ الصوفية، مؤسسة مختار القاهرة ١٩٨٧م.

(٣٥) حسن الباشا، الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة القاهرة ١٩٩٦م.

(٣٦) حسن ظاظا، الفكر الدينى الاسرائيلى أطواره ومذاهبه القاهرة ١٩٧١م.

(٣٧) جيمس فريذر، الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم ، دار المعارف القاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٢م.

(٣٨) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٧م.

(٣٩) خطرى عرابى، البناء الاسطورى للسيرة الشعبية، دار عين للدراسات الانسانية القاهرة ٢٠٠١م.

(٤٠) زبيده عطا، يهود العالم العربى، دعاوى الاضطهاد ، دار عين القاهرة ٢٠٠٤م.

(٤١) زكى مبارك، التصوف الاسلامى، دار الكتب والوثائق القوميةالقاهرة ٢٠١٦م.

(٤٢) زكى محمد حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، دار المعارف القاهرة ١٩٤٥م.

(٤٣) سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية القاهرة ٢٠١٤م.

(٤٤) سعد الخادم، الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة د.ت.

(٤٥) سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر و الشام، ط٣، الانجلو مصرية القاهرة ١٩٩٤م.

(٤٦) سعيد عاشور، مصر فى عصر المماليك البحرية، سلسلة الالف كتابالقاهرة ١٩٥٤م.

(٤٧) سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٠م.

(٤٨) سعيد عاشور، السيد أحمد البدوى شيخ وطريقة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٩٨م.

(٤٩) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ٢٠٠١م.

(٥٠) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ٢٠٠٢م.

(٥١) سهير القلماوى، ألف ليلة وليلة، قصور الثقافة ش ذاكرة الكتابة القاهرة ٢٠١٠م.

(٥٢) سوزان السعيد، المرأة وحقوقها وواجباتها فى الشريعة اليهودية، دار عين القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٥٣) سليم كتشنر، سيرة مارجرجس، المجلس الأعلى للثقافةالقاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

(٥٤) سونيا هاو ، فى طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز ، مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٥٧م.

(٥٥) سحر السيد إبراهيم، تربية الأطفال فى عصر سلاطين المماليك، دار عين القاهرة ٢٠١٤م.

(٥٦) الشربينى، هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف: قريتنا المصرية قبل الثورة، دار النهضة العربية القاهرة د.ت.

(٥٧) ابن سيرين ، تفسير أحلام التشاؤم ، إعداد عبد الحفيظ بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٠.

(٥٨) شحاته عيسى إبراهيم، القاهرة، مكتبة الأسرة القاهرة، ٢٠٠١م.

(٥٩) شلبى الجعيدى، طبقة العامة فى مصر فى العصر الايوبى ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٣م.

(٦٠) شوقى عبد القوى عثمان، التجارة بين مصر وأفريقيا فى عصر المماليك، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠١م.

(٦١) شيرين الجندى، آثار مصر المسيحية، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م.

(٦٢) عامر النجار، الطرق الصوفية فى مصر ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٩٥م.

(٦٣) عبد الوهاب عزام، مجالس السلطان الغورى، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة٢٠١٠م.

(٦٤) عثمان محمد عطا، الأزمات الاقتصادية فى مصر العصر المملوكى ، الهيئة العامة للكتاب، س تاريخ المصريين القاهرة ٢٠٠٢م.

(٦٥) عبد الحليم حنفى، المراثى الشعبية، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٩٩

(٦٦) عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر فى عصرى المماليك والعثمانين ، مكتبة نهضة الشرق القاهرة١٩٦٣م

(٦٧) عصام ستاتى، مقدمة فى الفولكلور القبطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١٤م.

(٦٨) عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام ١١٠٠- ١٤٠٠م، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٣م.

(٦٩) عرفة عبده على ، موالد مصر المحروسة، دار عين القاهرة ١٩٩٥م.

(٧٠) على إبراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عهد الناصر محمد بوجه خاص، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٤م.

(٧١) على سالم النباهين، نظام التربية الاسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٨٢م.

(٧٢) على السيد على ، المرأة المصرية والشامية فى عصر الحروب الصليبية، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠٠٧م.

(٧٣) على السيد على، بحوث فى التاريج الاجتماعى من العصر المملوكى، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ٢٠١٤.

(٧٤) على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة و مدنها وبلادها القديمة والشهيرة، دار الكتب القاهرة، ٢٠٠٩م.

(٧٥) على مبارك، نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر، تحقيق لطيفة سالم وآخرون، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، ٢٠٠٩م.

(٧٦) عمار على حسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية ، قصور الثقافة القاهرة٢٠١١م

(٧٧) عمرو عبد العزيز منير، مصر والعمران فى القرنين ٦ ، ٧ هـ بين كتابات الرحالة والموروث الشعبى، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ٢٠٠٩م.

(٧٨) عمرو عبد العزيز منير ، الاساطير المتعلقة بمصر فى كتابات المؤرخين المسلمين دار عين للدراسات الانسانية القاهرة، ٢٠٠٨م.

(٧٩) علاء طه رزق، دراسات فى تاريخ عصر سلاطين المماليك ط١، دار عين القاهرة ٢٠٠٨م.

(٨٠) علاء طه رزق، عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، دار عين القاهرة٢٠٠٣م.

(٨١) غازى السعدى، الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود، دار الجليل للنشر عمان الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

(٨٢) فاروق عثمان أباظة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف القاهرة ١٩٩٤م.

(٨٣) فاطمة مصطفى عامر، تاريخ أهل الذمة الاسلامية ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١م.

(٨٤) فايز نجيب اسكندر ، مصر فى كتابات الحجاج الروس فى القرنين ١٥ و ١٦، دار الفكر الجامعى الاسكندرية د.ت .

(٨٥) فوزى حامد عباس، الحياة الاقتصادية فى مصر العليا خلال العصر المملوكى، مكتبة الآداب القاهرة ، ٢٠٠٥م.

(٨٦) فوزى محمد أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول، دار المعارف القاهرة ١٩٨٢م.

(٨٧) قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى ط١، دار المعارف القاهرة ١٩٧٧م.

(٨٨) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف القاهرة ١٩٧٨م.

(٨٩) قاسم عبده قاسم، أسواق مصر فى عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١٤م.

(٩٠) قاسم عبده قاسم، اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى دار عين القاهرة.

(٩١) قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلو ، دار عين للدراسات الانسانية القاهرة٢٠١١م

(٩٢) قاسم عبده قاسم، السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، ط١، دار عين القاهرة.

(٩٣) قاسم عبده قاسم، فى تطور الفكر التاريخى، دار عين القاهرة ٢٠٠٨م.

(٩٤) قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك، دار الشروق القاهرة ١٩٩٤م.

(٩٥) قاسم عبده قاسم، فى تاريخ الايوبين والمماليك ، دار عين القاهرة ، ٢٠٠٧م.

(٩٦) قاسم عبده قاسم، بين الأدب والتاريخ ، دار عين القاهرة ، ٢٠٠٧م

(٩٧) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية القاهرة ٢٠١١م.

(٩٨) لطفى أحمد نصار، وسائل الترفية فى عصر سلاطين المماليك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٩٦م.

(٩٩) لين بول، ستانلى، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وغيره، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٣م.

(١٠٠) ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشينى، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٧٢م.

(١٠١) مجدى عبد الرشيد بحر، القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب ش تاريخ المصريين القاهرة ١٩٩٩م.

(١٠٢) محرم كمال، آثار وحضارة الفراعنة فى حياتنا اليومية، هيئة الكتاب القاهرة، ١٩٩٩م.

(١٠٣) محاسن محمد الوقاد، الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية ، الهيئة العامة للكتاب، ش تاريخ المصريين القاهرة ١٩٩٩م.

(١٠٤) محمد أحمد دهمان، معجم الالفاظ التاريخية فى العصر المملوكى، دار الفكر المعاصر بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

(١٠٥) محمد الصادق حسين ، البيت السبكى بيت علم فى دولتى المماليك، دار الكاتب المصرى القاهرة ١٩٤٨م.

(١٠٦) محمد بكر إسماعيل، تفسير الأحلام فى ضوء الإسلام، دار المنار القاهرة، ٢٠٠٢.

(١٠٧) محمد جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس فى مصر، دار الفكر القاهرة، ١٩٦٠م.

(١٠٨) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون فى مصر: الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص، دار الفكر القاهرة ١٩٦٧م.

(١٠٩) محمد الجوهرى، المعتقدات والمعارف الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١٢م.

(١١٠) محمد حمزة إسماعيل، السلطان المنصور قلاوون تاريخ – أحوال مصر فى عهده – منشأته المعمارية ط٢ ، مكتبة مدبولى القاهرة ١٩٩٨م.

(١١١) محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعيارين، ط٢، قصور الثقافةالقاهرة٢٠٠٧م.

(١١٢) محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠م.

(١١٣) محمد عوض نهر النيل، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٨م.

(١١٤) محمد صبرى الدالى، التصوف وإيامة، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة

(١١٥) محمد صبرى الدالى، فقهاء وفقراء ، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م.

(١١٦) محمد عبد السلام إبراهيم، الانجاب والمأثورات الشعبية، دار عين للدراسات الإنسانية القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

(١١٧) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن الاسلامى فى العصر الايوبى، المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٣م.

(١١٨) محمد عبد الغنى الاشقر، تجارة التوابل فى مصر العصر المملوكى مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٧م.

(١١٩) محمد عبد الغنى، الوزارة والوزراء فى مصر عصر سلاطين المماليك الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠١١م.

(١٢٠) محمد فتحى زامل، التحولات الاقتصادية فى مصر أواخر العصور الوسطى، ط١ ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ٢٠٠٨م.

(١٢١) منى كامل العيسوى، من التراث الشعبى والمشغولات المعدنية ، دار عين القاهرة ، ٢٠٠٨م.

(١٢٢) محمود الحويرى، مصر فى العصور الوسطى، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية القاهرة ، ٢٠٠٣م.

(١٢٣) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبى والعلمى القاهرة ١٩٤٧م.

(١٢٤) مكفرسون ، الموالد فى مصر، ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٨م.

(١٢٥) مصطفى لطفى، حكاية اليهود فى مصر العصر الايوبى، الهيئة العام لقصور الثقافة القاهرة ٢٠١٣م.

(١٢٦) مصطفى وجيه مصطفى، احتفالات الحج المصرية فى عصر سلاطين المماليك، دار عين القاهرة ٢٠١٤م.

(١٢٧) مصطفى وجيه، الغذاء فى مصر عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية القاهرة ، ٢٠١٦م.

(١٢٨) مصطفى حلمى، الحياة الروحية فى الاسلام، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٨٤م.

(١٢٩) نبيل عبد العزيز، المطبخ السلطانى فى عصر الايوبين و المماليك، الانجلو مصرية القاهرة ١٩٨٩م.

(١٣٠) نبيل عبد العزيز، الخيل ورياضتها فى عصر سلاطين المماليك، الانجلو مصرية القاهرة ١٩٨٦م.

(١٣١) نجوان أحمد سعيد، الحسبة فى مصر عصر سلاطين المماليك، دار عين القاهرة ، ٢٠١٤م.

(١٣٢) نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٧٣م.

(١٣٣) نعوم شقير، تاريخ سيناء، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٧م.

(١٣٤) نظير حسان سعداوى، صور ومظالم من عصر المماليك، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٦م.

(١٣٥) نيكولاس بيخمان، الموالد والتصوف ، ترجمة رؤوف مسعد، القومى للترجمة القاهرة ٢٠٠٩م.

(١٣٦) هايد، ج، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة احمد رضا محمد، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٩٤م.

(١٣٧) هشام عبد العزيز، فولكلور النيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠١١م.

(١٣٨) وليم لين، المصريون المحدثون وشمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى ظاهر الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.

(١٣٩) وليم لين، المجتمع العربى فى العصور الوسطى، ترجمة على حسن الخربوطلى، الهيئة العامة للكتاب القاهرة د. ت

(١٤٠) وينفريد بلاكمان، الناس فى صعيد مصر، ترجمة أحمد محمود، دار عين للدراسات الانسانية والاجتماعية القاهرة الطبيعة الأولى ، ١٩٩٥م.

(١٤١) يحيى شامى، تاريخ التنجيم عند العرب وأثره فى المجتمعات العربية الاسلامية، دار عز الدين بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

* الرسائل الجامعية:

أولاً: رسائل الدكتوراه:

(١) جيلان محمد عباس، الأعياد والاحتفالات فى مصر الإسلامية وجذورها التاريخية من الفتح العربى وحتى نهاية عصر المماليك الجراكسة، رسالة دكتوراه ، كلية السياحة والفنادق، جامعة حلوان ، ١٩٩٦م.

(٢) حامد عبد الله محمد، مصر فى كتابات الرحالة فيلكس فابرى ، رسالة دكتوراه جامعة الزقازيق فرع بنها ٢٠٠١م.

(٣) ذكاء محمد صالح، أنماط الحكاية الشعبية والقرن التاسع الهجرى عصر سلاطين المماليك من ٨٠٠ – ٩٠٠هـ ، رسالة دكتوراه آداب القاهرة ٢٠٠٤م.

(٤) سماح السلاوى، الأوضاع الحضارية فى مصر والشام فى العصر المملوكى من خلال كتابات الرحالة الأوربيين ، دكتوراه عين شمس ٢٠٠٥م.

(٥) شلبى إبراهيم الجعيدى، الأزمات الأوبئة فى مصر فى عصر المماليك الجراكسة، دكتوراه المنصورة ٢٠١١م.

(٦) عبد الخالق التميمى، أهل الذمة ومؤسساتهم فى دولة المماليك البحرية، رسالة دكتوراه جامعة بغداد ٢٠٠٤م.

(٧) عبد العظيم حامد خطاب، قانصوه الغورى ونهاية الدولة المملوكية رسالة دكتوراه جامعة عين شمس ١٩٧٣م.

(٨) لبيبة إبراهيم مصطفى، الفتن والقلاقل الداخلية فى دولة سلاطين المماليك وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، دكتوراه ، جامعة القاهرة ٢٠٠٠م.

(٩) لطفى أحمد نصار، الدور السياسى للشعب المصرى عصر المماليك الجراكسة، دكتوراة، آداب عين شمس ١٩٩٧م.

(١٠) محمد حسن محمد حسن، الأبعاد الاجتماعية لظاهرة التصوف فى مصر عصر سلاطين المماليك، دكتوراه بآداب الزقازيق ،١٩٩٦م.

ثانياً: الماجستير

[١] أحمد عبد الرازق محمد عبد العزيز، الفقراء فى القاهرة فى القرنين ٦ ، ٧ هـ/ ١٢ ، ١٣م ، رسالة ماجستير الزقازيق ٢٠١١م.

[٢] أحمد محمود محمد إبراهيم، الدور السياسى والحضارى للصوفية فى مصر زمن سلاطين المماليك، رسالة ماجستير دار العلوم القاهرة ٢٠٠٦م.

[٣] إسماعيل عبد المنعم قاسم، الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية زمن سلاطين المماليك البحرية، رسالة ماجستير عين شمس ١٩٨٨م.

[٤] حسين ماض، تاريخ الجرائم فى مصر والشام فى العصر المملوكى رسالة ماجستير، دار العلوم، ٢٠١٣م.

[٥] سماح السلاوى ، الجاليات الاجنبية فى مصر فى العصر المملوكى، ماجستير الزقازيق ٢٠٠٣م.

[٦] محمد حسن محمد حسن، الأسرة المصرية فى عصر سلاطين المماليك ماجستير بآداب الزقازيق ، ١٩٨٩م.

[٧] محمد حمدان إبراهيم أحمد، الكهانة والعرافة فى أثينا إبان العصر الكلاسيكى ، رسالة ماجستير جامعة الزقازيق ٢٠١٦م.

[٨] محمد عبد القادر موافى ، المنشآت المعمارية المملوكية فى شرق الدلتا، رسالة ماجستير جامعة الزقازيق ١٩٨٥م.

البحوث

١- أمام محمد الشافعي، " الرؤي والاحلام عصر الحروب الصليبية" ، مجلة كلية اللغة العربية، أسيوط جامعة الأزهر ، ٢٠١٦م.

٢- إيمان مصطفي عبد العظيم " العربان في مصر بين الاعتداء والولاء» ، حوليات أداب عين شمس ، ٢٠١٤م.

٣- بلقيس عيدان لويس " مرويات الفكر الغيبي في مصر المملوكية" مجلة التراث العربي، العدد الثاني ٢٠١٥م.

٤- سيد محمود محمد عبد العال «دور خوندات سلاطين المماليك في الحياتين السياسية والاجتماعية» إتحاد المؤرخين العرب ٢٠١١م.

٥- علي السيد علي " القاهرة في عيون الرحالة الاوربيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين" مجلة فكر للدراسات والبحوث العدد ١٣ ، ١٩٨٨م.

٦- عمرو منير "الألعاب السحرية وخفة اليد في التراث العربي مصر المملوكية أنموذجاً"؛ مجلة الثقافة الجديدة القاهرة ٢٠١٥م.

٧- محمد فوزي رحيل" عناق السيف والعمامة الشيخ الخضر والظاهر بيبرس ", مجلة كلية التربية قطر العدد ١٨٣ مارس ٢٠١٤م.

المصادر والمراجع غير المعربة:

1. Ashtor ,History of the jews in Egypt and Syria under the Rule of the ma - luks ,Geniza documents ,III vols ,Jerusalem 1970 ,in Hebrew framents from the Cairo Geniza .Vol.1

2. Breyden Bach .Les saintes peregrinations ,Bernard de Breyden Bech1483 ed larrvaz le caire.1904

3. Casola ,pilgrimage to Jerusalem ed Margaret Manchester.1907

4. Depping ,G.B ,.Histire du commerce enter le levant et l ,Europe depuis les croisades jusqua la foundation des colonies d ,Amerique vol 1,2 .paris, .1830

5. Domeinco trevsani ,le voyage ,D ,outré mere D ,Egypte 1512 ed schefer paris.1864

6. Dopp ,Le caire vu par les voyageurs occident du moyen ages ,tom ,24-26 le caire.1951 ,

7. Fabri ,F . Voyage en Egypte de Felix Fabri ,ed masson .J ,Paris.1975

8. Frescobaldi ,Gucci ,Sigoli ,Avisit to the holy places ,ed theophlus Jerusalem .1948

9. Joos van Ghistele ,voyage en Egypte 1842-1483 ed Bauwens Bruxelles.

10. Ludoloph von suchem ,Descrption of the holy land and and the way thither ed by stewart .A ,London.1895

11. Nicolo ,voyage beyond the sea ,1346-1350 Jerusalem ,1945 ,p.84
12. Obadiah Jara Da Bertinoro ,Itinerary of Obadiah 1487-1490 AD ,in J.T .ed Adler London.1930
13. Piloti ,L ,Egypte du commencement du qunzieme siècle d ,après le trait d, Emmenuel Piloti decret incipt ,1420 ed .Dopp ,.Le Caire.1950 ,
14. Suriano ,F .Treatise on the holy land ,ed by fr .Theophils-Bellorini ,Jerus - lem.1948 ,
15. Thenoud ,J .Le voyage d'outrémer de jean thenoud ,Paris.1888 ,
16. Willim Muir ,Mameluk or slave Dynasty of Egypt ,Amsterdam ,coriental press.1968 ,
17. Wright .T .Early travelers in Palestine ,London.1948 ,

رقم الإيداع / ١٩١٠٠ / ٢٠١٨م

I.S.B.N. 978-977-322-405-9 الترقيم الدولى

مطبعة صحوة

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠٠١٠٠٩٦٧٨